وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية



المجلة السياسية والدولية

BAGHDAD No. 8 2008

- القوميات وتأثيرها على العلاقات الدولية
- الجيوبولتيك ونظرية صدام الحضارات
- النظام الفيدرالي في العراق بين الواقع والطموح
- الحوار وقبول الآخر في التراث الاسلامي
- بحوث المؤتمر العلمي السنوي الاول لكلية العلوم السياسية الجامعة المستنصرية

رؤى الاكاديميين في بناء العراق الجديد

عرض الكتاب
المرجعية الفكرية للخطاب السياسي الاستراتيجي الامريكي مابعد الحادي عشر من ايلول / سبتمبر 2001

السنة الثانية - العدد الثامن - ٢٠٠٨

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة المستنصرية
كلية العلوم السياسية



المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية –الجامعة المستنصرية

السنة الثانية | العدد الثامن | ٢٠٠٨

ISSN = 1991-8984

المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية



قواعد النشر

ترحب المجلة السياسية والدولية والتي تصدرها كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية بإسهامات الكتاب والمفكرين من الكليات في الجامعات العراقية والعربية والمتخصصة بالقضايا السياسية والعلاقات العربية-العربية والعربية-الدولية، مع الاهتمام بشكل خاص بما يتعلق بالمشروع السياسي والحضاري والنهضوي العربي وتحيطكم علماً بشروط النشر فيها:

١. ان تعالج القضايا باسلوب علمي موثق.
٢. ان يكون التوثيق بذكر المصادر والمراجع باسلوب اكاديمي، يتضمن الكتب والمجلات.
٣. معيار النشر هو الموضوعية والدقة ودرجة التوثيق.
٤. ترسل البحوث بنسختين مع قرص مرن.
٥. ان لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن اربع عشرة صفحة A4.
٦. يشترط ان لا تكون البحوث او الدراسات قد نشرت في مجلات اخرى.
٧. تخضع البحوث او الدراسات المرسلة الى التحكيم العلمي من جانب الهيئة الاستشارية في المجلة.
٨. تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.
٩. لا تدفع المجلة او الكلية أي مكافات مالية عما تقبله من النشر فيها ويعد النشر اسهاماً معنوياً من الكاتب.

أن الآراء الواردة في البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة او الكلية

الاشتراك في المجلة تراجع كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية

بغداد- باب المعظم – صندوق بريد ٤٦١٥٩

هاتف ٤١٤٠٨٥١ ، ٤١٤٠٨٥٢ ، ٠٧٩٠١٩٢٣١٥٢

البريد الالكتروني : E-mail : Psc_Mustainsiriyah@yahoo.com

E-mail: politicalcollege@yahoo.com

الافتتاحية

بانعقاد المؤتمر العلمي السنوي الاول لكلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية في الثاني عشر من يناير/كانون الثاني ٢٠٠٨، تكون الكلية قد خطت خطوة متقدمة بهدف ترسيخ مسيرتها العلمية والاكاديمية، حيث ان (رؤى الاكاديميين العراقيين ففي اعادة بناء العراق الجديد) تشكل مساهمة فعالة في بلورة رأي مشترك لوضع الاسس الصحيحة لاعادة الاعمار وفي كافة المجالات، حيث الاركان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تمثل المرتكزات الاساسية في تشييد الصرح المعماري الجديد. وهذا العدد يضم المحور الاول الذي تناوله المؤتمر بالدراسة والتحليل، ومن خلال الدراسات التي طرحت وجهات نظر متعددة الا أنها تلتقي في هدف مركزي واحد هو أن ترسيخ وتعزيز المسيرة الديمقراطية كفيل بتحقيق الوحدة الوطنية لشعب يتسم بالتنوع الثقافي، ومن هذا التنوع يستمد قوته وصلابة نسيجه الاجتماعي المتأصل في تربة هذا الوطن العزيز. كما يضم العدد دراسات اخرى تتناول مواضيع مختلفة.

والله الموفق........

المشرف العام

الأستاذ الدكتور

ناظم عبد الواحد الجاسور

عميد كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية

المحتويات

كلية العلوم السياسية
الجامعة المستنصرية



المجلة السياسية والدولية

8
2008

ISSN
1991-8984





اسم المادة — رقم الصفحة

الجذور الدستورية لحقوق الانسان

الدكتور
عماد محمد ربيع(*)

الدكتور
علي عبد الرزاق الزبيدي(**)

المقدمة:

ان مهمة القانون الدستوري هي التعايش بين السلطة والحرية في اطار الدولة فكل مجتمع له اهداف لابد من تحقيقها، ومنها الاهداف الفردية التي لا يمكن ان تتحقق الا اذا توفرت للناس بعض الحرياتِ التي تسمح لهم بتحقيق شخصيتهم[١].

ان القانون الدستوري هو فرع من فروع القانون الذي يهتم بدراسة القواعد القانونية المدونة في الدستور لا غير بل ان القانون الدستوري كما يرى بعضهم هو علم الدساتير المكتوبة[٢].

ومن هنا تتضح لنا الصة بين حقوق الانسان وحرياته بمختلف فروع القانون بشكل عام وبالقانون الدستوري بشكل خاص. ويمكن معرفة تلك العلاقة ايضاً من خلال الاطلاع على فكرة الدستور نفسه والتي تعود الى الحضارات القديمة، فأرسطو نراه يجمع (١٥٨) دستوراً من دساتير المدن اليونانية وغير اليونانية لدراستها وتحليلها[٣].

ويمكننا القول ان الوثيقة التي تم الاتفاق عليها بين المهاجرين والانصار واليهود بعد وصول الرسول الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم" الى المدينة المنورة (يثرب سابقاً) لتنظيم العلاقة بين الاطراف الثلاثة هي بمثابة دستور[٤]، اذ احتوت على حقوق الاطراف جميعاً، وجاءت لتشكل القانون الاساسي للدولة الاسلامية بعد ان اكتملت عناصر الدولة الثلاثة وهي التجمع البشري، والاقليم، والسلطة[٥]. كما شهدت اوروبا في بداية العصور الوسطى صيغة مماثلة واقرب ما تكون الى الصيغة

(*) استاذ مشارك-كلية الحقوق/جامعة جرش
(**) أستاذ مشارك-كلية الحقوق/جامعة جرش

[1] Andre' Hauriou et Jean Gicquel: "Droit Constitutionnsel et Institutions Poliliques" Montchrestien, Paris, 1988, 8eme, p.p29et30.

[2] الدكتور الامين شريط: "الوجيز في القانون الدستوري والمؤسسات السياسية" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢، الطبعة الثانية، ص٦.

[3] المصدر السابق نفسه ص١٠٨.

[4] الدكتور محمد شريف بسويني: "الوثائق الدولية المعنية بحقوق الانسان"، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، المجلد الثاني، الطبعة الاولى، ص٢٧.

[5] الدكتور علي عبد الرزاق الزبيدي: "القانون الدستوري"، محاضرات غير منشورة القيت على طلبة الماجستير في القانون العام في كلية القانون، الجامعة المستنصرية، العام الدراسي ٢٠٠٤-٢٠٠٥.

الدستورية التي تتضمن حماية لحقوق الانسان وحرياته والتي تمثلت في الوثائق والاعلانات لكل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية، مثل ميثاق العهد الاعظم (الماكنا كارتا)، واعلان الاستقلال الامريكي[٦]. الا ان الشكل الحديث للتعايش بين السلطة والحرية او لنقل بشكل ادق لتنظيم الحكم ومن خلال وثيقة دستورية مكتوبة في دستور فرجينيا عام ١٧٧٦ الذي يعد اول دستور مكتوب[٧] لولاية، أعقبه الدستور الكونفدرالي عام ١٧٨١، ثم صدر اول دستور مكتوب لدولة فيدرالية وهو دستور الولايات المتحدة الامريكية عام ١٧٨٧ والعمول به الى الوقت الحاضر.

وقد عد الدستور المكتوب اداة الحرية وضمانة لحقوق المواطن وبالشكل الذي لا تمتد اليها يد المشروع، ثم انتقل الى الضفة الاخرى للاطلسي (اوروبا) لتكون فرنسا اول دولة اوروبية تضع لها دستوراً مكتوباً عام ١٧٩١ حمل هذا في مقدمته على اعلان حقوق الانسان والمواطن لعام ١٧٨٩ ولكون هذه المقدمة صيغت في اطار قانوني. ولوضوح الدستور المكتوب ولسهولة التعرف عليه من قبل المواطن انتشر في باقي دول العالم من خلال موجات الدسترة الاربعة وهي:

الاولى بدأت بعد الثورة الفرنسية واعلان الاستقلال الامريكي، والثانية ارتبطت بالثورتين الفرنسيتين لعامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، وجاءت الثالثة بعد الحرب العالمية الاولى، في حين كانت الرابعة بعد الحرب العالمية الثانية[٨].

---

[6] الدكتور رياض عزيز هادي: "حقوق الانسان-تطورها-مضامينها-حمايتها، مكتبة الماهر، بغداد، ٢٠٠٥، ص١٧، وما بعدها.

[7] تقسم الدساتير من حيث الشكل الى مدونة (مكتوبة) واخرى غير مدونة (عرفية)، والدستور غير المدون (العرفي) ينشأ من العرف الدستوري الذي يولد من خلال تكرار العمل بقاعدة دستورية تتعلق بأمر يتناول ممارسة السلطة، او انتقالها فيخلق قاعدة دستورية، ويعتبر الدستور الانكليزي المثال التقليدي لهذا النوع من الدساتير، حيث يحتوي على قواعد دستورية عرفية، بجانب اخرى مكتوبة. ينظر في ذلك الى:

- الدكتور محمد علي آل يساين: "القانون الدستوري والنظم السياسية"، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٤، الطبعة الاولى، ص٣٢ وما بعدها.
- Benoit Jeanneau: "Droit Constitutionnel et Institutions Politiques" Dalloz, Paris, 1978, p.p.26-64.
- الدكتور الامين شريط: مصدر سابق، ص ١٢١.
- الدكتور احسان حميد المفرجي والدكتور كطران زغير نعمة والدكتور رعد الجدة: "النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق"، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص١٩٥-٢٠٩.

[8] Andre' Hauriou et jean Gicquel: "Op. cit., p.p. 78 et 82.

ولتوضيح العلاقة بشكل ادق بين حقوق الانسان وحرياته بالقانون الدستوري لابد من تعريف الدستور نفسه. لقد طرحت تعاريف عديدة للدستور الا اننا يمكن ان نحدد ثلاثة اوجه هي:

الوجه الاول: وينطلق من منظور قانوني صرف فيرى ان الدستور هو تلك الوثيقة الاساسية للدولة التي تحدد شكلها (موحدة ام فيدرالية)، وشكل الحكم (ملكي ام جمهوري)، وشكل النظام (برلماني، رئاسي، شبه رئاسي، الخ) ويعد هذا التعريف محايداً.

الوجه الثاني: ويؤكد على الجانب السياسي الذي يعطي شكلاً معيناً للنظام السياسي، فالدستور في عرف من قاد الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ هو الذي يضمن الحريات الفردية من خلال تحديد نشاط الحكام وتقييدها، وما يؤكد ذلك ما جاء في الاعلان الفرنسي لحقوق الانسان والمواطن (م١٦) التي تنص على" انؤ المجتمع الذي يتوفر فيه دستور هو المجتمع الذي تضمن فيه الحريات الفردية، ويتحقق فيه الفصل بين السلطات".

الوجه الثالث: يتسم هذا الوجه بسمات اقتصادية واجتماعية اذ يرى ان الدولة ليست هدفاً بحد ذاتها، وانما وسيلة في خدمة نظام اجتماعي معين[9].

واخيراً يعرف الدستور من الناحية الاصطلاحية بكونه (مجموعة القواعد المتعلقة ببيان مصدر السلطة وتنظيم ممارستها، وانتقالها والعلاقة بين القابضين عليها. كذلك تلك المتعلقة بالحقوق والحريات العامة في الدولة، سواء وجدت هذه القواعد في صلب الوثيقة الدستورية او خارجها)[10].

الا ان هناك من يرى غير ذلك، وحسب وجهة النظر هذه فان للقانون الدستوري مفهوماً تاريخياً، كما انه من صنع الطبقة البرجوازية في صراعها ضد الملكية المطلقة في القرن السابع والثامن عشر بل وحتى في القرن التاسع عشر، اذ ارادت هذه الطبقة ان تسيطر وتؤدي دوراً سياسياً فنادت بفرض قيود للحد من السلطة الملكية وللسيطرة عليها، كما ان مبدأ الفصل بين السلطات قد جاء لصالح الدولة الرأسمالية لان هذا المبدأ هو الاساس والركيزة

---

[9] الدكتورة رقية المصدق: "القانون الدستوري والمؤسسات السياسية"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦، الجزء الاول، الطبعة الاولى، ص٧٤-٧٥.

[10] الدكتور احسان المفرجي والدكتور كطران زغير نعمة والدكتور رعد الجدة: مصدر سابق، ص١٦١. كذلك انظر:
E'ric Oliva: "Droit Constitutionnel", Dalloz, Paris, 2004, p.1

التي اعتمدتها الدساتير حديثة الولادة. وهذا المفهوم للدساتير يقوم على قاعدة ان كل قانون ينظم وظيفة من وظائف الدولة الرأسمالية، كما ان هذا المبدأ يمس حسب وجهة نظر بول اليز حتى التصويت في الانتخابات[11].

مما سبق يتبين لنا ان هناك صلة وثيقة بين حقوق الانسان وحرياته بالقانون الدستوري لا بل هي جزء منه ان لم تكن وكما نعتقد الجزء الاهم.

لقد كانت بداية الاهتمام بحقوق الانسان وحرياته باعتبارها قواعد قانونية ملزمة في بريطانيا، وكان ذلك في ميثاق العهد الاعظم (الماكنا كارتا) الذي صدر في ١٢١٥ اذ مثل اول الوثائق واهمها التي قيدت سلطة الملك المطلقة، ثم تلتها وثائق واعلانات اخرى اتضحت اهميتها من خلال ضمان حقوق وحريات المواطن من جهة، وتقييد سلطة الملك من جهة اخرى.

اما في امريكا الشمالية فقد كانت هناك ثلاثة عشر مستعمرة خاضعة لبريطانيا والتي شكلت بعد استقلالها ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة الامريكية من خلال اعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ الذي اكد على كون حقوق الانسان وحرياته هي حقوق طبيعية[12]. وقد تضمنت هذه الوثائق والاعلانات الجزء الاهم من دستور البلدين.

---

[11] Paul Allie's: "Elments de droit Politique", Les edition du Fauborg, Montpellier, 1981, p.38.

[12] لقد نادت مدرسة القانون الطبيعي بوجود قانون طبيعي نابع من طبيعة الانسان ومن عقله، يسبق كل القوانين الوضعية ويعد اسمى منها وهي عبارة عن الحقوق الطبيعية للافراد والتي هي حقوق ملازمة للطبيعة البشرية وهي ثابتة للانسان وهو في حالة الطبيعة. اي قبل وجود الدولة وتحدث عنها مفكرو العقد الاجتماعي. وقد جاء اعلان حقوق الانسان والموطان الفرنسي مؤكداً عليها من خلال المادة الثانية التي تنص على: "ان هدف كل تجمع سياسي هو الحفاظ على حقوق الانسان الطبيعية غير القابلة للتقادم. وهذه الحقوق هي الرحية، الملكية، الامن ومقاومة الطغيان". كما وردت كذلك في اعلان الاستقلال الامريكي اذ نص على: "ان جميع البشر قد خلقوا متساوين، وان خالقهم قد حباهم بحقوق معينة لا تنتزع، ومن بينها حق الحياة، الحرية، والسعي في سبيل تحقيق السعادة".

المبحث الاول

الارث البريطاني

لقد كان اهتمام الشعب البريطاني وحرصه على حقوقه وحرياته كبيراً فقد بدأ بوضع اسس هذه الحريات منذ ثمانية قرون تقريباً وكان ذلك في العهد الاعظم الذي اكتسب شهرة واسعة وكان مصدراً لكثير من الوثائق والدساتير اللاحقة، وقد تضمن الدستور الامريكي في اجزاء غير قليلة منه هذا الارث. فضلاً عن ذلك ان بريطانيا كانت اول بلد قيد صلاحيات المجلس الاعلى وبشكل تدريجي حتى اصبح مجلس اللوردات مجلساً استشارياً بعد ان تم تخويل صلاحيات الملك الى مجلس الوزراء.

ولو امعنا النظر قليلاً في حقيقة المؤسسات الانكليزية لوجدنا انها تمثل نموذجاً للديمقراطية. ولعل من اسباب هذا النجاح هو (كون الانكليز تقليديون يحترمون مؤسساتهم القديمة، كما وصفوا بانهم اصدقاء القانون ويعشقون الحرية)[١٣].

ومن اهم تلك الوثائق والاعلانات هي:

١. ميثاق العهد الاعظم (١٢١٥) Magna Carta
٢. عريضة الحقوق (١٦٢٨) The Petition of Right
٣. الاشعار القضائي (١٦٧٩) Habeas Corpus
٤. لائحة الحقوق (١٦٨٩) Bill of Rights

اولاً: ميثاق العهد الاعظم (١٢١٥) Magna Carta [١٤]

يعد هذا الميثاق ثمرة لثورة النبلاء على الملك جون ويعد من اهم الوثائق البريطانية التي قيدت صلاحيات الملك التي تمثلت بحقوق النبلاء وحرية الكنيسة من خلال احترام الحريات الفردية (الامان الشخصي وحرية التجارة). كما أكد الميثاق على عدم جواز اصدار

---

[13] Andre' Hauriou et jean Gicquel: "op. cite., p.338.
ينظر كذلك الدكتور منذر الشاوي: "القانون الدستوري"، (نظرية الدستور)، منشورات مركز البحوث القانونية، بغداد، ١٩٨١، ٢٣٥ ومابعدها.

[14] عد ان بالغ الملك جون في طغيانه وجمع الاموال بالشكل الذي ارهق الجميع ووصل الى حد تهديد مصالح النبلاء ورجال الدين. وقفت كلا الطبقتين ضده ودخلت معه في صراع خسر فيها الملك، مما اضطره الى التنازل والتوقيع على هذا العهد الذي قيد صلاحياته. لذا ليس صحيحاً وصف العهد بانه منحة من الملك لان الاخير قد وافق عليه مكرهاً وليس مخيراً.
ينظر على شبكة الانترنت http: en.wikipedia.org/wiki/magna.carta.2005

الضرائب بصورة استثنائية لا يوافق عليها المجلس[١٥]، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مـواده وهي:

المادة الاولى: حق الكنيسة في انتخابات حرة.

المادة الثالثة عشر: ستتمتع لندن كما هو الحال بالنسبة للقصبات والمـوانئ بحريـة العمـل والتحرك بشكل مجاني.

المادة العشرون: اكدت على العدالة في الغرامات التي تفرض، كما يجب ان تتناسب والفعـل وبالشكل الذي لا يمنع من اعلة عائلة، والتاجر بان لا تهدر تجارته والفـلاح ان لا يفقد ادواته.

المادة الثالثة والعشرون: وجاءت بتحريم اعمال السخرة وتنص على عدم اجبـار النـاس او البلدان على بناء الجسور.

المادة التاسعة والثلاثون: ونصت على عدم جواز سجن رجل حر او الاستيلاء على ممتلكاته او نفيه الا بقانون.

المادة اربعون: اكدت على حرية التنقل ونصت على حرية التجارة، والتجار احرار في عملهم وتنقلهم وهم يعملون من دون خوف امنين.

المادة الثانية والاربعون: ونصت على حق كل انسان في التنقل داخل المملكة او الى بلد اخر على ان لا يكون في حرب مع انكلترا.

المادة الخامسة والخمسون: حيث نصت على ان الغرامات التي اعطيت الى الملك وما يتعلـق بالارض وكل الغرامات التي انتزعت بشكل ظالم ستعا.

المادة الثالثة والستون: وقد جاءت لتؤكد على حق الكنيسة بالعمل بكل حريـة كمـا سـيتمتع الرجال في المملكة بكل الحقوق والحريات وفي كل الاماكن والى الابد.

---

[15] "لن تقرر اي مساعدة في مملكتنا، الا عن طريق المجلس العام لمملكتنا، باستثناء نفقتنا الشخية وتجهيز ولدنا البكر فارساً وترويج ابنتنا ابكر لاول مرة. وفي هذه الاحوال يجب الا تتعدى المساعدة الحد المعقول".
ينظر: Andre, Hauriou et jean Gicquel:"OP. Cite, P.173.

ثانياً: عريضة الحقوق (١٦٢٨) The Petition of Right

هذه العريضة هي الاخرى جاءت بعد صراع بين البرلمان والملك شارل الاول، اذ اضطر الاخير الى الموافقة، وتضمنت العريضة حقوق البرلمان وتذكر بحقوق المواطن[١٦] :

المادة الاولى: منع فرض اي ضريبة من دون موافقة البرلمان.

المادة الثالثة: ونصت على عدم جواز سجن شخص او الاستيلاء على ارضه او حرمانه منها او من حق الحياة الا باستحقاق وضمن القانون.

ثالثاً: الاشعار القضائي (١٦٧٩) (قانون الاحضار) Habeas Corpus

لقد جاء هذا القانون حلاً لمشكلة من يعتقل دون حق ومن دون اتباع الشكليات الاصولية في الاعتقال، فهي مذكرة يصدرها القاضي تلزم الجهة التي تعتقل الشخص ان يأتي به الى المحكمة ويبين مسؤول السجن عن الاسباب التي ادت الى اعتقال هذا الشخص وما لحرية الانسان من اهمية كبرى فان القاضي يترك القضايا التي امامه ويتولى هذه القضية. فاذا وجد القاضي ان هذا الشخص بريء مما نسب اليه يطلق سراحه فوراً واذا كان مذنباً يعود الى سجنه[١٧].

وقد كان الاشعار بمثابة اجراء لتفادي حجز حرية الانسان او لنقل حالات نسيان المعتقلين او التعمد بأبقائهم في السجن من دون محاكمة والتي قد تصل احياناً الى ان يقتل السجين داخل سجنه قبل اجراء المحاكمة.

رابعاً: لائحة الحقوق (١٦٨٩) Bill of Rights

لقد قيدت هذه اللائحة كثيراً من صلاحيات الملك فقد جاءت:

- منع الملك من انشاء محاكم خاصة يتولى فيها الحكم بنفسه.
- لا يجوز للملك التدخل في انتخابات البرلمان التي اصبحت حرة.

---

[16] http: en.wikipedia,org/wiki/Petition of Right

[17] الدكتور محمد سعيد مجذوب:" الحريات العامة وحقوق الانسان"،جروس برس، طرابلس، لبنان،١٩٨٦، ص٣٩-٤٠.

- لا يجوز انزال العقوبات القاسية والتي سميت بـ (الوحشية والشاذة) وقد عدت ممارسات الملك جيمس الثاني بانها غير مشروعة الى جانب عدم فرض كفالة مبالغ فيها، مع منع فرض ضرائب من دون محاكمة.
- شكلت بعض مواد اللائحة خطوة يمكن القول عنها انها انتقالية من الحكم المطلق (الملكية المطلقة) الى الحكم المقيد (الملكية الدستورية)، اذ نصت على (حذف حقوق الحكم الملكي)[١٨].

وتعد هذه الوثائق والاعلانات مع ما صدر من قواعد دستورية عرفية الاساس الذي قامت عليه دولة القانون في المملكة المتحدة اليوم[١٩].

المبحث الثاني

الارث الامريكي

بعد اكتشاف قارة امريكا الشمالية وهجرة الاوروبيين اليها، استقر قسم منهم على الارض الممتدة بين كندا شمالاً والمكسيك جنوباً والتي تعرف اليوم بالولايات المتحدة الامريكية، واقاموا عدداً من المستعمرات تخضع للتاج البريطاني مطلة على المحيطين الاطلسي والهادي وبطول (١٦٠٠كم). وكانت تتسم باقتصاد زراعي مع وجود بعض الصناعات في قسمها الشمالي، وقد اراد الانكليز ابقاء تلك المستعمرات على ما هي عليه، في حين لم تكن تلك رغبة السكان ونتيجة لارهاق كاهلهم بالضرائب التي تفرض عليهم وآخرها كان في عام ١٧٦٤ و١٧٦٥ وهي ضريبة السكر والتمغة بدأ التوتر بين السكان والقوات

[18] ينظر على شبكة الانترنت: http:en.wikipedia.org/wiki/Bill of Right.1689

[19] دولة القانون بمفهومها الواسع: هي تلك الدولة التي تقيم التوازن بين ضرورات السلطة وضمانات الحقوق والحريات، لان تغليب ضرورات الحقوق والحريات العامة يؤدي الى الفوضى. ومن الضمانات التي تكفل تحقيق ذلك الاعتراف بالحقوق والحريات الاساسية وهي (الحريات الفردية-الحرية، المساواة، الملكية). كذلك تلتزم بكل الحقوق والحريات للنظام القانوني وبالفصل بين السلطات واستقلال القضاء، وفي الامس كان يطلق على دولة القانون بالمشروعية اما اليوم فنجد بعض الكتاب ومنهم اريك اوليفيه في كتابه القانون الدستوري يطلق اسم "دولة القانون الدستوري".E'ric Oliva: "OP.cite', p.p32-40.
ينظر على شبكة الانترنت http//www.Islamconline.net,google2005
بحث منشور بقلم الدكتور بسام دلة

البرطانية ليتطور بعد ذلك الى نزاع مسلح عـام ١٧٧٥ واعـلان المـستعمرات الاسـتقلال الواحدة تلو الاخرى، واعلان الاستقلال للمستعمرات الثلاثة عشر عام ١٧٧٦.

واستمرت الحرب بين مليشيات المستعمرات والجيش النظامي البريطاني طيلة سـت سنوات لتنتهي بأنتصار سكان المستعمرات بماسعدة فرنسا وذلـك فـي تـشرين اول ١٧٨١ والتوقيع على المعاهدة التي نصت على استقلال المستعمرات عن بريطانيا عام ١٧٨٣.

وسنتناول اهم ما جاء في اعلان الاستقلال والتعديلات الدستورية، ولاسـيما العـشر الاول والتي يطلق عليها (وثيقة الحقوق) عام ١٧٩١ في فقرة ثانية.

اولاً: اعلان الاستقلال ١٧٧٦.

لقد كان تأثر واضعي الاعلان بفلاسفة القرن الثامن عشر كبيـراً، فالـسمة الفرديـة كانت واضحة فيه من خلال التأكيد على ان الناس متاسوون في حق الحياة والحرية، فقد نص الاعلان على "نحن نؤمن ان الحقائق التالية هي من البديهيات وهي ان جميع البشر قد خلقـوا متساويين، وان خالقهم قد حباهم بحقوق معينة لاتنتزع، ومن بينهـا حـق الحيـاة، الحريـة، والسعي في سبيل تحقيق السعادة"[٢٠]. والى جانب ما سبق لابد من ذكر ما يأتي:

- اكد الاعلان على ان هذه المستعمرات متحدة، ويجب ان تكون حرة.
- هدف الاعلان قبل كل شيء هو اخبار العالم بالاسباب التي دعت المستعمرات الـى اعلان الاستقلال وقد حددت بـ(عطل تطبيق العدالة.. وجعل بقاء القـضاة مرهـون بمشيئته وحده.. ابقى بين ظهرانينا جيوشاً مستديمة في وقت الـسلم، ودون موافقـة هيئاتنا التشريعية.. ولانه اوقف تجارتنا مع مختلف ارجاب العـالم.. فـرض علينـا الضرائب دون رضاتنا.. نهب بحارنا، وخرب شواطئنا أو احراق مدننا، وحطم حياة شعبنا.. وفي كل مرحلة من مراحل التظلم والاضطهاد قمنا وبكل تواضـع بتقـديم الالتماسات بغية تحقيق العدل والانصاف، غير ان التماساتنا المتكررة لم تكن تقابـل

---

[20] ينظر اعلان الاستقلال في:
Larry Elowitz"Introdution to governemet" , Harper Collins Publishers, 1992.
مترجم الى العربية تحت عنوان" نظام الحكم في الولايات المتحدة الامريكية" من قبل جابر سعيد عوض، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة، ١٩٩٦، ص٣٢١-٣٢٥.

الا بنفس الظلم والاضطهاد)[٢١]. ليأتي بعدها اتلاعلان ليؤكد على حق الشعب بتغيير الحكومة القائمة على الاستبداد والطغيان فنص على: "فمن حق الشعب، لا بل من واجبه، ان يسقط مثل هذه الحكومة وان يقيم مكانها حراساً جدد لأمنه في المستقل"[٢٢]. ثم ثم يأتي بعد ذلك ليؤكد على حق المستعمرات في اسلاتقلال فيقول: "من حق هذه المستعمرات المتحدة، بل من واجبها الن تكون حرة مستقلة، وانها قد تحللت من جميع صور الاذعان للتاج البريطاني، ومن كل الروابط السياسية بينها وبين برطيانيا العظمى"[٢٣]. ونرى ان ذلك كان اهم ما اراد قوله واضعوا الاعلان، بل ان احد اهم اسمه. فأنهم لم ينتفظوا على حكومة شرعية بل ظالمة مستبدة، وهناك هدف اساس آخر هو التعبير عن نظرية سياسية تبرر الانفصال عن بريطانيا من خلال الادعاء بأن حقوق الانسان قد انتهكت بشكل مهين وفاضح. ولابد من القول ايضاً ان الفكر السياسي الامريكي قد تطور عن الفكر السياسي البريطاني آنذاك. وبالتالي ان تبني الامريكان لهذا الفكر الجديد قد دفعهم الى الرتساؤل حول مشكلة الدستور الذي شكلت حقوق الانسان جانباً مهماً منه مع التعديلات التي اضيفت لاحقاً (وثيقة الحقوق)[٢٤].

ثانيا: ويقة الحقوق (التعديلات ادستورية العشرة المتعلقة بحقوق الانسان وحرياته ١٧٩١.

بعد نجاح الثورة والفوز بالاستقلال، كانت هناك ولادة للدستور الامريكية الذي احتوى على القوانين الاساسية للدولة وذلك عام ١٧٨٧[٢٥]، ثم جاءت التعديلات الدستورية العشرة التي اقترحت في ٢٥ ايلول ١٧٨٩ والتي تم اقرارها بعد حصول الموافقة عليها في ثلاثة ارباع الولايات والتي تعرف بوثيقة الحقوق في ١٥ كانون الاول ١٧٩١، ثم جاء التعديل الرابع عشر حول الحقوسق المدنية مع التعديل الخامس عشر الذي اكد على حقوق السياسية ليكمل النقص في ادستور الامريكي وسنتناول اهم ما جاء في هذه التعديلات:

---

[21] اعلان الاستقلال، المصدر السابق نفسه.

[22] اعلان الاستقلال، المصدر السابق نفسه.

[23] اعلان الاستقلال، المصدر السابق نفسه.

[24] **Yves Henri Nouailhat: "Histoire des doctrines politiques aux Etat-unis", que sais-Je, P.U.F, 1977. P.P.16-18.**

[25] يتألف دستور الولايات المتحدة الامريكية من سبعة مواد وسبعة وعشرين تعديلاً، والاخير تم اقراره عام ١٩٩٢. ينظر على شبكة الانترنيت موقع Google دستور الولايات المتحدة الامريكية ووثيقة الحقوق نشرة واشنطن: http://www.usinfo.state.gov,2005.

التعديل الاول:

لقد جاء هذا التعديل ليقوي العلمانية اي فصل الكنيسة عن الدولة، اذ لا يوجد دين رسمي للدولة، كما ان على الدولة ان لا تفصل دين على اخر او تنحاز لدين معين. لذلك نرى المحكمة العليا الفيدرالية تعد ان اي مساعدة للمدارس الدينية التي تدعمها الكنيسة عملاً مخالفاً للدستور. كما ان الدولة لا تستطيع

اكراه شخص على الالتزام بدين معين وبالوقت نفسه فان حرية الممارسة الدينية لا تعني اعطاء الاذن بارتكاب ممارسات دينية ضارة او ضد المجتمع، فالمحاكم لا تسمح بممارسة شعائر دينية يقدم فيها البشر انفسهم كأضحية[٢٦].

كما وجدنا ايضاً ان التعديل يمنع اصدار قانون يحرم الانسان من حرية الكلام او الصحافة، الا ان ذلك لا يمنع الدولة من وضع قيود في حالة الضرورة[٢٧]. ونجد ذلك واضحاً في نص التعديل: "لا يصدر الكونغرس الامريكي اي قانون خاص باقامة دين من الاديان او يمنع حرية ممارسته او يحد من حرية الكلام او الصحافة او من حق الناس في الاجتماع سلمياً، وفي مطالبة الحكومة بانصافهم من الاجحاف".

وحول حرية الكلام هناك العديد من القرارات التي اصدرتها المحكمة العليا الامريكية منها القضية:

New York, Time v. u. s. 403 u.s. 713 (1971)

وتتلخص بقيام صحيفة النيويورك تايمز والواشنطن بوست، بنشر اوراق البنتاغون حول مجريات الحرب في فيتنام، الامر الذي ازعج الحكومة التي قامت برفع دعوى الى المحكمة العليا طالبة اصدار امر قضائي بوقف النشر تحت حجة ان ذلك يشكل تهديداً للامن القومي، الا ان الصحيفتين دفعتا بحرية الصحافة استناداً الى التعديل الاول. وقد قضت المحكمة لصالح الصحيفتين بأغلبية ستة اصوات ضد ثلاثة، اذ عدت ان (القيد المسبق على الصحافة عبئاً دستورياً ثقيلاً). وقامت الصحيفتان بنشر بقية الاوراق، ولم يتهدد الامن القومي.

---

[26] **Larry Elowitz: "op.cite,p.238.**

[27] **المصدر السابق نفسه، ص٢٣٩. ينظر على شبكة الانترنيت**

http://en.wikipedia.org/wiki/newyork_timesv.u.s.2005

التعديل الثاني:

والذي جاء ليؤكد حق الانسان في اقتناء سلاح وحمله للدفاع عن نفسه مع وجود قوة مسلحة في كل ولاية لحفظ الامن فنصت على: "ان وجود مليشيا حسنة التنظيم ضروري لامن اية ولاية حرة، ولا يجوز التعرض لحق الناس في اقتناء اسلحة وحملها".

التعديل الثالث:

وجاء هذا التعديل لمنع اي تجاوز او اعتداء احد افراد الجيش على حقوق المواطنين فنصت على:" لا يجوز ي جندي في وقت السلم ان يقيم في اي منزل دون رضى المالك، كما لا يجوز له ذلك في وقت الحرب الا بالكيفية التي يحددها القانون".

التعديل الرابع:

لقد جاء التعديل لينظم عمل اجهزة الشرطة في عدم المساس بحقوق وحريات المواطنين من خلال وضع شروط معينة يتوجب الالتزام بها اثناء ممارستها لعملها في البحث عن ادلة، فقد منعت تفتيش المنزل او الشقة او اي مكان اخر الا بعد الحصول على اذن من احد القضاة، وبعد التأكد من صحة القضية. فجاء النص:" لا يجوز المساس بحق الناس في ان يكونوا امنين في اشخاصهم ومنازلهم ومستنداتهم ومقتنياتهم من اي تفتيش او احتجاز غير معقول، ولا يجوز اصدار مذكرة بهذا الخصوص الا في حالة وجود سبب معقول معزز باليمين او التوكيد، وتبين بالتحديد المكان المراد تفتيشه والاشخاص او الاشياء المراد احتجازها".

التعديل الخامس:

ويتعلق بحماية الانسان حيث لا يجوز اعتقال اي شخص الا تبعاً لصدور قرار اتهام. كذلك ضرورة اخبار من يقبض عليه بان يبقى صامتاً لان كل ما سوف يصرح به يمكن ان يستعمل ضده اثناء المحاكمة. فنص التعديل على:" لا يجوز اعتقال اي شخص لاستجوابه بشأن جناية او جريمة شائنة اخرى الا تبعاً لصدور قرار اتهامي او مضبطة اتهام عن هيئة محلفين كبرى باستثناء القضايا الحاصلة في القوات البرية او البحرية، او في المليشيا عندما تكون هذه القوات في الخدمة الفعلية في وقت الحرب او الخطر العام. دلا يجوز اتهام اي

شخص في دعوى جنائية على ان يكون شاهداً ضد نفسه، ولا ان يحرم من الحياة او الحرية او الممتلكات دوت اتباع الاجراءات القانونية الاصولية كما لا يجوز نزع اي ملكية خاصة لاستخدامها في سبيل المنفعة العامة بدون تعويض عادل".

التعديل السادس:

وجاء هذا التعديل ليؤكد على ضرورة حصول المتهم على محامي دفاع وعلى الاسراع في المحاكمة. فنص على:" في جميع المحاكمات الجنائية للمتهم الحق بان يحاكم محاكمة سريعة وعلنية بواسطة هيئة محلفين غير متحيزة تابعة للولاية او المقاطعة التي تكون الجريمة قد ارتكبت فيها، وتك٣ن المقاطعة قد سبق للقانون تحديدها. وله الحق ان يبلغ سبب الاتهام وطبيعته، وفي ان يواجه الشهود الذين يشهدون ضده، وفي ان تتوفر له التسهيلات القانونية الارغامية لاستدعاء شهود لمصلحته، وفي ان يستعين بمحام للدفاع عنه".

التعديل الثامن:

اما هذا التعديل فقد اكد انه لا يجوز فرض كفالة عالية مبالغ فيها، علماً بان الكفالة هي مبلغ من المال تحدده المحكمة كضمان لمثول احد الافراد امامها مستقبلاً، كما تسمح له باعداد الدفاع عن نفسه خارج السجن. الا ان مع اقرار التعديل بعدم المبالغة بالكفالة فان من حق القاضي رفض الكفالة اذا شعر ان المتهم قد يهرب او يمثل خطراً على المجتمع. وقد اعلنت المحكمة العليا دستورية سياسية (الحجز الاحتياطي)، كما منع التعديل توقيع العقوبات القاسية غير العادية. الا ان مع ذلك نجد ان المحكمة العليا قد اعتبرت حكم الاعدام لا يعد مخالفاً للدستور الا انها بالوقت نفسه طلبت من المحاكم ان تراعي العوامل المخففة كسن مرتكب الجريمة او سجله السابق لدى الشرطة[٢٨]. فنصت على:" لا يجوز طلب دفع كفالات باهضة ولا فرض غرامات باهضة، ولا انزال عقوبات قاسية وغير مألوفة".

جاء في قرار للمحكمة العليا الامريكية حول حق الدفاع والاستعانة بمحام وحق المتهم في محاكمة عادلة ما يأتي في قضية:

Gideon V. Wain Wright 372. u.s. 335 (1963).

---

[28] المصدر السابق نفسه، ص٢٤٦-٢٤٧. ينظر على شبكة الانترنيت

http://supct.lawcornell-2005.
http://en.wikipedia.org/wiki/RoperV.Simmons.2005.

وتتلخص بقيام شخص يدعى (غدين) باقتحام قاعة لعب بليارد في ولاية فلوريدا عنوة، فألقي القبض عليه، وقدم الى المحاكمة. وطلب (غدين) من المحكمة تعيين محام للدفاع عنه، الا ان طلبه هذا رفض من القاضي مبرراً ان تعيين محام يكون في الجرائم التي تصل عقوبتها الى الاعدام، وأدين بموجب قانون ولاية فلوريدا. واثناء وجوده في السجن قضى (غوين) ساعات عديدة يدرس كتب القانون في مكتبة السجن، بعدها قدم عريضة الى المحكمة العليا يطلب فيها مراجعة قضيته، وفعلاً قامت المحكمة بذلك، وقررت أن (غدين) قد حرم من حق المحاكمة العادلة، واصدرت حكماً يلزم كل ولاية ان تؤمن المحامين للمتهمين بارتكاب جرائم وللعاجزين عن دفع نفقات محام من جيوبهم. وعندما اعيدت محاكمة (غدين) بمساعدة محام تمت تبرئته.

وحول الزام المحكمة بفحص سجل المتهم الذي يحكم بالاعدام من حيث السن جاء في قضية:Roper v. Simmons 534. u.s.2005

وتتلخص بحكم صدر باعدام شخص يدعى كرستوفر سيمونز لارتكابه جريمة قتل عندما كان في سن السابعة عشر (استمرت المحاكمة من عام ١٩٩٣ ولغاية ٢٠٠٢) حيث ايدت المحكمة العليا لولاية ميسوري حكم الاعدام باغلبية ستة اصوات ضد ثلاثة. قدم كرستوفر سيمونز استئنافاً للمحكمة العليا الامريكية التي قررت ان اعدام القاصرين يمثل انتهاكاً للتعديل الثامن للدستور، واستندت الى الاجماع الدولي ضد عقوبة الموت للقاصرين وصدر القرار باغلبية خمسة اصوات ضد اربعة.

التعديل الرابع عشر:

وقد جاء هذا التعديل الخاص بالحقوق المدنية ليؤكد مبدأ المساواة بعد ان ساد التمييز بين السود والبيض. فمع اندلاع الحرب الاهلية جاء تحرير٣العبيد على يد ابراهام لنكولن وفي عام ١٨٦٥ الغي الرق تماماً بموجب التعديل الثالث عشر ليأتي التعديل الرابع عشر في ١٨٦٨ الذي منع اي ولاية في ان تنكر على اي شخص في اطار اختصاصها الحماية القانونية المتساوية[٢٩]، فنص على:" جميع الاشخاص المولودين في الولايات المتحدة او

[29] الدكتور احسان المفرجي والدكتور كطران زغير نعمة والدكتور رعد الجدة: المصدر السابق، ص١٨٦.

المتجنسين بجنسيتها والخاضعين لسلطانها يعتبرون من مواطني الولايات المتحدة ومواطني الولاية التي يقيمون فيها. ولا يجوز لاي ولاية ان تضع او تطبق اي قانون ينتقص من امتيازات او حصانات مواطني الولايات المتحدة. كما لا يجوز لاي ولاية ان تحرم اي شخص من الحياة او الحرية او الممتلكات دون مراعاة الاجراءات القانونية الاصولية. ولا يجوز ان تحرم اي شخص خاضع لسلطانها من المساواة في حماية القوانين".

وقد ذهبت المحكمة العليا الى ابعد من تحقيق المساواة من خلال قرار اثار جدلاً كبيراً صدر في ٢٣/حزيران/٢٠٠٣. فقد رفع ثلاثة طلاب امريكان من اصل ابيض دعوى، كانت قد رفضت كلية القانون/ جامعة ميشكان قبولهم في حين قبلت طلبات اقلية اثنية (امريكان من اصل افريقي) بعد ان منحتهم عدداً اضافياً من النقاط لترجيح كفة قبولهم.

وقد اقرت المحكمة لكلية القانون في جامعة ميشكان في ان تأخذ الاصل العنصري في حسبانها حين تقر مح اماكن فيها للطلبة. وقد جاء قرار المحكمة العليا هذا بأغلبية خمس اصوات مقابل اربعة لصالح سياسة الجماعة التي تعطي افضلية للمرشحين من اقليات اثنية اطلق عليه (التمييز الايجابي)، ولكن المحكمة وبأغلبية ستة مقابل ثلاثة قضت بأن السياسة التي تمنح نقاط اضافية اثناء عملية تحديد المقبولين غير دستورية.

وقد عقبت قاضية المحكمة العليا ساندرا داي اوكنور (ان الدستور الامريكي لا يمنع كليات القانون من استخدام الاصل العنصري في حدود ضيقة في قرارات قبول الطلاب لتعميق المصلحة الحتمية في ايصال المنافع التعليمية الى كتلة متنوعة من الطلاب)[30].

التعديل الخامس عشر:

وهو الخاص بالحقوق السياسية الذي اكد انه لا يجوز حرمان اي مواطن من حق التصويت في اي ولاية فنص على: "لا يجوز للولايات المتحدة ولا لأي ولاية منها حرمان مواطني الولايات المتحدة من حقهم في الانتخاب، او الانتقاص لهم من هذا الحق بسبب العرق او اللون او حالة رق سابقة".

---

[30] حكم قضائي امريكي ضد قضية ساندها الرئيس بوش. ينظر على شبكة الانترنيت موقع Google: http://news.bbc.co.uk/hi/arbic.

بعد عرض الاعلانات والوثائق الخاصة بحقوق الانسان وحرياته على المستوى الوطني في كل من بريطانيا والولايات المتحدة لابد لنا من التعرف على القيمة القانونية لها ومدى الزاميتها. لاسيما اذا عرفنا ان بعضهم يرى فيها عبارة عن مبادئ فلسفية واخلاقية تخلو من اي قيمة قانونية، فحسب لاوجهة النظر هذه ان الاعلانات قد صدرت اثناء حقب ثورية، وان ما يصدر خلال هذه الحقب يتسم بالغموض.

الا ان هناك رايا مخالفاً يرى ان اعلانات الحقوق تحمل ذات القيمة التي تحملها النصوص الدستورية، لاسيما تلك التي تتوج الدساتير وبالتالي تعلو في قيمتها على النصوص القانونية العادية. والرأي الثاني هو الاصوب فالارث البريطاني من ميثاق العهد الاعظم وعريضة الحقوق والاشعار القضائي ولائحة الحقوق هي الجزء المدون (المكتوب) من الدستور البريطاني الذي يعرف بكونه دستوراً عرفياً كما عرفنا، اذ يحمل بجلنب الوثائق المكتوبة التي سبق ذكرها قواعد دستورية عرفية، وان النظام البرلماني نفسه قد نشأ عن عرف دستوري استغرق مائة وخمسون عاماً ليصبح قاعدة دستورية.

اما الارث الامريكي (اعلان الاستقلال) والتعديلات الدستورية العشر (وثيقة الحقوق) لسنة ١٧٩١ فقد حملت معها الحماية القضائية من خلال الرقابة على دستورية القوانين. فالمحكمة العليا الفيدرالية عندما تعلن ان اقنوناً مخالفاً للدستور فهذا يعني عدم العمل به. فما جاء بالاعلان هو جزء من الدستور ولا يجوز اصدار ما يخالف الدستور الذي هو القانون الاعلى في البلاد.

وفي الاتجاه نفسه يهذبل العميد موريس هوريو الذي يقول ان لكل دولة دستورين بالضرورة، الاول سياسي، والاخر اجتماعي وكلاهما يتمتع بالمستوى نفسه من الاهمية. الاول ذلك الذي ينظم عمل الاجهزة والسلطات في الدولة، والثاني هو الذي يضع قواعد النظام الاجتماعي الذي تسير عليه الجماهير في الدولة، والذي ينظم بصورة خاصة صيغة العلاقات بين المواطنين والدولة، اي حقوق المواطن الفردية[٣١].

---

[31] Andre' Hauriou et jean Gicquel: "Op.cite, p.p.206et207.

وفي الحقوق لسياسية جاء في قضية:(2000) Bush V.Gore U.s.98
والتي تتعلق بما اثير حول الانتخابات الرئاسية الامريكية لعام ٢٠٠٠ ما يأتي:=

الخاتمة

لقد تبين مما سبق ان جهود الانسان في رحلته للوصول الى حياة كريمة يتمتع فيها بحقوقه وحرياته كافة التي وهبها له الله سبحانه وتعالى كانت شاقة. وقد حاولت الدساتير الحديثة من خلال النص عليها الاستناد الى تلك الجذور او الاسس التي تم تناولها، ثم الانطلاق الى ما استجد مع تطور الحياة من حقوق. واذا كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد شهدت التاكيد على الحقوق والحريات الفردية من خلال منع الدولة من التدخل والمساس بها الامر الذي اتاح للفرد التمتع بها، فان موقف الدولة السلبي هذا لم يعد بالاماكن قبوله، فقد تعالت الاصوات بجيل ثان للحقوق والحريات، الا وهو الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي تتطلب تدخل من الدولة لتهيئة المستلزمات التي تمكن

=بعد فرز الاصوات حصل نزاع بين جورج بوش وآل غور، وتكمن المشكلة في الغاء ولاية فلوريدا خمسين الف بطاقة انتخاب لكونها غير واضحة وكان التصويت ميكانيكياً، ولكون نتيجة الانتخابات الرئاسية تتوقف على نتيجة انتخابات ولاية فلوريدا (الناخبون الرئاسيون) فقد رفعت دعوى امام محكمة فلوريدا، التي قضت بعد البطاقات يدوياً. الا ان الحزب الجمهوري رفض تلك ورفع دعوى امام المحكمة العليا الامريكية التي اكدت على عدم امكانية عد الاصوات. لذلك فاز الحزبالجمهوري برئاسة الولايات المتحدة. ينظر على شبكة الانترنيت:

http://en.wikipedia.org/wiki/BushV.Gore.2005

ومن القضايا المهمة التي تتعلق بحقوق الانسان والتي اثارت احتجاجات من اطراف عديدة قضية:

Raul V. Bush. 543. u.s. 2004.

وتتعلق بمعتقلي كوانتنامو. فبعد احتلال الولايات المتحدة لافغانستان عام ٢٠٠١ نقل اكثر من ٥٠٠ شخص من تنظيم القاعدة وطالبان الى القاعدة الامريكية في خليج (Guantanamo) لانهم عدوا مقاتلين اعداء للولايات المتحدة، لا تنطبق عليهم صفة المقاتلين من الجيش النظامي، وبالتالي لا تنطبق عليهم القوانين الدولية الخاصة بأسرى الحرب، ومنعوا من الاتصال بعوائلهم فرفع رسول وعدد من رفاقه دعوى امام محكمة محلية في واشنطن الا ان امحكمة رفضت النظر في الدعوى، كون خليج كوانتناموا ليس تحت السيادة الامريكية شكل نهائي. وجوهر القضية يتحدد بسؤال هو: هل يحق لسجين اجنبي المولد، اعتقل خارج الولايات المتحدة ان يحاكم امام المحاكم الامريكية؟

وبارغم من كون اللطة العسكرية الامريكية ادعت بان كوبا تتمتع وبمقتضى شروط العقد المبرم مع الولايات المتحدة بسايدة تامة، فهذا يعني ان المعتقلين هم خارج سلطة المحاكم الامريكية. الا ان محامي الدفاع رد على ذلك بالقول (انه لدفع زايف تماماً، ان نقول انه بسبب هذا الشرط في عقدكم يكون من حق القسم التنفيذي خلق منطقة يغيب عنها القانون، ولا تكون مسؤولة قضائياً في اي مكان في العالم). كما دفع محامي الدفاع ايضاً بان الدستور الامريكي لا يسمح بأقمة سجون خارج سلطة القضاء ليحتجز فيها اجانب.

وكان جواب المحكمة بنعم، حيث قررت ان من حق المحتجزين التقاضي امام المحاكم الامريكية للنظر في اوضاعهم وتحدي اعتقالهم بأغلبية ستة اصوات ضد ثلاثة. واخيراً اطرت السلطة العسكرية الامريكية الى النظر في اسباب الاعتقال والافرجت عن نصفهم تقريباً لحد الان (تم تسليمهم الى حكومات بلدانهم!؟).

ينظر على شبكة الانترنيت:

http://en.wikipedia.org/wiki/Rasulv.Bush.2005.

كما اصدرت المفوضية الخاصة بحقوق الانسان التابعة للامم امتحدة تقريراً في شباط لهذا العام (٢٠٠٦) حول معتقل كوانتناموا اكدت كوت المعتقل غير شرعي كما مورست بعض الاساليب التي تشكل تعذيباً للمعتقلين، وقد اكد التقرير ايضاً ان الولايات المتحدة لم تثبت بأن المعتقلين هم مقاتلون اعداء للولايات المتحدة. نشر التقرير في صيحفة لوس انجلس تايم الامريكية في ١٣ شباط ٢٠٠٦.

الفرد من التمتع بها. لذا شهدنا ولادة مصطلح الحقوق والحريات الايجابية عكس الحريات الفردية التي تسمى بالسلبية وقد كان للجذور الدستورية من اعلانات ووثائق وراء ولادة اجيال اخرى لحقوق الانسان. وما تزال الرحلة لم تصل الى نهايتها في تحقيق الحياة الكرمية المنشودة للانسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى وجعل منه خليفة على الارض.

الجيو بولتيك ونظرية صدام الحضارات لهنتغتون

الدكتور
محمد احمد حسن(*)

المقدمة

بعد نهاية الحرب الباردة كانت هناك العديد من المحاولات النظرية والسياسية لرسم خريطة جديدة للاوضاع الدولية. ومن هذه المحاولات مقولة "فرانسيس فوكوياما" نهاية التاريخ عام ١٩٨٩، ومقولة "النظام العالمي الجديد" التي ظهرت في الايام الاخيرة من حكم الرئيس الامريكي "جورج بوش".

كما جاءت مثالة "ليرنارد لويس" عام ١٩٩٠ بعنوان "جذور السخط الاسلامي" تحمل مصطلح "صدام الحضارات" الذي استمده هعنتغتون من هذه المقالة والذي بنى كل نظريته اليه. فهنتغتون لم يكن مبدعاً كما ان فكرته تفتقر الى أي ابداع.

اذن لماذا هذا الاهتمام الكبير بهذه الفكرة؟ القضية هنا ليست القيمة الفكرية لما يقول به هنتغتون، وانما هي في أهمية ما يقوله في إطار مشروع المؤسسة الحاكمة لادارة العالم في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

لقد استند هنتغتون الى "الثقافات" كأساس في تقسيم العالم الى أنماط حضارية، والتي ستقود الى حتمية تصادم الحضارات وفق تصوراته، واختار هنتغتون موضوع "الدين" كاساس للمجموع الحضاري السبع في العالم، في حين لم يكن الفضاء الديني هو الذي يحدد نوع الثقافة، وانما هناك فضاء الدولة الوطنية، وفضاء الاقاليم المتجانسة اقتصادياً وفضاء الانظمة السياسية ايضاً.

لذا فان النزعة الثقافوية "لهنتغتون" تقوم على مجموعة من الاكاذيب، انها في الحقيقة اداة لإدارة الأزمة الرأسمالية على الرغم من تظاهرها بانها الحل.

(*) كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

ان أفكار "هنتنغتون" جل همها أضفاء المشروعية على الوسائل الرأسمالية عبر تصعيد الصراعات حول فكرة محورية تقول بعدم توافق الثقافات، وهذه الفكرة انما هي استراتيجية لتمكين استراتيجية الغرب من فرض ساحة الصراع التي تسمح له بتحقيق النصر.

ينطلق هذا البحث من فرضية: هل تنوع الحضارات والثقافات في المجتمعات البشرية يقود الى حتمية الصدام؟

وفي ضوء الاجابة على هذه الفرضية ستحدد اهداف هذا البحث في الكشف عن محتوى هذه الافكار التي تصر على ان تنوع حضارات العالم وثقافته ستقود الى تصادمه وصراعه. كما يهدف هذا البحث ايضاً الى بيان شخصية اقليم الحضارة الاسلامية وتشخيص ابرز السمات التي تتميز بها. ثم يطرح البحث اهمية حوار الحضارات كهدف مركزي يحقق للعالم الامن والاستقرار من خلال التفاعل والاعتراف بالآخر.

لقد تم معالجة جميع هذه الافكار من خلال التحليل العلمي بها، ورؤية جغرافية تستند الى علم "الجيوبولتيك" للكشف عن عناصر الضعف والقوة لمختلف مكونات الحضارة الاسلامية، وكذلك الكشف عن التحديات الجيوبولتيكة الغربية التي تواجه هذا الاقليم. ان حيوية هذا الموضوع واهميته كانت واحداً من العوامل التي دفعت الباحث الى تناول هذا الموضوع. ارجو ان اكون قد وفقت في طرح افكاره ومعالجتها وتنظيمها وصولاً الى تحقيق اهدافه المرجوة، ومن الله التوفيق.

الباحث

المبحث الاول

مفهوم الجيوبولتيك والحضارة والثقافة

اولاً: مفهوم الجيوبولتيك:

يعني هذا العلم دراسة الوحدة السياسية-الدولة في بيئتها الجغرافية. غير ان الالمام بعلم الجغرافية أو بعلم السياسية، كل على حدة، لا يكفي لفهم الجيوبولتيك، ذلك لان معرفة كل من الارض والدولة معاً من مستلزماتها[1].

---

[1] رسل . هـ . فيفليد ، ج. إتزل بيرس : الجيوبولتيكا ، ترجمة يوسف مجلي ولويس اسكندر ، دار الكرنك للنشر ، ج١ ، القاهرة ، ص١١ .

فالجيوبولتيك اذن: علم سياسي يستمد جذوره من علم الجغرافية وحقائقه المتشعبة، ويعمل على الافادة منها لخدمة خططاً سياسية معينة يتبناها صانعو السياسية وصناع القرارات في الدولة[٢].

وللجيوبولتيك في الوقت الحاضر مفهوماً عاماً: فهناك النظرة الضيقة القائمة على الفكرة الالمانية الخاصة بالمجال الارضي باعتباره المجال الحيوي للدولة على انها كائن حي، حيث أكد ذلك اللواء "هاوسهوفر" من ان الجيوبولتيك تبين مدى توقف كل تقدم سياسي على ذلك العامل الثابت الذي لا يتغير-عامل التربة[٣].

أما المفهوم الأوسع للجيوبولتيك فيقوم على الدراسة الجغرافية للدولة من حيث سياستها الخارجية، وهنا يكون التأكيد كله على المظهر الجغرافي للعلاقات الخارجية[٤]. فالجغرافية السياسية هي الأصل الذي تفرعت عنه الجيوبوليتك، وكما يقول هاوسهوفر: إن الجيوبولتيك وليد الجغرافية السياسية لأنها المحرك لما يتناوله هذا العلم الأخير من حقائق فتجعل منها مادة يستعين بها الزعيم السياسي[٥].

ان هذا المفهوم يعتنق فلسفة القوة ويدرس السياسة العالمية من وجهة نظر قومية، ترسم حالة الدولة في المستقبل، وتجعل من الجغرافية في خدمة الدولة.

واذا كانت القوة تعني: التأثير والسيطرة والامكانية والقابلية[٦]، فلاغرو ان يقول الجنارل الفرنسي "غالو" ان الجيوبولتيك هي: دراسة العلاقات بين نهج سياسة القوة المأخذوة بها على المستوى الدولي والاطار الجغرافي الذي تمارس فيه. ويلتقي هذا التعريف مع تعريف كولن غراي الذي يقول: "يقصد بالجيوبولتيك العلاقة التي تقوم بين القوة والسياسة الدولية والاطار الجغرافي"[٧].

---

[2] فتحي ابو عيانة : دراسات في الجغرافية السياسية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص٤٣ .

[3] رسل . هـ . فيفليد ، ج. إتزل بيرس ، المصدر السابق ، ص١١ .

[4] المصدر نفسه، ص١٢.

[5] المصدر نفسه، ص١٤.

[6] محمد عبد الغني سعودي : الجغرافية والمشكلات الدولية ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص١٦ .

[7] محمود حيدر : السيادة في تحولات العولمة ، "الدولة المغلولة"، مجلة شؤون الأوسط ، العدد (١٠٠) مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص٥٩ .

ووفقاً للقوانين الجيوبولتيكية السبعة التي اوردها الالماني فردريك راتــزل (١٨٨٤-١٩٠٤) التي تحكم حركة الدولة في مجالها الحيوي والتي وردت في مقال عنوانــه "قــوانين النمو الارضي للدولة" حيث يرى راتزل ان الدولة كائناً حياً تدفعه الضرورة للنمو عن طريق الحصول على الاعضاء التي تعوزه حتى ولو دفعه هذا الى استخدام القوة. وعلى هذا فمبــدأ "المجال الحيوي" الذي نادى به "هاوسهوفر" والذي طبقه ادولف هتلر متصل اتــصالاً وثيقــاً بفكرة ان "الدولة كائن حي"[٨].

ان الجيوبولتيك بنزعتها المتطرفة التي طبقت السياسة النازية نجدها اليوم تتمثل فــي النزعة الامبريالية الامريكية في السيطرة والهيمنة على العالم والاحتلال المباشر للعديد مــن دول العالم كما هو الحال في العراق وافغانستان. كما نجد هذه النزعة ايضاً فــيس الحركــة الصهيونية باعتبار ان ارض الميعاد "الجيوبوليتيكية" تمتد من النيل الى الفرات.

وفي هذا المجال ينبغي ملاحظة ان الجيوبولتيكا ليست الفرع الوحيــد فــي مجــال الجغرافية السياسية الذي يتناول قضايا السياسة العالمية. فهناك ايــضاً الجغرافيــة الــسياسية للامبريالية. وهنا لابد من التمييز بين الجيوبوليتكا والامبريالية، فعلى الــرغم مــن انهمــا لا يناقشان عادة في السياق ذاته، فان كليهما يرتبط بالنشاط السياسي عى مستوى العلاقات بــين الدول ويميز الاستخدام الحديث الجيوبولتيكا بوصفها مبحثاً يعني بالتنافس بين القوى العظمــى "دول المركز ودول اشباه الاطراف الصاعدة". اما الامبريالية فهي هيمنة دول المركز القويــة على الدول الضعيفة في الاطراف. بمعنى ان الجيوبولتيكا تصف علاقة تنافس على الــصعيد السياسي، في حين تصف "الامبريالية" علاقة هيمنة. وعلى الــصعيد المكــاني والجغرافــي وصفت علاقات التنافس بين القوى العظمى "او كانت كذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتي "بانها علاقات بين "الشرق والغرب" اما علاقات الهيمنة فهي العلاقات بين "الشمال والجنوب"[٩].

---

[8] رسل . هـ . فيفليد ، ج. إتزل بيرس ، المصدر السابق ، ص٢٧ .

[9] بيتر تيلر وكولن فلنت : الجغرافية لعالمنا المعاصر ، ترجمة عبد السلام رضوان واسحق عبيد ، عالم المعرفة ، المجلد الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الكويت ، ٢٠٠٢ ، ص٩٦ .

ان غرض أي صراع هو السيطرة على الاقليم، اما البعد الجوهري للصراع بين الدول فهو بعد جغرافي، فيمنا تعد الجيوبولتيك دراسة جغرافية العلاقات بين المتنفذين في السلطة كونهم حكام الدول او قوى تتخطى الحدود القومية"[10].

وللحد من النزاعات العدوانية بين الدول فان ما يمكن ان يقدمه الجغرافي كخدمة رئيسية في الشؤون الخارجية فهو تاكيد الدفاع الذي تقدمه الجغرافية ضد طموحات المتنازعين وغرس ما يمكن من الواقعية والموضوعية في التعامل بين الدول[11].

ثانياً: مفهوم الحضارة والثقافة

تناول مفهوم الحضارة العديد من المفكرين فهي عند "اشبنجلر" تضم الجوانب المادية التي تمثل المدنية في حين شكل المعتقدات والقيم والاداب مفهوم الثقافة[12].

اما المؤرخ الانكليزي "ارنولد توينبي" فيميز ثلاثين حضارة، أحدى وعشرون منها اتمت نموها وتوجد بين الاحدى والعشرين المكتملة النمو سبعة حضارات مازالت قائمة، بوصفها مجتمعات حية هي: الاسلامية والهندية والشرق الاقصى، والكونفوشية والبيزنطية والمسيحية، والارثودوكسية، جنوب شرق اوروبا والحضارة الغربية[13].

وفي الاطار الانثروبولوجي يأتي مفهوم الحضارة عند "تايلر" بأنه "الكل المركب الذي يحتوي المعرفة والمعتقد والفن والاخلاقيات والقانون والعادات وكل القدرات والاعتبارات الاخرى يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع"[14].

فالحضارة تعني وفق هذه المفاهيم مجموعة الظواهر المعبرة عن انشطة البشر في مجتمع او عدة مجتمعات، أي انها العطاء لانجاز المجتمع المعنوي والمادي. اما الثقافة فتعد من المفاهيم التي تترادف وتتداخل مع الحضارة، الا ان الثقافة وعناصر متعددة، ومدلولات واتجاهات متنوعة، لذلك يصعب ان تختزل وان تتدرج ضمن اطار تعريف مبسط ونهائي.

---

10 باتريك سوليفان : الجيوبولتيكا ، ترجمة صباح محمود احمد ، عمان/الاردن ، ٢٠٠١ ، ص٢ .
11 المصدر نفسه، ص٥.
12 ج. دي بويس : مستقبل الحضارة ، ترجمة لمعي المطيعي ، دار الكرنك ، ١٩٥٣ ، ص٣٧ .
13 منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي ، جدار العلم ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص٢٢ .
14 قباري محمد اسماعيل : علم الاجتماع الثقافي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص١٩٧ .

الا ان ما يمكن قوله في هذا المجال ان للثقافة معنيان: الثقافة بالمعنى الخاص هي: تنمية الملكات الفعلية او تسوية بعض الوظائف البدنية ومنها تثقيف العقل وتثقيف البدن ومنها الثقافة والرياضية والثقافة الادبية او الفلسفية). والثقافية بالمعنى العام وهي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق وحسن انتقادي وحكم صحيح او هي التربية التي ادت الى اكسابه هذه الصفات[١٥].

كما ادرك بعض المفكرين الاختلاف بين الثقافة والحضارة فوضعوا حدوداً لها، فالثقافة عند "رالف لنتون" تنطلق من ان مكونات الثقافة والحضارة واحدة، لكن صفة الاولى الاستقرار في حين تأخذ الثانية صفة الانتشار[١٦].

اما "ول ديورانت" فيضع حدوداً ما بين الثقافة والحضارة، فالاخيرة تشمل الجوانب المادية في حين تضم الثقافة القيم المعنوية والروحية[١٧].

هذه المفاهيم تؤكد حقيقة مفادها ان الصفة التي تميز الحضارة هي قابليتها للانتقال والانتشار بين الامم، في حين تختص الثقافة بكل امة.

ان الواقع يؤكد بانه ليس هناك ثقافة عالمية واحدة، وانما توجد ثقافات متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية او بتدخل ارادي من اهلها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة[١٨].

فالثقافات القومية اذن تكل عناصر التنوع والتعدد في حين ان الحضارة هي عملية اندماج التنوع والتعدد وانصارها. ولكن هذا لا يعني ان الثقافات القومية متشابهة وتتماثل، فالثقافة القومية التي هي: السلوك المادي والعقلي والروحي الذي يبتكره شعب من الشعوب في مسيرته، شتظل التعبير عن خصوصية الشعب وعبقريته، وهي تكون كذلك بمقدار

---

15 جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط١، ١٩٧١ ، ص٣٧٨ .

16 رالف لنتون : دراسة الإنسان ، ترجمة عبد الملك الناشف ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص٨٧ .

17 ول ديورانت : قضية الحضارة ، ج١ ، ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص٥ .

18 محمد عابد الجابري : "عشر اطروحات" ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ٢٢٨ ، ١٩٩٨ ، ص١٤ .

مشاركتها ومساهمتها في المسيرة الحضارية الواحدة، اما اصالة الثقافة القومية فلا تكون بتحاورها مع ماضيها بقدر ما تكون بتفتحها على الثقافات الاخرى وتعاملها معها[19].

ومن الجدير بالذكر التأكيد على ان مفهوم "الهوية الثقافية القومية" لا يعني الغاء واقصاء الهويات الوطنية والقطرية، ولا الهويات الجمعوية الاثنية والطائفية، فالتعدد الثقافي في الوطن العربي مثلاً واقعة اساسية لا يجوز القفز عليها بل لابد من توظيفها بوعي في اغناء واخصاب الثقافة العربية وتوسيع مجالها الحيوي.

ان جميع الثقافات القومية لامم لها تاريخ حضاري يحكمها اتجاهان في تميز ثقافتها:

الاول: الاصالة حيث تشكل واحداً من مكونات الحضارة القومية للامم وتعني بها: محاورة الماضي من اجل الحاضر والمستقبل[20].

الثاني: الحداثة والتي تقوم على المشاركة والمساهمة في هذا التحول الكبير الذي تشهده الانسانية اليوم[21].

واذا كانت الثقافة في الغرب تعرف بانها "فلسفة الانسان" وفي البلاد الاشتراكية تعرف بانها "فلسفة المجتمع" فان الثقافة العربية انما هي "فلسفة النهضة العربية". ومن هنا يبدأ التحدي.

المبحث الثاني

التحليل الجيوبولتيكي لنظرية هنتنغتون

ابتداء هنتنغتون في تحديد مفهومه لصدام الحضارات من مقاله "صدام الحضارات" الذي نشره عام ١٩٩٣ في مجلة الشؤون الخارجية "foreign affairs" والذي جاء فيه: سوف يتمحور الانقسام الأساس داخل المجموعة البشرية حول العوامل الثقافية التي ستصبح

---

[19] معن زيادة : معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص٤٧ .

[20] معن زيادة : المصدر السابق ، ص٥٩ .

[21] المصدر نفسه، ص٦٧.

المصدر الرئيسي للصدام، فصدام الحضارات هو الذي سيمثل مركز الصدارة من السياسة العالمية[22].

إن الشيء الغريب في نظرية هنتنغتون انها تصر بقوة والحاح على ان الحضارات غير الغربية لابد وان تصطدم بالغرب ، والحاحه هذا يكتسب طبيعة عدائية وشوفينية عندما يتطرق الى ما ينبغي على الغرب عمله لكي يضلل عدائية وشوفينية عندما يتطرق الى ما ينبغي على الغرب عمله لكي يظل في الصدارة الى الحد الذي يجبرنا على استنتاج ان جل ما يعنيه هو استمرار بل وتوسع نطاق الحرب الباردة بوسائل جديدة . فصراع الحضارات هذا الذي يبشر به "هنتنغتون" ليس فقط صراعاً مستمراً بل ان هذا الصراع يشكل المرحلة الاخيرة من مراحل تطور الصراع في العالم الحديث[23].

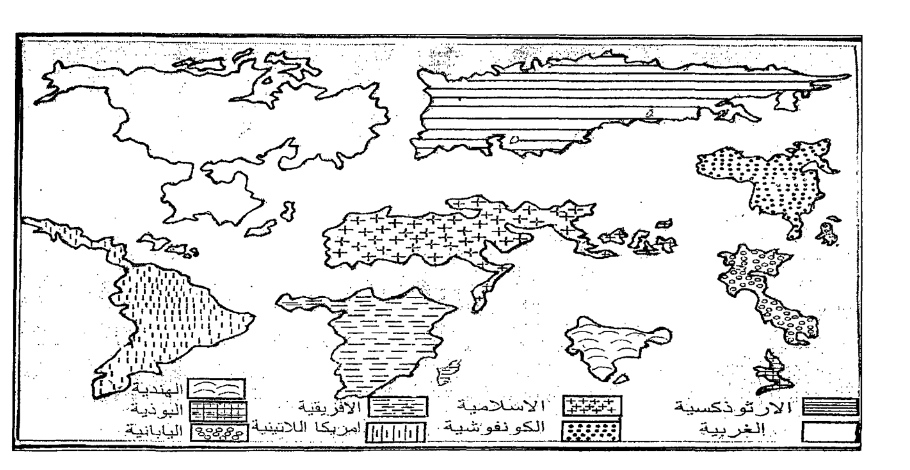
يهدف "هنتنغتون" من هذا الطرح الى بقاء المواطن الأمريكي محافظاً على حالة الحرب حية في ذهنه، بل أنه أكثر من هذا ينطلق من نقطة محددة هي ذهنية صناع القرار داخل البنتاغون والمؤسسة العسكرية الذين فقدوا موقتاً مبررات بقائهم بعد نهاية الحرب الباردة، والذين يعنيهم الآن خلق مبررات جديدة لهذا الوجود.

تتألف القوى التي تتصارع في إطار فرضية "هنتنغتون" من ثمان حضارات هي: الإسلامية والكنفوشية والغربية والهندوسية، واليابانية والارثوذكسية والافريقية والأمريكية اللاتينية. انظر خارطة (١).

[22] ادوارد سعيد : "صدام المفاهيم" ، مجلة الكرمل ، العدد ٥٣ ، عمان ، الاردن ١٩٩٧ ، ص٤٨ .
[23] المصدر نفسه، ص٤٩.

خارطة (١)

الاقاليم الحضارية بحسب رؤية هنتنغتون



المصدر : ابراهيم قاسم درويش : صدام الحضارات لهنتنغتون ، دراسة جيوبوليتكية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعو بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص٣٩ .

يعد "هنتنغتون" الدين العنصر الرئيس لتحديد المفهوم الثقافي ضمن الدائرة الأوسع للحضارة، فالدين عنده هو الاكثر أهمية في تعريف الحضارة، غير أنه ليس العنصر الاوحد فاللغة و التقاليد والتجارب التاريخية يمكنها أن تحدد ملامح الحضارة، ولكن حينما ننظر للتاريخ سنجد ان الدين أكثر أهمية[٢٤].

كما يحاول "هنتنغتون" رسم ملامح علائقية متبادلة بين الحضارة الغربية والاقاليم الحضارية الأخرى عدا اقليم الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشية، من خلال اعتماده معايير القبول والرفض للتحديث والتمدن الغربي على نحو صنف فيه العلاقة بين الغرب والحضارات الأخرى الى ثلاثة انماط رئيسية هي[٢٥]:

١. دول قبلت التحديث والتغريب مثل اليبان.
٢. دول تسعى للتحديث وليس لديها رفض التغريب مثل روسيا ودول يوغسلافيا (السابقة) ودول أمريكا اللاتينية ودول شرق أوربا.
٣. دول تريد التحديث ، لكنها ترفض التعامل على الطريقة الغربي ، وتمثلها البلدان الإسلامية والكونفوشية. انظر خارطة (٢).

ومن بين كل الحضارات يحاول "هنتنغتون" أن يفترض التعاون سيكون بين الحضارة الإسلامية والكونفوشية، على اساس وجود "عدو واحد" ومصلحة مشتركة تتمثل بالدفاع عن مصالحها ضد الحضارة الغربية فهو يقول: ان المجتمعات الإسلامية والصينية ترى عدوا لها وبهذا لديهما سبب للتعاون مع بعضها ضد الغرب[٢٦].

ومع ذلك فأن "هنتنغتون" كان يولي الإسلام اهتماماً تفصيلاً اكبر من ذلك الذي يوليه لاية حضارة أخرى، بما فيها حضارة الغرب . إلا أن " هنتنغتون" حاول أن يكرس حتمية الصراع من خلال استخدام اللغة بشكل بلاغي لكي يبرز الفارق بين "عالما" (نحن الانسان الطبيعين المنطقيين المقبولين) وعالم الإسلام ذي الحدود الدموية والابعاد الناشئة حسب

---

24 صمويل هنتنغتون : "النتوء الديمغرافي سبب الاحتكاك بين الغرب والإسلام"، مجلة الكرمل ، العدد ٥٣ ، ١٩٩٧ ، ص٨٣ .

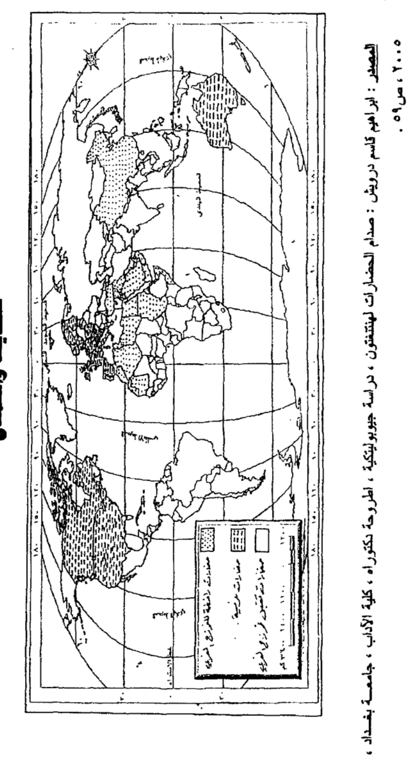
25 صموئيل هنتنغتون : صدام الحضارات واعادة صنع النظام العالمي ، دار سيمون وشوستر الأمريكية للنشر ، ١٩٩٦ ، ص١٦٣ .

26 المصدر نفسه، ص٢٤٦.

تعبيره، وبالتالي فان هنتنغتون لايحلل الوضع بل يتحدث عن مجموعة من الافكــار المحــددة سلفاً، وهي التي تخلق الصدام الذي يزعم " هنتنغتون " أنه يكتشفه ويشير اليه[٢٧].

خارطة (٢)

أنماط العلاقة بين الغرب والحضارة الأخرى بحسب معايير القبول والرفض للحديث والتمدن



المصدر : ابراهيم كاسم درويش : صدام الحضارات لهنتنغتون ، دراسة جيوبولتيكية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعــة بغــداد ، ٢٠٠٥ ، ص٥٩ .

---

[27] ادوارد سعيد : المصدر السابق ، ص٥٨ .

أن توكيد "هنتنغتون" كون الحضارة الإسلامية حضارة دموية مولعة بالعنف والقتال هي مغالطة كبيرة وضد منطق التاريخ، إلا أنه بهذا الطرح يعطي زخماً أكبر من الدعم باحقية ومشروعية استخدام القوة والعنف ضد المسلمين، وذلك لتحقيق عدة أهداف جيوبولتيكية للولايات المتحدة الأمريكية لمرحلة مابعد الحرب الباردة.

إلا ان ما يمكن التأكيد عليه أيضاً هو أن الإسلام الذي تعرفه أوربا والولايات المتحدة الآن، ينتمي الى الخطاب الاستشراقيَ، أي أنه بنية "مفبركة" يتم توظيفها لالهاب مشاعر العداء في هذه البلدان ضد منطقة جغرافية معينة من العالم، تصادف أن احتلت مكانة استراتيجية حيوية بسبب وجود النفط فيها، وبسبب قربها مما يسمى بالعالم المسيحي، وبسبب تاريخ التنافس الطويل بينها وبين الغرب . لكن هذه الصورة تختلف جوهرياً عن الإسلام، كما يعرفه المسلمون الذين يعيشون في البلدان الإسلامية، بل أنه يوجد فارق كبير بين الإسلام كما تعرفه دولة إسلامية كاندنوسيا وبين الإسلام كما تعرفه دولة إسلامية أخرى كمصر[٢٨].

أن أضعف حلقات مقولة صدام الحضارات من الناحية النظرية هي تلك التي تفترض الفصل الجامد بين الحضارات المختلفة، فهذا افتراض خاطىء ومفسد لمفهوم الثقافة التي تنتعش من خلال التنوع والتعدد وتشابك العناصر المؤثرة في أية ثقافة.

إذاً لماذا يتم تناول العلاقات بين الحضارات من منظور الصراع والصدام؟ اليست ظاهرة التبادل والتفاعل الثقافي موضوعاً أجدى بالدراسة وأكثر نفعاً من موضوع الصدام هذا؟

إن الصدام بين الثقافات أو الحضارات هو ثمرة صدام سياسي أو هدف له، فلو انتفت الخلافات والاطماع السياسية سينتقي الصدام بين الحضارات[٢٩]. الا أن طروحات "هنتنغتون" جاءت لتحقيق هدف جيوبوليتيك يسمح للولايات المتحدة باطالة عمر عقلية الحرب الباردة بعد انتهاء هذه الحرب، ونقلها الى الزمن الحالي بعد إجراء التعديلات على طبيعة العدو.

---

[28] المصدر نفسه، ص٦١.

[29] جميل مطر : "حوار الحضارات السياسي أولاً" ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ٣٢٥، بيروت ، ٢٠٠٦ ، ص٦٢ .

المبحث الثالث:

الاهمية الجيوبوليتيكية لأقليم الحضارة الاسلامية

يشمل الأقليم الحضاري المناطق التي تسود فيها مجموعة صفات تميزها عن المناطق الأخرى، وتسمى بالمناطق الحضارية الشكلية في حين تعرف المناطق التي تقوم باداء وظيفي سواء كانت سياسية أم دينية أم اقتصادية أو اجتماعية بالمناطق الحضارية الوظيفية[30].

يتميز اقليم الحضارة الإسلامية عن الاقاليم الأخرى ببعدين رئيسيين هما البعد الجيوثقافي والبعد الجيوسياسي.

أولاً: البعد الجيوثقافي

شكل الاقليم الجغرافي الإسلامي منذ ظهوره تأثيراً رئيساً في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو عام، وعلى تاريخ الديان على نحو خاص، وتتجلى تلك الفاعلية في الخصائص التي اتصفت بها بالشمولية المركبة للجوانب الروحية والمادية وحالة التوازن بينهما، لذلك كان ولايزال ينظر اليه من الانظمة الدينية والثقافية والحضارية المغايرة على أنه الدين الأكثر فاعلية في الانتشار والامتداد[31].

وخلال قرن واحد (٦٣٢م – ٧٣٢م) كان المجتمع العربي الذي حمل لواء الإسلام قد امتد على قارات آسيا وافريقيا وأوربا، وهذا الانتشار لايمكن أن يفسر بالقوة العسكرية، وأنما اقترن الانتشار العسكري والسياسي، بتطور التشريع والادارة ومؤسسات الدولة والصناعة والفن والادب والعلوم والترجمة، وفي هذا تكمن قوة الدين الجديد.

لقد تنامت رغبة العداء للإسلام لدى الغرب وعمل على ايجاد المسوغات لاحتلال أرضه، إذ أخذ اهتمام أوربا بالعالم الإسلامي ينتقل من القرن السابع عشر من الاهتمام الفردي والمؤسساتي المحدودة الى اهتمامات ذات غايات أبعد لم تقتصر على الابداع الادبي

---

[30] عبد الله علي الصنيع : اضواء على مفاهيم الجغرافية الاجتماعية والحضارية ، مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية ن العدد ٦٩ ، ١٩٨٩ ، ص١٤ .

[31] كلود كاهن : الشرق والغرب ، ترجمة أحمد الشيخ ، دار سيناء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص٧٩ .

فحسب، بل على صعيد المشاريع المعرفية المتخصصة المستجيبة لظهور الدولة المركزية القوية في أوربا والحاجات لنموها الاقتصادي[٣٢].

أما في المرحلة الراهنة فقد مثل الجهد الأمريكي دوره في اعادة صياغة البنية الجيوبوليتيكة لمنطقة الشرق الأوسط الكبير (العالم الإسلامي) على اعتبار أنه المصدر الرئيس الذي يهدد المصالح الأمريكية.

لقد استندت الرؤية الجيوبولتيكية للولايات المتحدة على تأطير حدود الشرق الأوسط الكبير المستند على بيئة ثقافية (دينية) من خلال اعادة هيكلة تلك البنى، ليس من خلال البنية الفوقية المتمثلة بالمقومات المادية للكيان الحضاري الإسلامي، بل يذهب الى رسم استشراق جديد، ليس وظيفته قراءة الخطاب الديني وتشويهه، وانما تفكيك ذلك الخطاب وتهميش لاجزاء منه، لاتتوافق وحضارة الغرب على نحو يعمل المشروع فيه على اعادة الهيكلية الثقافية للمنطقة، وتطبيق الفكر الحداثوي بكل جزئياته على المجتمعات الإسلامية وهو لايؤدي إلا الى زيادة التوتر والتصعيد لهيمنة الخطابات الثيوقراطية (الدينية) واختلافاتها، التي تؤكد (استحالة علمنة العالم الإسلامي، ويفرض على تحديث هذا الاخير ممرا الزاميا في قناة الدين الإسلامي)[٣٣].

ثانيا: البعد الجيوسياسي

تشمل الجيوستراتيجية نطاقاً مفاهيمياً أوسع من دلالات الجيوبولتيك ، إذ تشكل الاخيرة نطاقاً محدوداً تستثمر فيه العناصر الجغرافية الثابتة (الطبيعية) والمتحركة (البشرية) وتفاعلاتها في رسم سياسات آنية ومستقبلية ضمن الإطار الاقليمي والدولي لأي كيان سياسي، في حين تضم الجيوستراتيجية مجموعة من النطاقات والتكتلات الجيوبوليتيكية، لتصبح نقطة محورية رئيسية في الستراتيجيات العالمية وأهدافها، لاسيما عندما توضع تصورات القوى الكبرى في إطار التوسع والامتداد[٣٤].

---

[32] رسول محمد رسول : الغرب والإسلام ، دار اسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ١٩٩٩ ، ص٨ .
[33] جابر الاشقر : الإرهاب : الإرهاب المقابل والفوضى العالمية ، ترجمة كميل داغر ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص٧٦ .
[34] بيار سلبيزية : الجيوبوليتيكا والجيوستراتيجية ، ترجمة عاطف علبي ، مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص١٢ .

يمكن تحديد عناصر الجيوستراتيجية الفاعلة في العالم الإسلامي بعاملين هما الموقع الجغرافي والامكانات الاقتصادية:

١. **أهمية الموقع الجغرافي:**

تأتي أهمية الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي من خلال ما يمتلكه هذا الموقع من مزايا جيوبوليتيكية، فاختراقه الواسع من خط طول (١٨) غرباً عند سواحل المحيط الأطلسي الى (١٤٢) شرقاً عند أطراف اندنوسيا. وبين دائرتي عرض (٥٥) درجة شمالاً عند الحدود الشمالية لجمهورية كازاخستان الآسيوية و(١٧) جنوباً عند الاطراف الجنوبية لجمهورية جزر القمر وموزنبيق جنوب افريقيا، جعله يستحوذ على (٧٢) دائرة عرض من الشمال الى الجنوب، و(١٦٠) درجة من خطوط الطول من الغرب الى الشرق، فهو يستحوذ على نسبة (٢٣%) من اجمالي مساحة العالم[٣٥].

لقد أثر الموقع الجغرافي المتميز للعالم الإسلامي على بناء شخصيته الحضارية وأهميته الجيوبوليتيكية، والتي يمكن ايجاز أبرز ملامحها وعلى النحو الآتي:

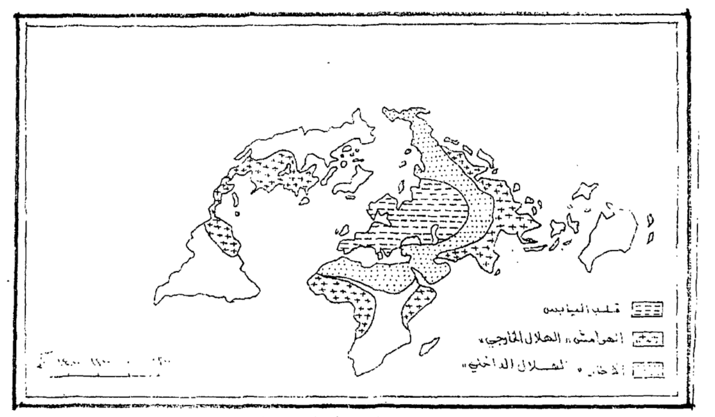
أ. يمكن إدراك أهمية العالم الإسلامي من خلال موقعه في النظريات الستراتيجية العالمية، إذ يقع معظمه ضمن المنطقة الثانية من نظرية (القلب الأرضي لماكندر التي سماها بالهلال الداخلي والتي اطلق عليها مع منطقة قلب اليابس يتم فرض السيطرة على مناطق الهلال الخارجي ومن ثم السيطرة على جزيرة العالم ، وتحكمه بالعالم واقامة (الامبراطورية العالمية)[٣٦]. انظر خارطة(٣).

أما سبيكمان الذي عدل من رؤية "ماكندر" فرأى أن المنطقة الثانية بحسب توزيع ماكندر وهي منطقة (الهلال الداخلي) التي تضم العالم الإسلامي تتحكم في معظم المضائق البحرية العالمية وهي مفتاح القوة والسيطرة العالمية، واطلق عليها سبيكمان أسم (الإطار أو الحافة). وأكد أن هذا الإطار هو الذي يتحكم في جميع منافذ الحركة الأرضية والبحرية العالمية على عكس مما اشار اليه (ماكندر)[٣٧] ليؤسس الفرضية الجيوبولتيكية، ان من يحكم الإطار يتحكم في الجزيرة العالمية ومن يتحكم في الجزيرة يتحكم في مصير العالم. انظر خارطة(٤).

[35] مهند عبد الرحمن آل ثاني : جيوبولتيكية العالم الإسلامي ، الرأي ، العدد ١٥٧ ، ١٩٩٧ ، ص٤ .
[36] محمد رياض : الاصول العامة في الجغرافية السياسية ، ط٢ ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص٨٥ .
[37] أحمد خالد حسن : "المنظور الجيوستراتيجي للمضائق العالمية" ، مجلة الدبلوماسية ، الرياض ، ١٩٨٨ ، ص٢١ .

خارطة (٣)

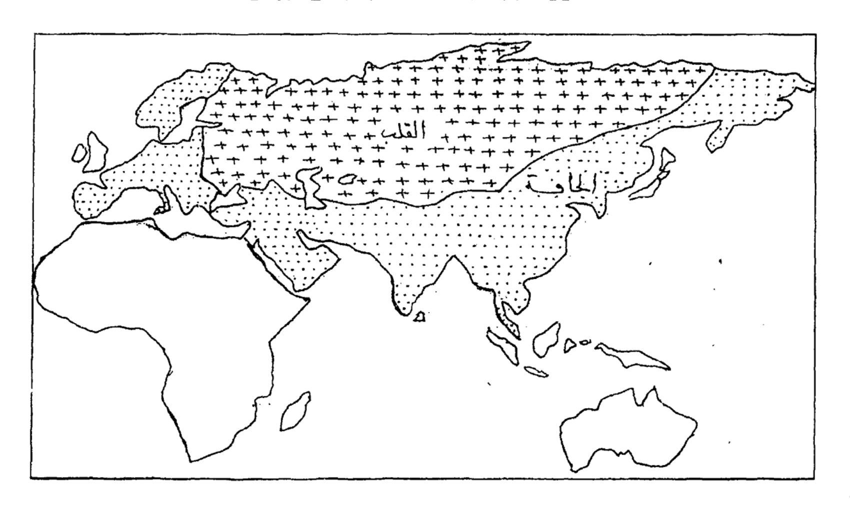
الأهمية الجيوبوليتيكية للعالم الإسلامي بحسب رؤية ماكندر للعالم



المصدر : ابراهيم قاسم درويش ، ضصدام الحضارات لهنتنغتون /دراسة جيوبوليتيكية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص٩٧

خارطة (٤)

موقع العالم الإسلامي في منطقة الحافة بحسب نظرية سبايكمان



المصدر : ابراهيم قاسم درويش : صدام الحضارات لهنتنغتون ، دراسة جيوبوليتكية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص٩٩ .

ب. يمثل موقع العالم الإسلامي أهمية من خلال احتوائه أو اطلالته على مجموعة من البحار والخلجان المهمة في العالم، فالبحر المتوسط الذي يقع حوضه الجنوبي في الشمال الغربي ضمن العالم الإسلامي يمثل اعظم ممر بحري في العالم. كما أن اتصاله باربعة بحار أخرى هي (الأحمر والعربي والاسود وقزوين) الى جانب الخليج العربي وانفتاحه ايضاً على طرق الملاحة العالمية عن طريق الاطلسي والهندي، اضافة الى قناة السويس ، كل ذلك جعل منه الجسر الأرضي الذي يربط بين العالم القديم (آسيا وأوربا وافريقيا) كما سهل عمليات النقل البحري طول العام بسبب الظروف المناخية الدافئة السائدة فيه لوقوعه ضمن المنطقة المعتدلة والمدارية[٣٨].

ومن هنا يمكن تصور مركزالثقل الجيوبوليتيكي للعالم الإسلامي كونه المكان الذي تتوازن فيه القوى الستراتيجية، والتي تدفع التكتلات الكبرى للسيطرة عليه والانفراد به.

ج. أما ما بعد الحرب الباردة، فان هذا الموقع على وفق الرؤية الماكندرية الجديدة للتقسيمات الجيوبولتيكية المعاصرة يعطي أمكانية التدخل السريع لمواجهة أي موقف يتعارض مع المصالح الستراتيجية للولايات المتحدة الامريكية[٣٩].

د. يقع العالم الإسلامي ضمن الصياغة الماكندرية الجديدة على خط مستقيم يفصل بين نطاقين جغرافيين يكون امتداده من المغرب حتى اندنوسيا. وتتجلى بواعث (الماكندرية الجديدة) في انها تصب في مصالح قوة عظمى واحدة وهي الولايات المتحدة الأمريكية بعدما كانت (الماكندرية القديمة) تتوخى علاقات القوى الأوربية من منظور توازن القوى[٤٠].

إن ما يمكن التأكيد عليه في هذا المجال أن محاولة هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم الإسلامي، هي فرصة لتطويق أي تكتل جيوستراتيجي يشكل في آسيا ولاسيما وجود مناطق احتكاك وتماس جغرافي للعالم الإسلامي مع كيانات سياسية تؤهله للصعود في آسيا لتشكيل ذلك التكتل الجيوستراتيجي مثل الصين والآسيان. كما يمنح الولايات

---

38 صبري فارس الهيتي : الجغرافية السياسية مع تطبيقات جيوبولتيكية ، دار وائل ، عمان ، الاردن ، ٢٠٠٠ ، ص٢٠٣ .

39 كاظم هاشم نعمة : "الماكندرية الجديدة والوطن العربي" ، مجلة الدراسات السياسية ، طرابلس ، ١٩٩٩ ، ص١١ .

40 المصدر نفسه، ص١٣.

المتحدة ايضا السيطرة على جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية والسيطرة على الحدود الروسية شمالاً، فضلاً عن دورها في تحجيم دور الصين الرامي الى الدخول في هذه المنطقة.

٢. الاهمية الاقتصادية :

يتمتع اقليم العالم الإسلامي بامكانيات كبيرة يمكن طرحها على النحو الآتي[41]:

أ. يعد العالم الإسلامي أكبر احتياطي للنفط في العالم ، إذ يشكل نسبة (٧٥%) من الاحتياطي العالمي من النفط، و(٣٥%) من الغاز الطبيعي، وتتوزع أهم مناطق الانتاج في منطقة الخليج العربي ودول جنوب شرق آسيا (ماليزيا واندنوسيا وبروناي ووسطها الإسلامي وجمهوريات آسيا الوسطى واذربيجان) فضلاً عن ليبيا والجزائر ونايجريا والكامرون في افريقيا.

ب. أما من حيث المعادن اللافلزية، فتحتل الفوسفات المرتبة الأولى إذ تشكل ٥% من الانتاج العالمي، وتعد المغرب أهم دول العالم الإسلامي من حيث الاحتياطي إذ يوجد فيها (٦٠) مليار طن، فضلاً عن ذلك فانه توجد كميات من المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة والماس.

ج. كما يمثل المطاط والجوت أهم المحاصيل النقدية التي تتوافر في العالم الإسلامي بكميات كبيرة إذ يشكل نسبة (٩٢%) و(٧٥%) من الانتاج العالمي لكلا المحصولين بالترتيب.

د. ويعد العالم الإسلامي ايضاً أكبر سوق استهلاكية وذلك لكبر حجمه السكاني الذي يبلغ مليار وربع المليار نسمة بحسب بيانات عام (٢٠٠٠) وهذا العدد في زيادة مستمرة نتيجة لارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية حيث تتطلب هذه الزيادات توفير كميات من المواد الغذائية التي توضح مؤشرات الأمن الغذائي الإسلامي . إذ ان هناك العديد من الدول الإسلامية لاتستطيع توفير الحدود الدنيا منها[42].

---

[41] محمود ابو العلا : جغرافية العالم الإسلامي ، ط١١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٩٦ ، ص٨١ .
[42] طه عبد العليم رضوان : جغرافية العالم الإسلامي ، ج٢ ، ط٦ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص٣٠٧ .

ثالثاً : الأمن الإسلامي

تعرض الأمن الإسلامي للعديد من التحديات الجيوبولتيكية تمثلت بالتهديدات الخارجية والتي يمكن اجمالها على النحو الاتي[٤٣]:

١. الصهيونية العالمية وانشاء الكيان الصهيوني.
٢. التدخل الاجنبي في شؤون الدول الإسلامية ومساندة الانشطة الانفصالية كما في السودان وتشاد وافغانستان والصومال والبوسنة والهرسك وقبرص ومناطق إسلامية أخرى.
٣. النظام الدولي الجديد وهيمنة الولايات المتحدة على المنظمات الدولية والتدخل في الشؤون الداخلية لدول العالم بحجج الشرعية وحماية حقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب.
٤. محاولة الدول الكبرى للسيطرة على المواقع السوقية في العالم الإسلامي كقناة السويس ومضيق باب المندب، والممرات المائية الأخرى التي يشرف عليها العالم الإسلامي، بل وصل الأمر في الالفية الثالثة الى احتلال الولايات المتحدة دولتين إسلاميتين هما العراق وافغانستان.
٥. الغزو الفكري للعالم الإسلامي ونشر البدع والقيم الغربية بحجة الديمقراطية وحقوق الإنسان وغير ذلك، والتشكك في العقيدة الإسلامية والدعوة الى اعتماد المناهج الغربية في التربية والتعليم، والنشاط الاستشراقي الذي يركز على الافكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة وضمها الى التراث الإسلامي لتشويهه.
٦. الشركات الاحتكارية العالمية التي تسعى للسيطرة على موارد الثروة الإسلامية ومحاربة الاقتصاد والانتاج والسلع للدول الإسلامية.
٧. المنظمات الاقتصادية الدولية التي تحاول محاصرة الاقتصاد الإسلامي واضعاف قدرات الدول الإسلامية من خلال الاتفاقيات والتي تعقدها دول تلك المنظمات وتأثير ذلك على السلع وانتاج الدول الإسلامية.

---

[43] صباح محمود : الأمن الإسلامي ، دراسة في التحديات الجيوبولتيكية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، ١٩٩٤ ، ص١٣ .

ولمواجهة تحديات الأمن الإسلامي يتطلب منا العمل وفق المحاور الآتية:

١. مواجهة كل دولة إسلامية للتهديدات الخارجية عليها وفق خطة تتجاوز فيها عوامل الضعف في أمنها الوطني الذاتية والموضوعية.
٢. مواجهة الدول الإسلامية مجتمعة، وفق اساليب ووسائل ثنائية وجماعية لتعزيز عناصر القوة في الأمن الإسلامي ومواجهة التهديدات الخارجية.
٣. تنسيق مواقف الدول الإسلامية في المنظمات الدولية باتجاه تعزيز الأمن الإسلامي.

المبحث الرابع

الحوار الحضاري ومستقبله الجيوبولتيكي

اولاً: مفهوم الحوار الحضاري

الحوار مفهوم سياسي فكري ثقافي-حضاري، اما مصطلح "حوار الحضارات" الذي شاع في منتصف عقد التسعينات من القرن الماضي فانه يتمحور لدى غالبية التيارات متجاوزاً الاختلافات الثقافية والعقائدية الدينية منها على نحو خاص، داعياً الى التعايش بين الأديان السماوية الثلاثة الرئيسية (اليهودية والنصرانية والإسلامية) وتوحيدها تحت مسميات مختلفة[44].

وبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الثنائية القطبية وتوقف الصراع الايديولوجي بين الشيوعية والرأسمالية، واشتعال ثورة الاثنيات والخصوصيات الثقافية، برزت الحاجة الى فهم العالم ثقافياً. اي اعتماد "منهجية التحليل الثقافي" الذي يعده السيد ياسين: المدخل الأساس لتحليل العالم المعاصر[45].

[44] مراد هوفمان : الإسلام في الالفية الثالثة ، ديانة في صعود ، ترجمة عادل المعلم وبين ابراهيم ، مكتبة الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص١٧ .
[45] عبدا لله بلقريز : حوار مع السيد ياسين : "من اجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٣١٩ ، ٢٠٠٥ ، ص٢٩ .

لقد انتهت اليوم الانساق الفكرية المغلقة وسقطت الثنائيات التي سادت في القرن العشرين، في مقابل ذلك يطرح السيد ياسين الانساق الفكرية المفتوحة التي تعتمد على التركيب لكن الجديد فيها هو انه سيحصل تركيب بين عناصر مضادة[٤٦].

ان تحقيق الانساق الفكرية المفتوحة يعني الوصول الى الفكر الآخر، كما تعني ان الثقافة العالمية بحاجة الى "حوار حضارات" على حد تعبير المفكر الفرنسي روجيه غارودي، إذ يتطلب الحوار تحطيم الحدود والحواجز بين الثقافات الدينية والقومية سعياً للوصول الى نقاط التقائها من اجل الاسهام المشترك في حل المشكلات المعاصرة للإنسان[٤٧].

إلا انه لايمكن أن يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل طرف بان يتعلم شيئاً من الاخر، ثم استعداده لاعادة النظر في معتقداته الخاصة[٤٨].

فحوار الحضارات إذن يبدأ من إرادة الاعتراف، ومن الايمان بوحدة الإنسانية، ولكنه يرتقي الى مستوى الوعي بضرورة الحوار الحضاري بصفته قانوناً اساسياً في حياة البشر. فالوعي الحضاري يشكل إذن ركيزة التطلع الجديد لعالم يفتش عن حضارة جديدة وعلى نحو عام ينقسم موقف التيارات الرئيسة في العالم الإسلامي من حيث قبولها أو رفضها للحوار وشروطه الى الاتجاهات الآتية[٤٩]:

١. تيار التغريب: ويمثل الكتاب والمثقفين الذين ابهرهم الانموذج الغربي في عمليات تحديث وتنمية المجتمع سياسياً واقتصادياً وثقافياً من دون النظر للمعطيات والبنى القيمية للمجتمعات الإسلامية سواء من حيث الدين او العادات والتقاليد ، فهو تيار يدعو الى الاندماج الكامل مع الغرب.
٢. تيار الرفض القاطع: يرفض الحوار ويدعو الى مكافحة الغرب تماماً إذ يتوقف عند مجموعة ضوابط شرعية فضلاً عن طموحاته في العديد من قضايا العالم الإسلامي ومنها تكوين الدولة الإسلامية.

---

46 المصدر نفسه، ص٣٠.

47 روجيه كارودي : في سبيل حوار الحضارات ، ترجمة سليم العوا ، ط٢ ، عويدات للنشر والطباعة ، بيروت ، ١٩٩٩، ص٣٧ .

48 المصدر نفسه، ص١٣٩.

49 محمد محفوظ : الإسلام : الغرب وحوار المستقبل ، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨ ، ص٢٤ .

٣. التيار التوافقي (الواقعي): وهو تيار يناشد العقلانية في علاقاته مع الغرب، مــن خــلال التركيز على الجوانب المدنية والاستفادة الى الحد الاقصى من ذلك مع المحافظة علــى القيم الثقافية سواء كانت الدينية أم القومية، لذلك يضم هذا التيار مجموعة متباينــة مــن الاتجاهات سواء الدينية أم القومية.

ولما كانت معظم الازمات السياسية والاجتماعية والفكرية الراهنة في عالمنا، انمــا تعود الى العوامل المعطلة للحوار الحضاري بين القارات والشعوب والفئات في المجتمعات البشرية، لذا فقد جاءت الدعوة الى حوار الحضارات لفهم عالمنا المعاصر.

ثانياً : نماذج من الحوار الحضاري:

لقد طرحت عدة نماذج للحوار الحضاري يمكن ذكر البعض منها:

١. الحوار العربي–الأوربي:

بدأ هذا الحوار على مستوى المصالح والمواقف الآنية، إلا أنه لايمكن أن يرتفع الى المستوى الحضاري الا من خلال نضال مشترك من أجل فهم متبادل أعمق وعلــى مــستوى المواجهة المشتركة للتحديات المشتركة. ليصل هذا الحوار الى بناء صداقة فكرية ونــضالية من اجل تصور مشترك وعمل متساند، ضد الاخطار التي تهدد المــصير الإنــساني، الا ان الحوار الحضاري اليوم قيَّد الحوار الحضاري بالموقف من مفهومي "الديمقراطية" و"المــرأة" فالديمقراطية جعلها الصداميون الغربيون سبباً ومبرراً كافياً لنشوب صــدام بــين الحــضارة الغربية والحضارة الإسلامية، أما الحوار حول "المرأة" فيعتبره الغرب ركنــا مــن أركــان حضارته الغربية ويحاول فرض نموذجه بالضغط السياسي والاقتصادي، ويعتبــره الطــرف الآخر موضوعاً اجتماعياً وليس دينياً، وان مجال الحوار الداخلي حوله ممتد من دون تــدخل خارجي[٥٠].

٢. مشروع كارودي :

اطلق كارودي على مشروعه أسم "مشروع الأمل" الذي هو في الأصل بحث مقــدم بعنوان "من أجل حوار بين الحضارات"[٥١] تكمن فكــرة كــارودي الرئيــسة للحــوار بــين

---

[50] جميل مطر : المصدر السابق ، ص٥٩ – ٦٠ .
[51] روجيه كارودي : المصدر السابق ، ص١٠ .

الحضارات في أمكانية المجموعات البشرية أجمع في العيش بتعاون من دون أن يفرط أحد منهم في رأيه أو عقيدته الى جانب ما يوفره الحوار من فائدة لاتقتصر على الجانب التاريخي فحسب، بل أنه يقوم بدور نهضوي يسهم في صنع المستقبل.

يتحدد الاطار الفكري للمشروع بالمفاهيم الاتية:

أ. يستلزم مشروع الأمل خلق نسيج اجتماعي جديد يسهم في بناء مفهوم سياسي جديد. فكارودي لايتحدث عن نظرية في السياسة بوصفها اداة السلطة ووسيلتها بمؤسسات وباجهزة خارجية الى جانب الإنسان، بل بوصفها تفكيراً يتناول الغايات والالتزام الشخصي والداخلي الذي ينهض به الفرد تجاه الكل[52].

ب. يتطلب الحوار تحطيم جميع الحدود والحواجز بين الثقافات الدينية والقومية، سعياً للوصول الى نقاط التقائها من اجل الاسهام المشترك في حل المشكلات المعاصرة للإنسان[53].

ج. لايمكن أن يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل طرف ان يتعلم شيئاً من الاخر، ثم استعداده لاعادة النظر في معتقداته الخاصة[54].

د. أن الحوار بين الحضارات وحدة يمكن ان يولد مشروعاً كونياً يتسق مع صنع المستقبل ابتغاء من أن يصنع الجميع مستقبل الجميع. إن التجارب الحالية في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية-تجارب "غاندي" وتجربة الثورة الثقافية الصينية- تجارب "نيريري" الجماعية في افريقيا ،تتيح لنا ان نرسم منذ اليوم الخطوط الاولى لهذا المشروع الكوني في القرن الحادي والعشرين[55].

٣. مشروع محمد خاتمي:

يقوم نمط العلاقة بين الحضارات عند خاتمي على التفاعل والتشابك فيما بينها، إذ تتأثر الحضارات ببعضها الآخر. إلا ان خاتمي يعتقد أن الحضارة الغربية تواجه أزمة في الفكر في جميع شؤون الحياة، وإن الحضارة الغربية التي يسجل لها السبق على الحضارات

---

[52] المصدر نفسه، ص١٠.
[53] المصدر نفسه، ص٣٧.
[54] المصدر نفسه، ص٣٩.
[55] روجيه كارودي : الاصوليات المعاصرة ، ترجمة خليل أحمد خليل ، دار العين ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص١٨٩ .

الخرى منذ أربعة قرون أصبحت هرمة، الا أنه لايمكن التنبؤ بموعد زوالها، لكنها تسعى بالمقاييس عبر آليات النظام العالمي الجديد، ومن خلال القوى العظمى المنفردة (الولايات المتحدة المريكية) الى استعادة الموقعية التاريخية والبشرية والتكنولوجية التي تمتلكها للاستمرار في اظهار حاكميتها بصورة ظاهرة الاصلاح[٥٦].

يتضمن مشروع خاتمي لحوار الحضارات المفاهيم الآتية[٥٧]:

١. احلال عقلية الحوار محل عقلية الآلة والنار.
٢. يقترح خاتمي عبر طرحه النظرية حوار الحضارات أن يصل العالم وعبر الحوار الى السلام والعدالة والحرية في الالفية الجديدة.
٣. يؤكد خاتمي أن السعي في نفي الغرب هو محاولة لالغاء السلطة السياسية والثقافية والاقتصادية التي يريد الغرب فرضها علينا.

وإذا اردنا الاستفادة من التجربة الغربية الحالية ورفض النقاط السلبية ، فلامفر من المعرفة الصحيحة للغرب[٥٨].

وإذا كانت كل الحقائق تؤكد أن "حوار الحضارات" هو المفتاح الحقيقي لتعايش الشعوب وتفاعلها فيما بينها لبناء حضارة جديدة، فان أكثر نزاعات القرن العشرين كانت بسبب جهل المتحاورين أو الاستعجال الذي احاط باطلاق الحوار او لضغط الظروف السياسية والأمنية الى صدامات حضارية. ومن الامثلة على ذلك النزاع الاثني والاجتماعي الناشب في جزر مندناو بالفلبين ونزاع الاستقلال في جزيرة تيمور الشرقية بين السكان والاحتلال الاندنوسي، والنزاع على كشمير بين الهند والباكستان والحرب الانفصالية في الشيشان ، وكيانات أخرى في القوقاز والنزاع على اقليم فاغورنو كاراباخ بين الارمن والاذريين، والصراع الفلسطيني–الإسرائيلي، والنزاع التركي–اليوناني على قبرص، وحروب البلقان الأهلية، والنزاعات في جنوب السودان وغربه وشرقه[٥٩].

---

56 محمد خاتمي : نداء الى حوار الحضارات ، أوراق ومداخلات ، المؤتمر الدولي حول كيف تواصل مشروع حوار الحضارات ، دمشق ، ٢٠٠١ ، ص٤ .
57 محمد خاتمي : حوار الحضارات ، مركز حوار الحضارات ، طهران ، ١٩٩٨ ، ص٤٢ .
58 المصدر نفسه : ص١٢٨ .
59 جميل مطصر : المصدر السابق ، ص٥٨ .

وانا اتفق مع الاستاذ جميل مطر في ان كل هذه الافكار الغربية كانت تسعى الى "التمهيد لصيغة جديدة لنظام امبراطوري تنتقل فيه الولايات المتحدة من موقع القطب الاوحد الى موقع المركز أي موقع مناسب لكيان يتمتع بالهيمنة السياسية الشاملة وتسود العالم معتقداته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية، ولاسيما انه توافرت له أسباب الهيمنة العسكرية، ولم يتبق له سوى خلق الظروف المناسبة لنشأة وعي كوني واحد وشامل أي فرض الاتباع الثقافي والحضاري والعلمي على مختلف شعوب واقاليم الأرض"[٦٠].

إن ما يمكن التأكيد عليه هو ان "حوار الحضارات" لايمكن أن يتحقق الا إذا ادركنا ان هذا "الحوار" يعني الصعود الى منابع الحضارات وتتبع مسيرتها واكتشاف آفاقها، والكشف عن القوانين العامة واللغة المشتركة التي تقوم فيما بينها، وتوظيف ذلك كله في الجهد العام الذي تبذله البشرية في السعي لبناء عالم جديد.

---

[60] انظر : المصدر نفسه ، ص٦٣ .

القوميات وتأثيرها على العلاقات الدولية

المدرس المساعد
حسين مصطفى احمد(*)

المقدمة

يحتل موضوع القوميات في السنوات الأخيرة أهمية استثنائية على صعيد العديد من دول العالم تلك التي يتكون سكانها من أكثر من قومية، ويشكل هذا الموضوع قضايا ساخنة تمس صميم أمن وكيان واستقرار تلك الدول، لاسيما بعد أن أخذ البعد القومي أو العرقي أو الديني أو الثقافي لكثير من القوميات أبعاداً أخرى نتيجة عوامل داخلية ومؤثرات خارجية، والتي تتمثل بكثير من دول العالم.

إن علم العلاقات الدولية يهتم بدراسة هذه الظاهرة انطلاقاً من أن حركات التحرر للشعوب تمثل لاعباً وفاعلاً مهماً في مسار العلاقات الدولية وطرفاً في رسمها وتغيير مجراها، لأن الإرث الاستعماري والتنوع العرقي الهائل وغياب الديمقراطية والحريات، قد جعل دول العالم تدفع تكاليف باهظة من أرواحها وأموالها واستقرارها ونمائها ثمناً للنزاعات والصراعات والمشاكل القومية، الأمر الذي يدعو الباحثين بإلحاح لتكثيف الجهود في مثل هذه البحوث التي تتناول هذا الأمر.

فرضية البحث:

ينطلق البحث من فرضية مفادها إن قضايا القوميات هي من أهم العوامل المؤثرة في العلاقات الدولية والسياسة الخارجية لأنه تعين صانع القرار على التعامل الصحيح مع مشاكل القوميات وحقوقها لتوظيفها في اتجاه اغناء وتقوية العلاقات الدولية بدل أن تتحول إلى بؤرة استنزاف داخلي وتوتر خارجي ومدخل للتدخلات الأجنبية.

(*) كلية العلوم السياسية-جامعة النهرين

منهجية البحث:

يستعين البحث بـالمنهج النظمـي (Approach systemic) والمـنهج التـاريخي (Approach historic) لطبيعة الموضوع الذي يجمع بين السياسة والتـاريخ، لمقتـضيات الضرورة في الموضوع المبحوث عنه، والسعي لبلورة رؤية واضحة عنه تؤدي إلى وضـعه في إطار علمي، فضلاً عن الاستعانة بالمنهج الوظيفي البنيـوي(Approach Functional and structural) الذي يساعد على تحليل الوظيفة التي تؤديها الظاهرة في البنـاء الكلـي لظاهرة أكبر، وفي ضوء ذلك تحددت هيكلية البحث.

المبحث الأول: مدخل لدراسة القوميات

لقد تطرق الكثير من علماء السياسة إلى ظاهرة القومية عند حديثهم عـن مكونـات الدولة، كما فعل علماء الاجتماع السياسي وعلمـاء الانثروبولوجيـا والاثنولوجيـا وعلمـاء الجغرافية البشرية والدين والفلسفة واللغة والأدب والتاريخ كل حسب مدخله الخـاص ومـن زاوية تعلق الأمر بعلمه وتخصصه،ولطبيعة الموضوع ينبغي معرفة ماهية القوميـة وكيـف كانت وأصبحت عبر التاريخ، وعوامل تكوينها، وما النظريات التي تفسر ظاهرة القومية.

أولاً: مفهوم القومية:

أختلف الباحثون في تحديد معاني القومية تبعاً لاختلافهم فـي المـداخل والمـصالح والإيديولوجيات المختلفة في نزاعاتهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

وعلى أية حال، فالقومية لغة مأخوذة من كلمة (قوم) وهي نوع من الولاء للقوم الذي ينتسب إليه[1]، وقد وردت في القرآن الكريم كلمة قوم في (٣٨٣) آية وكلها بمعنـى جماعـة اجتماعية[2] وعند الغرب فإن كلمة القومية مأخوذة من الكلمة اللاتينية (Nascar) التي اشتقت منها كلمة أمة (Nation)[3] التي جاءت بدورها من الكلمة اللاتينيـة (Natio) التـي تعنـي

---

[1] بويد شيفر، القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصباك وعدنان الحميري، بغداد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ص ١٨.

[2] عبد السلام إبراهيم بغدادي، الوحدة الوطنية ومشكلات الأقليات في أفريقيا، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣، ص ١٥٨.

[3] بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٦٦.

المنحدرة من أصل واحد[٤] التي لها أصل كلمة (Natus) وكلتاهما أخذتا من كلمة (Nascar)[٥].

أما كلمة القومية اصطلاحاً فقد جاءت في وقت متأخر عند نداء الشريف حسين عام ١٩١٦، وشاع استخدامها وأصبح مدلولها يعني الانتماء العربي الشامل، ونحتت كلمة قوم التي تعني في التركية القبيلة أو الشعب لتدل على الوجود القومي[٦].

ولاشك إن القومية كظاهرة ومفهوم سياسي تشير إلى عنصري الوعي الذاتي والحركة السياسية لدى أبناء الأمة في سعيهم لتقرير مصيرهم وإثبات حقهم في خلق سلطتهم وكيانهم المميز ثقافياً واقتصادياً، وإنجاز مشروع دولتهم المستقلة، فالقومية هي الوعي المتميز الذاتي الجماعي بوجود الأمةِ والحركة السياسية هي التعبير عنه بشكل سياسي للوصول إلى الهدف وهو إنشاء الدولة[٧].

إن مفهوم القومية هو مجموعة من البشر تربط أعضائها صلات متعددة من وحدة الإقليم والأصل والعادات واللغة ويربط بين أفراده تشابه في الحياة والضمير الاجتماعي[٨].

كما تعرف القومية بأنها حالة عقلية يكون الولاء الأسمى للفردْ وعائديته للدولة القومية، أو الموقف الذهني الذي يحس بها الفرد من أن دولة الأمة هي محط الولاء العلماني الاسمى[٩].

وهناك تعاريف أخرى لها معاني جانبية للقومية، فبدلاً من أن تكون القومية مجموعة بشرية قبل أي وصف آخر نراها تصرف للإطلاق على أمور هي من لوازم القومية وتوابعها مثل التعريفات الآتية كالرغبة في المحافظة على الهوية القومية أو الثقافية لشعب عندما تكون الهوية في خطر، أو أن القومية هي برنامج أو مثل أعلى يقوم على الوعي بالأمة، أو أنها

---

[٤] ابتسام عبد الزهرة،دور الأقليات القومية في قوة الدولة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠١، ص ١١.

[٥] بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٦٦.

[٦] احمد صدقي الدجاني، ملاحظات في نشأة الفكر القومي العربي، عن كتاب القومية العربية في الفكر والممارسة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، د.ت، ص ٣٠٩.

[٧] سعد الدين إبراهيم وآخرون، المجتمع والدولة في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ٤٤.

[٨] ساطع الحصري، ما هي القومية-ابحاث دراسات على ضوء الأحداث والنظريات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص٣٥.

[٩] اسماعيل حسين فضل، المشكلة الكردية في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، الخرطوم، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، ١٩٨٥،ص٤٩.

مجموعة الخصائص المعبرة عن وجود أمة كحركتها السياسية والثقافية المعبرة عن وحدتها إزاء الخطر الخارجي أو مخاطر الاستبداد الداخلي[١٠] بهدف تطويرها وتقدمها.

ومن قراء التعريفات آنفاً نشير إلى الملاحظات الآتية[١١]:

١- لا يشترط في القومية أن يكون جميع أفرادها في مكان واحد ولا في دولة واحدة.

٢- لابد للقومية من أرض يعيش الناس عليها، مهما كان حجمها صغيرةً أو كبيرةً لأن تبلور شخصية أي قوم يكون عبر تحولات وتفاعلات في أرض معينة.

٣- قد يمارس ظلم معين ضد قبيلة أو طائفة من قومية لأي سبب وتهمش، وتشعر بالتمييز وتطالب بمطالب سياسية، ومثل هذه الحالات تعد قضايا دون القومية.

٤- قد يمارس ظلم معين بسبب الأرض أو السيادة أو الدين، وهذه الحالة تعد القضية فوق القومية.

٥- يختلف مفهوم القومية عن مفهوم (الرس Race) والسلالة لا توجد سلالات نقية بالرغم من ادعاء الشوفينية، لذلك لا تعد وحدة الأصل من عوامل تأسيس القومية إلا في مجالات ضيقة كعامل مساعد.

٦- إن القومية غريبة عن إرادة الشر وأبعد ما تكون عن البغضاء فهي شعور الفرد بالولاء المطلق الواجب عليه نحو دولته القومية[١٢].

وأخيراً لا ننسى انه قد تعلق بمعنى القومية معاني سلبية تدل على الشوفينية وكره الآخرين والاستعلاء العربي... الخ.

إن اختلاف الباحثون في الوصول إلى تعريف للقومية يكون جامعاً لابد من الإقرار بان هذا التعريف فيه غموض واضح، ويرجع ذلك للأسباب الآتية[١٣]:-

١- تضارب المصالح السياسية واختلاف الدول التي تنشأ فيها أصحاب التعريف.

---

[١٠] معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٨، ص ١٠٨٢.

[١١] للتفصيل ينظر: سميرة بحر، المدخل لدراسات الأقليات، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٢، ص ٨، وكذلك مثنى أمين قادر، قضايا القوميات وأثرها على العلاقات الدولية (القضية الكردية نموذجاً)، السليمانية، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٣، ص ١٩.

[١٢] هانس كهن، القومية معناها وتاريخها، ترجمة أمين محمود الشريف، القاهرة، مطبعة النهضة، د.ت، ص ١.

[١٣] مثنى أمين قادر، المصدر السابق، ص ١١-١٢.

٢- القومية ظاهرة اجتماعية، ومن شأن أغلب المصطلحات الاجتماعية أن تختلف فيها الرؤى والأفكار، لأنها تصاغ في مجتمعات متباينة تعبر عن تجارب مختلفة، ولا تعبر عن حقائق متطابقة، لأن الأمور الاجتماعية تختلف عن الأمور المادية الطبيعية التي تتفق حقائقها باختلاف الزمان والمكان.

٣- المذاهب الأيديولوجية واختلاف النظريات.

٤- اختلاف العلماء حول تكوين القوميات.

وتبعاً لذلك فقد اختلف الباحثون في تحديد معنى القومية في عناصرهم وتفاوتهم ونزعاتهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

ثانياً: نشأة و تكوين القوميات:

تحدث علماء السياسة عن العوامل المشتركة يمكن للشعوب الشعور بالخصوصية والتميز من الآخرين، واختلفوا في تقدير أهمية تلك العوامل وأولويتها في تشكيل تلك الأمة، ولكن يكفي أن تشعر مجموعة من الناس بوجود بصلات خاصة وروابط متميزة فيما بينها لكي يمكن أن يكونوا قومية خاصة بغض النظر عن المكون الأساسي لذلك الشعور لتلك المجموعة من الناس في أن تحافظ على خصوصياتها، وفي أن تعيش في مساواة وبحقوق كاملة مع باقي الشعوب التي تختلف معها.

وفي ضوء هذه الحقيقة، فثمة عوامل تساهم في تكوين القوميات، يمكن إجمالها على النحو الآتي[١٤]:-

١- اللغة: وتشكل الوعاء الفكري والثقافي لأي أمة، فهي أداة للاتصال والتفاعل والتلاحم، وقد تم الإحساس بوحدة اللغة حتى أصبحت سياسة متبعة في كل الدول والقارات، ولعل ألمانيا دليلاً على ذلك.

٢- الدين: وهو أعز الانتماءات عند الإنسان وأعلاه قيمة، وفي نظرة للقضايا القومية المشتعلة حالياً لا تدع فرصة في تغليب العامل الديني على غيره، مثل القضية الفلسطينية وقضية كشمير وصراعات المسلمين والهندوس في الهند والألبان في كوسوفو... الخ.

[١٤] المصدر نفسه، ص ٢٢-٢٤.

٣- الأرض: وتعد من العوامل الرئيسة في تكوين القومية في كل الأحوال، فمشكلة الأرض من أعقد المشكلات في الصراعات القومية وسبباً رئيساً في تفجرها، فالأمة التي تفقد الأرض تفقد كيانها شيئاً فشيئاً.

٤- العرق: وهي من العوامل الرئيسة المكونة للقومية، فلاشك إن أمةً مثل السود في أمريكا لا يجمعهم إلا لون البشرة، وبالتالي فإن هذا العامل يمكن أن يضاف إلى العوامل الأخرى قوة، فالسود في أمريكا لا يجمعهم في الغالب إلا لون البشرة.

٥- التاريخ: وهي من العوامل الأساسية المكونة للقومية، ويلجأ دعاة القومية إلى كتابة التاريخ القومي، والتفكير بأمجاد الماضي لتوحيد الأمة في الحاضر وخلق الشعور المشترك بوحدة المصير في المستقبل.

٦- العادات والتقاليد: وهي من الأمور المهمة التي تضيف لوناً خاصاً لأي قومية وتعطيها التميز والشخصية.

وهناك عوامل أخرى ذات أهمية تذكر أو جانبية التأثير على النشأة القومية مثل إرادة الحياة المشتركة ووحدة المصالح الاقتصادية والمدنية والفكرية، ووحدة الآمال والآلام والوحدة الثقافية والإرادة الحرة[١٥].

أما نشوء القوميات فانه تعزى إلى جملة من المسببات يمكن إيجازها على النحو الآتي[١٦]:-

١- وجود القومية نتيجة لعامل العزلة والتحول في الميول للجماعة، لاسيما إذ كانت تحتل منطقة معينة من الدولة، عندئذ فإنها تكسب الشعور بالعزلة، الأمر الذي يدفعها بتكوين دولة خاصة بها، وأمثلتها كجماعات الباسك في أسبانيا.

---

[١٥] مجيد حميد عارف، انثوغرافيا شعوب العالم، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٨٠-٨١، وقارن مع صباح محمود وآخرون، الجغرافية السياسية، مكان النشر بلا، دار النشر بلا، د.ت، ص ٧٧.

[١٦] للتفصيل ينظر: محمد محمود إبراهيم الديب، الجغرافية السياسية، أسس وتطبيقات، القاهرة، المكتبة الفنية الحديثة، ١٩٧٣، ص ٢٠٣، وكذلك محمد متولي ومحمود أبو العلا، الجغرافية السياسية، الكتاب الأول، القاهرة، المطبعة الفنية، د.ت، ص ١٠٧-١٠٨، وكذلك عبد الرزاق عباس حسين، الجغرافية السياسية مع التركيز على المفاهيم الجيوبولتيكية، بغداد، مطبعة اسعد، ١٩٧٦، ص ١٧٦-١٧٧.

٢- ظهور القومية نتيجة الجمع الاصطناعي لعدة قبائل أو قوميات مختلفة من قبل المستعمر في وحدات إدارية، أو برسم الحدود السياسية بشكل يقسم القومية الواحدة بين دولتين أو أكثر، وأمثلتها قضية الطوارق المنتشرة في مالي والنيجر وليبيا والجزائر(١٧).

٣- بروز القومية نتيجة لموجات الغزو التي تعرضت لها الدولة، كالقومية الألمانية في الألزاس.

٤- ظهور القومية من بقايا الشعوب التي تعيش في بلادها نفسها دون أن تزاحمها عناصر أخرى، وأدى نزول عناصر جديدة في البلاد تمتاز بكثرة عددها، مما جعل العناصر القديمة تنزوي في أماكن معينة تعزلها عن العناصر الجديدة الغالبة، وأمثلتها الاستراليين الأصليين في استراليا والهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية.

٥- نزوح جماعة بشرية من منطقة كانت تعيش فيها إلى منطقة أخرى، وكان عددها قليلاً، مما خلق فيها أقلية قومية، وأمثلتها الأقلية التركمانية في العراق.

ثالثاً: نظريات تفسير نشأة وتكوين القوميات:-

تشترك ثمة نظريات في تفسير نشأة وتكوين القوميات تقف في مقدمتها:

١- النظرية الألمانية:

تنادي هذه النظرية بان العرق واللغة هي العوامل الرئيسة المكونة للقومية مع الادعاء بوحدة العرق الاري الذي ينتسبون إليه حسب مدعاهم.

ومن الذين تبنوا هذه النظرية وكانت ركائز لهم هيردر (١٧٤٢-١٨٠٣) وفيخته (١٧٦٢-١٨١٤).

---

(١٧) عبد السلام إبراهيم وسعد ناجي، الأمن القومي العربي ودول الجوار الجغرافي، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٩، ص ٥٩.

ولقد كان لآراء هيردر وفيخته في شأن أهمية اللغة أثر عظيم في بعث الروح القومية للألمان. ودفعت كثير من المفكرين إلى الاهتمام بالبحوث والدراسات اللغوية والاجتماعية والسياسية والقومية.

ولعل الألمان أول من استفاد من هذه النزعة القومية، وكانت نتيجة ذلك الوحدة التي أدت أن تكون ألمانيا الآن إحدى الأقطاب الثلاثة اقتصادياً بعد أمريكا واليابان.

كما أضاف البعض إلى العرق ووحدة اللغة ووحدة الجغرافيا الطبيعية، ومن هذا المنظور يرى جيسبي مازيني إن كلاً من جبال الألب والبحر المتوسط يشكلان حدود الأمة الإيطالية. وكذلك اللغة فحيثما كانت الإيطالية لغة الحديث يكون وطن الشعب الإيطالي(١٨).

ومع كل هذا فإن النظرية الألمانية عرضة إلى انتقادات عدة، أخذت شكلها في اتجاهين رئيسين فبعضهما يستند إلى وقائع تاريخية، وبعضها الاخر يستند إلى ملاحظات نظرية(١٩).

الأولى: إن هناك دولاً تضم أناساً يختلفون في لغاتهم مثل سويسرا وبلجيكا، وهناك دول انفصلت عن بعضها البعض، على الرغم من وحدة لغاتها مثل أمريكا الشمالية والجنوبية، الأمر الذي يدل على إن القومية لا ترتبط باللغة.

الثانية: إن العاطفة والمشيئة شيئان أهم من اللغة لأنها تؤثر في تكوين الأمة أكثر من اللغة، فاللغة عاملاً ثانوياً وليس عاملاً أصيلاً.

٢- النظرية الفرنسية:

تنادي هذه النظرية بان الإرادة والرغبة في العيش المشترك داخل الحدود الطبيعية هي أساس القومية.

ومن أبرز رواد النظرية المؤرخ الفرنسي المعروف دي كولانج وأرنست رينان، وجاءت هذه النظرية كرد للنظرية الألمانية ونتيجة لتضارب المصالح بين الألمان والفرنسيين لأن سياسة الفرنسيين ترمي إلى التوسع في الشمال حتى نهر الراين لغرض الاحتفاظ بإقليم

---

(١٨) إدوارد مكنال بيرنز، أفكار في صراع النظريات السياسية في العالم المعاصر، دار النشر بلا، د.ت، ص ٣٤٩.

(١٩) ساطع الحصري، الأعمال القومية لساطع الحصري، سلسلة التراث القومي، القسم الثاني، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ١٨٢٦-١٨٢٧.

الألزاس الناطق بالألمانية، وهو ما استولت عليه فرنسا في عهد لويس الرابع عشر وضمته بموجب معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨ المشهورة.

يقول (دي كولانج) في الاحتجاج لصحة نظرياتهم، إن القومية لا تتعين باللغة، بل إنها تتعين بالرغبة والمشيئة ، فالعدالة تقضي بمراعاة الألزاسيين، وتحقيق رغباتهم في هذا المضمار[٢٠].

ويرى أرنست رينان في تعليله على هذه النظرية بان التاريخ المشترك والتراث والعيش المشترك والآمال المشتركة تؤدي إلى خلق وتطوير الإرادة المشتركة للحياة معاً وتكوين أمة واحدة، إلا إن ما يؤخذ على هذه النظرية أموراً كثيرة منهم[٢١]:-

١- الإرادة قد لا تكون واعية، وتخضع للكثير من العوامل.
٢- الإرادة نتيجة وليس سبباً في إيجاد الأمة.
٣- الإرادة نظرية منحازة ناتجة عن الدفاع عن مصالح سياسية معينة وليست تحليلاً أكاديمياً مجرداً موضوعياً.
٤- الإرادة ليست ثابتة، وقد تتغير بالمتغيرات والمصالح السياسية والاقتصادية.. وهكذا.

٣- **النظرية الماركسية والاشتراكية (النظرية الاقتصادية):**

تأتي نظرية ماركس في إطار النظريات التي تقوم على أساس إن المصالح الاقتصادية والطبقية هي العامل الأساس في تكوين الأمة، وبالتالي تزول الصراعات والفوارق بجميع أشكالها التي تعتمد على اللون أو اللغة أو الجنس والعرق.. الخ.

ويرى ماركس وانجلز الصراعات القومية مظهراً من مظاهر الصراع الطبقي، أما الصراعات القومية المحضة فكانا يقولان عنها حثالات التاريخ لأنها تصنع تطور نفسها ضد تطور القوى المنتجة[٢٢] ولعل المانيفستو الشيوعي لم يكن مخطئاً حينما قال الشيوعية لا تؤمن

---

[٢٠] إدوارد مكنال بيرنز، المصدر السابق، ص ١٠٠.
[٢١] مثنى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.
[٢٢] ليوبولد مرمورا، الأمة والأممية (قضايا وآفاق مفهوم اشتراكي للأمة)، ترجمة ميشيل كيلو، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٣، ص ٢١.

بالقومية، والخلافات القومية في طريقها إلى الزوال، وإن سيطرة الكادحين ستسرع الخطى[٢٣].

وانتقد ماركس وانجلز في جميع كتاباتهما المبدأ القومي ووجوب إزالة القوميات على سطح الأرض، لأنها مجرد اختراعات برجوازية، فالنظريات والأفكار الشيوعية التي أعلنها قادة الفكر الشيوعي وزعماؤه حول القومية قد اصطدمت بواقع الحياة، وهو ما أدى إلى خروج الكثير من المفكرين الشيوعيين على المنهج في محاولات تصحيحية على حسب مدعاهم بغية أن يفهم رفاقهم الماركسيون المسألة القومية كمسألة حاسمة في مجرة التاريخ بجانب الصراع الطبقي، وسميت هذه المحاولات من التقليديين بأنها محاولات تحريفية وإبداعية، وكان أغلب أصحاب تلك المحاولات من دول العالم الثالث[٢٤]، لأنها تدرك المشكلة بسبب التجربة التاريخية الخاصة بها، واعتمد هؤلاء آرائهم بأنها إعادة إنتاج صلاحية الماركسية وتوسيع أبعادها وتحويلها إلى مدرسة مواكبة للمتغيرات.

٤- النظرية الدينية:

تنادي هذه النظرية بان الدين والعقيدة أقوى عامل في تكوين الأمم، إذ يشكل وحدة الفكر والمعتقد، ووحدة الشعور والوجدان، ووحدة الهدف والغاية، ووحدة الثقافة والتشريع، ووحدة الولاء والبراء.

وتحت تأثير هذه النظريات قامت الدعوات المختلفة لتشكل الأمم على أساس ديني، وأمثلتها الوحدة الدينية العالمية عند (كانت)[٢٥] ودعوة اليهود لجمع الشعب اليهودي وتكوين أمة ودولة دينية مثلما قامت فلسطين فعلاً.

وكثيراً ما كان العامل الديني منبع الإحساس القومي، وظهر هذا الأمر كثيراً في يوغسلافيا، فالصرب والكروات والبوسنيون أصل عرقي واحد وبيئة واحدة، ولغة واحدة، ولكن الصرب أرثونكس، والكروات كاثوليك. والبوسنيون مسلمون، ومن ثم فإنهم ينظرون

---

[٢٣] عبد الرحمن البزاز، هذه قوميتنا، القاهرة، دار القلم، د.ت، ص ٣٦.

[٢٤] مثنى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٣٠.

[٢٥] محمود عاطف البنا، النظم السياسية، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٤، ص ١٩.

إلى أنفسهم كثلاث أمم مختلفة، وقد حصل فيما بينهم تلك الحروب الطاحنة والمجازر الدامية في البلقان المعروفة التي استهدفت في التسعينات الإبادة العرقية للمسلمين[٢٦].

١- أما الإسلام فانه يفرق بين الشعوب أو الشعب وبين الأمة ولا يعدهما نقيض بعض، بل يكمل بعضها البعض، كما قوله تعالى ((يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم))[٢٧] أو ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأن ربكم فاعبدون))[٢٨].

وفي مقابل النظريات الأربعة التي تطرقت فيها عن تفسير القوميات، فإن هناك نظريات وأفكار تناولت الأشكال نفسها بالتحليل ولكن من وجهة نظر عنصرية، وأمثلتها أفكار أرسطو التي تنبع من مفهوم ومنهج (الحتمية الجغرافي) الذي يرى خضوع البشر في قابلياته وتطوره الاجتماعي والحضاري لعوامل البيئة والمناخ الجغرافي[٢٩] وأفكار بودان ومونتسكيو في كتابة روح القوانين، وقد ظلت تلك الأفكار العنصرية عالقة في الأذهان حتى القرن العشرين.

كما كان لظهور نظرية داروين دور كبير في تأكيد هذه المفاهيم، ووقع في الخطأ نفسه فلاسفة مشهورون أمثال ديفيد هيوم وادوارد لونك والأمريكي مورفن، ونوت، وكليدون وبلومناخ وبافون[٣٠].

ولعل النظريات العنصرية الحديثة لجوزيف آرثر دي جوبينيو (١٨١٦-١٨٨٢) وهوستون ستيوارت (١٨٥٥-١٩٢٧) والفيلسوف الألماني هاينرخ فون تريتشكه هي الأكثر عنصرية على الإطلاق.

---

[٢٦] للتفصيل ينظر: بروملية بوديني، الاثنوس والتاريخ، موسكو، دار التقدم، ١٩٩٨، ص ٢١، وكذلك عبد العزيز المهني، البوسنة والهرسك، القضية والمأساة، الرياض، دار الهلال، ١٩٩٢، ص ٧٥ وما بعدها.

[٢٧] سورة الحجرات، الآية ١٣.

[٢٨] سورة الأنبياء، الآية ٩٢.

[٢٩] فتحي أبو عيانة، دراسات في الجغرافية البشرية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٤.

[٣٠] قيس النوري، مدارس الانثروبولوجيا، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٧٦-٨٠.

وكانت هذه النظريات تروج وتنتشر وتدعم وتوفر الغطاء لعمليات الجشع والمعاملة اللاإنسانية للعمال السود، فضلاً عن تبرير تجارة الرقيق، حتى وصل الأمر إلى تغليف هذه النظريات بغلاف الدين[٣١].

وفي رد عليها اجتمع لفيف من العلماء والمختصين في علوم الوراثة والأحياء والنفس والاجتماع والانثروبولوجيا في مقر اليونسكو في باريس يشرحون فيه بطلان النظريات العنصرية، وأشتمل البيان على عدة نقاط[٣٢]:-

١- إن الناس جميعاً ينتمون إلى الجنس البشري وينحدرون من أصل واحد، على الرغم من وجود جدل حول زمن كيفية تفرع الجماعات البشرية من الأصل الواحد.
٢- الفوارق الموجودة بين الجماعات البشرية تعزى إلى التكوين الوراثي، كما يعزى البعض الآخر للبيئة.
٣- ليس من الضروري أن تكون الجماعات الدينية والوطنية والثقافية مطابقة لجماعات عرقية.
٤- الفوارق الموجودة بين الجماعات البشرية لا تقدم أي دعم للأفكار الشائعة عن أي تفوق أو انحطاط عام.

المبحث الثاني: الدولة القومية والدولة المتعددة القوميات

تؤكد الأحداث والوقائع الدولية أن الدولة القومية الحديثة الكاملة السيادة لم تكن معروفة قبل أربعة قرون، على الرغم من وجود مؤشرات تدلل ظهور الدولة كنظام سياسي أبعد منها تاريخياً.

وللوقوف حول هذا الموضوع ينبغي معرفة الدولة القومية وكيف كانت وأصبحت عبر التاريخ ، والدولة المتعددة القوميات التي كان من جملة ما يمكن أن تضم الأقليات القومية.

---

[٣١] ليتون هنري زيغ، السياسة العرقية في بريطانيا، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٣، ص ١٨-١٩.

[٣٢] للتفصيل ينظر: عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠.

أولاً- الدولة القومية Nation-State:

تعد الدولة القومية كيان سياسي فاعل ومؤثر في العلاقات الدولية لأنها صاحبة السيادة، ولاسيما وحدتها وعدم قابليتها للتجزئة ولا توجد سلطة أعلى منها(٣٣)، حتى إن القانون الدولي لا يعترف بوجود سلطة يمكن أن تكون بديلاً عنها.

أن مفهوم الدولة القومية هي الدولة التي يعيش فيها شعب من قومية واحدة خالية من الأقليات والانقسامات وموحدة حضارياً وذات سيادة(٣٤)، ويندر أن نجد مثل هذه الدولة، وقليل جداً من الدولة ينطبق عليها الوصف، بأنها دولة قومية لعدم تجانسها قومياً، فالدول خليط من تجمعات تاريخية كان توحدها بفعل التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاصلة فيها(٣٥).

كما تعرف الدولة القومية بأنها وحدة سياسية تتضمن إقليماً جغرافياً محدد تحديداً دقيقاً يسكنها مجموعة من السكان منظمين أنفسهم داخلياً بما يضمن لهم نوعاً من القوة، ويعد السكان أنفسهم أمة لهم مشاعر قومية موحدة(٣٦).

وقد اختلف الكتاب حول الحقبة التي ظهرت فيها الدولة القومية، فبعضهم يرجعها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(٣٧)، والبعض الآخر يرجعها إلى حقبة زمنية أقدم من عصر النهضة الأوربية(٣٨).

ويبدو في الواقع أن قبول فكرة الدولة القومية ترجع إلى فلسفة هيجل (١٧٨٠-١٨٣١)(٣٩)، إذ تمثل النسق الهام للفكرة، ودافعاً للدولة الأوربية للتخلص من

---

(٣٣) منذر الشاوي، نظرية السيادة، بغداد، جامعة بغداد، منشورات العدالة، ٢٠٠٢، ص ٣٣.

(٣٤) عبد الرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٣٥) احمد عباس البديع، الأقليات القومية وأزمة السلام العالمي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٤، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٣، ص ١٦٦.

(36) De, Blij. Harm J, man shaped the Earth: Atopical Geography, Publishing ,California , 1994, P. 246.

(٣٧) بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(٣٨) فرحي ميلاد، موجز تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، الطبعة الأولى، ليبيا، منشورات جامعة قار يونس، ١٩٩٨، ص ٢٣.

(٣٩) إسماعيل علي سعد، علم السياسة، دراسات نظرية وميدانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٢١.

السيطرة الأجنبية، فضلاً عن إنها وسيلة لزيادة العقلانية في تنظيم المجتمع، ووسيلة لتحقيق عقلانية وحتمية التاريخ.

أن فكرة الدولة القومية هي نتاج أوربي يرجعه البعض الى معاهدة ويستفاليا الشهيرة عام ١٦٤٨[٤٠]، التي أنهت الحروب الدينية في أوربا واقترحت قواعد التعامل بين الدول الأوربية المكونة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي نتج عنها إقرار مبدأ المساواة ومبدأ الاستقلال وقيام مجتمع دولي لأول مرة في التاريخ[٤١].

وعلى الرغم من إن المعاهدة لم تنه الإمبراطوريات الأخرى (العثمانية والنمساوية والهنغارية) القائمة آنذاك، كما لم تمنع من قيام إمبراطورية جديدة خاصة خارج أوربا وأمثلتها الإمبراطورية الفرنسية-البريطانية[٤٢]، إلا إن المعاهدة اقترحت فكرة الدولة القومية الذي هيأ المجال أمام ظهور النظام الدولي الأوربي[٤٣]، حتى أصبحت (الدولة) هي الوحدة الرئيسة في التنظيم الدولي المعاصر، فعصبة الأمم ثم من بعدها الأمم المتحدة لا تقبل في عضويتها الكاملة إلا بالمفهوم الذي عرفناه[٤٤].

أما العوامل التي أدت إلى نشوء الدولة القومية، فيمكن إجمالها على النحو الآتي[٤٥]:-

١- الانحلال الإمبريالي، وانفصال المستعمرات واستقلالها.

٢- الأوضاع الجيوبولتيكية المتميزة التي أقيمت عليها الدولة القومية.

٣- علاقة الدولة القومية بجبهات القوة العالمية.

---

(٤٠) إسماعيل صبري مقلد، نظريات السياسة الدولية، الطبعة الثانية، الكويت، منشورات دار السلاسل، ١٩٨٧، ص ١٥٥.

(٤١) عصام العطية، القانون الدولي العام، الطبعة الخامسة، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٩٢، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤٢) بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(٤٣) مازن الرمضاني، القوى الدولية الجديدة والعرب والنظام الدولي الجديد عن كتاب النظام الدولي الجديد-آراء ومواقف، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٢٤٣.

(٤٤) سعد الدين إبراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص ٤٣-٤٤.

(٤٥) عبد الرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص ٤٨.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الدولة القومية على البدء بالسير خطوة فأخرى نحو دولة قومية متكاملة متلافية بذلك كل نقاط الضعف السابقة، حتى كانت الجيوش وطنية وجعل التعليم مجانياً، وتوحيد الأوزان والمقاييس وقوانين الأعمال وظهور الإعلام والأناشيد الوطنية لبعض الدول[٤٦].

وللوقوف على المراحل التي مرت بها الدولة القومية، يمكن الاشارة الى المراحل الآتية:-

المرحلة الأولى: الدولة القومية قبل مرحلة الحرب الباردة:-

تبدأ هذه المرحلة من عقد معاهدة ويستفاليا للسلام عام ١٦٤٨ وتنتهي بقيام الحرب العالمية الثانية وتعرف بالمرحلة التقليدية ومن سماتها:-

- تعد الدول الفاعل الوحيد في العلاقات الدولية، وكان لكل من إنكلترا، فرنسا، بروسيا (ألمانيا بعد ذلك)، مملكة هابسبورج (النمسا) وأخيراً روسيا مكانة متميزة خلال تلك المرحلة، كما كانت أوربا مركز الثقل السياسي[٤٧].
- انخفاض عدد الدول، فالإمبراطورية الجرمانية التي تتألف من (٩٠٠) دولة انخفض عددها إلى (٣٥٥) دولة[٤٨].

توزيع الدول إلى مجموعتين، دول كبرى وأخرى صغرى[٤٩]، والتي اتسمت علاقات الدول الكبرى ببعدين أساسيين، أولهما احترام مبدأ السيادة، وثانيهما التنافس على الدول الصغرى[٥٠].

---

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٦، وكذلك هانس كهن، المصدر السابق، ص ٧.

(٤٧) حسن حمدان العلكيم، العرب وأمريكا والنظام الدولي الجديد، المجلة العربية للدراسات الدولية، العدد ٣/٤، الإمارات العربية، المعهد العربي للدراسات الدولية، ١٩٩٣، ص ٧.

(٤٨) أنيس. ل. كلود، النظام الدولي والسلام العالمي، ترجمة عبد الله العريان، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٤، ص ٤٣.

(٤٩) حامد ربيع، الحوار العربي الأوربي واستراتيجية التعامل مع الدول الكبرى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ١٠٠.

(٥٠) مازن الرمضاني، المصدر السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

- ولادة الحلف المقدس أو المحفل الأوربي المكون من بريطانيا وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا في كونجرس فينا عام ١٨١٥ وقد تم على عاتقه المسؤولية وحق التدخل في الشؤون الداخلية.

وباستخدام حق التدخل، أخمدت القوى الكبرى، الثورات التحررية في إيطاليا (١٨٢٠)، أسبانيا (١٨٢٣) والانتفاضة في ولاية فالاكيا الرومانية ضد السيطرة التركية (١٨٢١)، والثورات في كثير من الدول الأوربية الصغرى ما بين عامي (١٨٣٠-١٨٤٨).

ومع كل هذا فإن جهود الحلف المقدس لمنع انتصار النظام البرلماني التحرري في أوربا أصبحت عديمة الجدوى أخيراً[٥١]، كما شهدت تلك المرحلة سمات ومعالم اخرى هي:-

- إقامة التكتلات والأحلاف المتوازنة، فالتوازن الدولي لم يكن عالمياً، بل كان ذا نطاق أوربي[٥٢].
- السماح للدولة العثمانية بالانضمام إلى عضوية المجتمع الدولي عام ١٨٥٦ بسبب حرب القرم، فضلاً عن ولادة المنظمات الدولية كاتحاد البرق العالمي عام ١٨٦٥ والاتحاد العام للبريد عام ١٨٧٤[٥٣].
- إقامة عدة مؤتمرات بمثابة وقفات أوربية للابقاء على التوازن الدولي والاتفاق على القواعد التي تحكم التنافس الاستعماري ابتداءً من تصفية الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في البلقان والصرب، وانتهاءً بتقطيع أوصال أفريقيا واقتسامها بين الدول الاستعمارية وأمثلتها مؤتمر باريس ١٨٥٦، مؤتمر لندن ١٨٧١، ومؤتمرات برلين ١٨٧٨، ١٨٨٤، ١٩٨٥، ثم اتفاقات لاهاي لسنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ التي تضمنت قواعد الحرب والحياد، وكيفية تسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

---

[٥١] سحر الأبحر، السياسة الدولية بعد الحرب الباردة، قراءات استراتيجية، العدد الثامن، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام، ٢٠٠١، ص ٣.
[٥٢] حامد ربيع، المصدر السابق، ص ١٠٠.
[٥٣] محمد سامي عبد الحميد، قانون المنظمات الدولية، الطبعة الثانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩، ص ١٤.

ومع كل هذه السمات، شهد العالم الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أفـرزت بدورها سمات جديدة بعد نهايتها كولادة عصبة الأمم في عام ١٩٢٠، كما إن الأسرة الدوليـة امتد نطاقها إلى دول خارج القارة الأوربية كاليابان والولايات المتحدة(٥٤)، فضلاً عـن ولادة نظام الأمن الجماعي بعد إخفاق نظام توازن القوى في الحيلولة دون اندلاع الحرب العالميـة الأولى(٥٥).

كما إن السلوك العدواني للقوى العظمى الجماعية، ولاسيما ألمانيا والاتحاد السوفيتي والذي عبر عن نفسه في اتفاقية مولوتوف رينتروب الذي يقسم بروتوكولها الـسري منـاطق النفوذ وسط أوربا، والذي أدى إلى العدوان ضد بولندا ١٩٣٩ واحـتلال الأقـاليم الرومانيـة بيساربيا والشمال بوكوفينا ١٩٤٠ والذي أقر فينا بين ألمانيا وإيطاليا ١٩٤٠ والذي بمقتـضاه احتلت المجر ترانسلفانيا، وبهذا لجأت القوى العظمى إلى الاعتداء الواضح والـصريح علـى الدول الصغرى، الأمر الذي أدى بدوره إلـى انـدلاع الحـرب العالميـة الثانيـة (١٩٣٩-١٩٤٥)(٥٦)، وكان من نتيجتها انتصار الحلفاء وهزيمـة المحـور، ولاسـيما بعـد ضـرب هيروشيما ونكازاكي بالقنابل الذرية عام ١٩٤٥.

المرحلة الثانية: الدولة القومية في مرحلة الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١):

وهي المرحلة التي بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية بخروج القـوى التقليديـة وتربع كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على قمة الهرم السياسي، وبـذلك أصـبح النظام الدولي نظاماً ثنائي القطبية، كما لم تعد أوربا تشكل المركز بالنسبة إلى العـالم، وقـد أتسمت بالآتي:-

- انقسام العالم إلى معسكرين اشتراكي ورأسمالي تقود كل منهما دولة عظمـى هـي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، إذ تملك كل منهما من القوة العسكرية ما يفـوق تلك التي لدى حلفائها مجتمعين(٥٧).

(٥٤) حامد ربيع، المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٥٥) روبرت كانتور، السياسة الدولية المعاصرة، ترجمة احمد الظاهر، بلا، مركز الكتب الأردني، ١٩٨٩، ص ٢٠٥.
(٥٦) سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٤.
(٥٧) عبد المنعم سعيد، العلاقات السوفييتية الأمريكية بين الصراع الاستراتيجي والتعاون من اجل الحد من التسلح، مجلة السياسة الدولية، العدد ٨٣، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٦، ص ٢٤-٢٥.

- تصاعد أخطار سباق التسلح بفعل اشتداد حدة الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٥٦) التي امتازت بكل أسباب الصراع العقائدي والتوتر السياسي والحرب النفسية والضغوط الاقتصادية[٥٨].
- تكوين الأحلاف وأمثلتها حلف شمال الأطلسي (الناتو) ١٩٤٩، وحلف وارشو ١٩٥٣.
- ولادة قطب ثالث في السياسة الدولية يعرف بحركة عدم الانحياز.
- التحرر من الاستعمار[٥٩].
- تزايد أهمية الدول في نظر القطبين الأعظم، حتى أصبحت مسرحاً للتنافس الدولي[٦٠].
- بروز سياسة التعايش السلمي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (١٩٥٧-١٩٦٩) لأدراك الطرفين عدم جدوى المجابهة العسكرية المباشرة[٦١].
- بروز مرحلة الوفاق الدولي (١٩٦٩-١٩٨٠) التي تعني التخفيف من حدة التوتر بين القوتين العظيمتين[٦٢].
- بروز اتجاهات استقلالية إلى حد ما بين المعسكرين كرومانيا في المعسكر الشيوعي وفرنسا في المعسكر الرأسمالي[٦٣].
- ولادة مؤتمر الأمن والتعاون (١٩٧٥) أو بما يعرف بمؤتمر هلسنكي[٦٤] وقد ظلت الاتفاقية تعمل خمسة عشر عاماً طالبت العالم بإحداث متغيرات.

---

(٥٨) سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٤.

(٥٩) رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين-تطور الأحداث لفترة ما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥، الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨٣، ص ٩.

(٦٠) إسماعيل صبري المقلد، الاستراتيجية والسياسة الدولية، المفاهيم والحقائق الأساسية، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥، ص ٥٥.

(٦١) جمال عبد الملك، الاستراتيجية في العصر الذري من الردع إلى حرب النجوم، الطبعة الثانية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨١، ص ٣٩.

(٦٢) حسن البزاز، القوى العظمى بين شريعة الغاب وصراع القبيلة، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨، ص ٢٣.

(٦٣) دانيال كولار، العلاقات الدولية، ترجمة خضير خضر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥، ص ٩١-٩٢.

(٦٤) محمد الدوري، النظام الدولي الجديد والقانون الدولي، عن كتاب النظام الدولي الجديد-آراء ومواقف، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٥٠ وما بعدها.

- تصاعد بعض الدول الاقتصادية ذات التأثير الدولي المنافس للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كاليابان وألمانيا.
- تراجع حالة الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى حالة الحرب الباردة الثانية (١٩٧٩-١٩٨٥) بسبب التدخل السوفييتي في أفغانستان ١٩٧٩، ونصب صواريخ (أس أس-٢٠) في أوربا الشرقية[٦٥]، فضلاً عن إعلان ريغان (مبادرة الدفاع الاستراتيجي IDC)[٦٦]، ولكن مع وصول غورباتشوف للسلطة في الاتحاد السوفيتي ١٩٨٥ عادت مرحلة الحرب الباردة الثانية إلى مرحلة الوفاق من جديد.
- ولادة مؤتمر باريس ١٩٩٠، وكان انعقاده تكريساً للأمن الجديد للنظام الدولي على النطاق العالمي، حتى كان يعرف بـ (عهد المتغيرات العميقة والآمال التاريخية)[٦٧].

المرحلة الثالثة: الدولة القومية بعد مرحلة الحرب الباردة:

تتصف هذه المرحلة بسمات ومعالم تختلف عن تلك المراحل التي سبقتها، يمكن إجمالها على النحو الآتي:-

- التأكيد المطلق والحاسم على انتهاء الحرب الباردة وانتهاء دور الاستقطاب الثنائي (الاتحاد السوفيتي) الذي كان يمثل الاتجاه المنافس والمعارض للولايات المتحدة الأمريكية[٦٨].
- الانفراد الأمريكي في أمور السياسة الدولية.
- انهيار الاتحاد السوفيتي والتحولات في أوربا الشرقية.
- ولادة الثورة الصناعية الثالثة.
- التكتلات الاقتصادية العالمية.
- عالمية الاتصال.

---

(٦٥) عبد القادر محمد فهمي، الصراع الدولي وانعكاساته على الصراعات الإقليمية، الموصل، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص ١١٦.
(٦٦) الفن وهايدي توفلر، الحرب الباردة المضادة، الحفاظ على الحياة في القرن المقبل، تعريب صلاح عبد الله، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٩٥، ص ١١٣.
(٦٧) محمد الدوري، المصدر السابق، ص ٢٧.
(٦٨) ليث عبد الحسن الزبيدي، النفط العربي والنظام العالمي الجديد، مجلة آفاق عربية، العدد ٥، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٥٨.

- تضاؤل دول العالم الثالث[٦٩].
- اتساع الفجوة بين عالم الشمال والجنوب.
- تراجع الصراع الإيديولوجي ونمو الصراع العلمي.
- إضعاف دور الأمم المتحدة في اتخاذ القرارات بشأن الدول التي تقف عائقاً أمام القوى الكبرى.
- تطبيق الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات القومية أو الأقليات الأخرى، لكن تحت التهديد والعقوبات والسيطرة الأجنبية، وهي ما حدث فعلاً في يوغسلافيا[٧٠].
- العمل على إزالة أسلحة الدمار الشامل بطريقة ازدواجية.
- الإعلان على الحرب ضد الإرهاب وتسخير كل الامكانات والقدرات لكسبها، وعلى أساس ذلك تم غزو أفغانستان والعراق، ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١.
- تجميع الحلفاء على أساس مبدأ معنا أو ضدنا، والتحكم بالأمم المتحدة ومجلس أمنها.
- تبني سياسة الضربة الاستباقية أو الوقائية ضد مراكز الإرهاب المفترضة.
- الإعلان الشهير للقوى الكبرى عن وجود محور الشر والتعهد بتصفيته.

واستناداً لما سبق يمكن القول إن بزوغ الدولة القومية بشكلها الحالي لم يكن وليدة إحداث آنية بل عبر مخاض وصراع، نتج عنه هذا الانتقال ووفق مراحل كان الهدف في النهاية الانقلاب على كل ما من شأنه أن يحد من حرية الإنسان، وكان تطور الدولة إلى شكلها الحالي يدور في فلك واحد، وهو الإنسان الذي يسعى لهذا الانتقال به من دولة عهد العصور المظلمة والسلطات المستبدة إلى دولة فيها الإنسان هو المسير للأمور، ولا دولة من

---

[٦٩] مازن إسماعيل الرمضاني، النظام العقيدي والنظام الدولي الجديد، آفاق عربية، العدد ١٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١، ص ٢٩-٣٠.

[٧٠] سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٦.

دون شعب على أن يحكم هذا الشعب قانون لا يحد من حريته بقدر ما يحفظ لـه حقـه فـي العيش والعمل والانتقال ويؤمن له الحماية في ظل الدولة القومية الحديثة.

ثانياً: الدولة المتعددة القوميات (State of multiful nationalities):

يعد موضوع الدولة المتعددة القوميات في عالمنا الراهن مـن الموضـوعات التـي تعالجها أدبيات العلاقات الدولية على ضوء المقومات الجيوبولتيكية للكيان السياسي الذي يضم خليطاً من الشعوب والقوميات.

إن مشكلة القوميات ومعالجة مطاليبها ومطامحها في الاستقلال والانسلاخ من الدولة الأم، برزت بشكل واضح في مؤتمر السلام بباريس عـام ١٩١٩، الـذي يكـرس هيمنـة المنتصرين في الحرب على حساب المنهزمين والقائم على منطق القوة.

ويبدو إن النظام الدولي لا يسمح في الغالب بانسلاخ القوميات من دولها الأم، لكـن ذلك قد يحدث في الأزمات التي تحدث تغييراً أو تبدلاً في النظام الدولي ولاسيما بعد الحروب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)[٧١] والحـرب البـاردة (١٩٤٧-١٩٩١) أو مرحلة انتهاء الحرب الباردة.

وفي ضوء ذلك فالشعوب المكونة للأمم، أما تكون شعباً بسيطاً يمتاز بعـدم التنـافر الاثنوغرافي، برغم تعدد السلالات في تركيبه، أو شعباً ملتئماً، وهو مكون من عدة شـعوب، ذات لغة وحضارة خاصة بكل منها ولكن ليس فيها من يناوئ الدولة أو يبغي الانفصال عنها، فبريطانيا شعب ملتئم فيه ثلاث قوميات (الإنكليزية والاسكتلندية والويلزية) وهكذا، أما النـوع الثالث من الشعوب فهو الشعب المركب، وهو أخطر الأنواع، ويعبر عن دولـة لـم تنـضج قومياً، ولم تمتزج عناصرها ببعضها، وتتكون من قوميات متعددة يدعم انفـصالها حـواجز اقتصادية واجتماعية[٧٢]، كما كان الحال في جمهورية يوغسلافيا السابقة.

---

[٧١] كاظم هاشم نعمة، العلاقات الدولية، بغداد، شركة أياد للطباعة، ١٩٧٨، ص ٢٨٥-٢٩٨.

[٧٢] للتفصيل ينظر: محمد محمود إبراهيم الديب، المصدر السابق، ص ١٩٨، وكذلك محمد متولي محمود أبو العلا، المصدر السابق، ص ١٠٣.

ووفقاً لهذا الطرح تمتاز الدولة المتعددة القوميات بمظهرين، أما أن تكون ذات قوميات متكافئة فيها تحافظ على توازن الدولة القومي، أو أن تكون هناك أقليات قومية إلى جانب الأغلبية في الدولة[٧٣].

وفي أدبيات العلاقات الدولية، فإن انفجار قضايا القوميات في الدولة المتعددة القوميات تعود إلى عدة عوامل منها انتشار الفكرة القومية في العالم والنظريات القومية التي تدعو إلى استقلال كل شعب وقومية بكيان خاص، وانتشار ثقافة حق الشعوب في تقرير المصير، ورواسب الاستعمار كخلق كيانات دينية جديدة في الكثير من الدول عن طريق التحالف والتبشير أو الحدود السياسية التي رسمها المستعمر، أو حركات التحرر من نير الاستعمار، كل هذه الأمور أدت إلى مطالبة القوميات بحقها في تقرير مصيرها أو المطالبة بالانفصال عن الدولة الام.

وفي ضوء هذه الحقيقة سوف نختار عينات ونماذج من مناطق مختلفة بقدر المعلومات المتاحة حتى تكون الصورة أكثر شمولاً وتكاملاً.

١- المشكلة القومية الابخازية والصراعات العرقية في القوقاز:

تقع ابخازيا على واجهة البحر الأسود في شمال غرب جورجيا، ويقدر سكانها بنحو ٥٢٥,٠٠٠ ألف نسمة، ويجمع سكانها لغة واحدة(لغة القوقاز)، إذ تشكل نسبة ١٨% من سكان ابخازيا وأفرادها يدينون بالإسلام مع أقلية مسيحية، أما مساحتها فهي بنحو ٨٦٠٠كم٢[٧٤].

وتؤكد حقائق التاريخ إن الابخاز يشكلون حتى عام ١٨٦٤ الأغلبية المطلقة، ثم سرعان ما اخذ عددهم في التناقص مقابل زيادة سكان الجورجيون، فالتركيبة العرقية بعد زوال الاتحاد السوفيتي، كانت على النحو الآتي:- الجورجيون ٤٥%، الأرمن ١٩,٤%، الابخاز ١٨%، الروس ١٢%، اليونانيون ٢,٨%، الأوكرانيون ٢,٢%، وبعد حرب

---

[٧٣] ابتسام عبد الزهرة، المصدر السابق، ص ٢١.

[٧٤] محمد رفعت الإمام، جورجيا والأزمة الابخازية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٤٧، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢، ص ١٤١.

الاستقلال الابخازية بين عامي (١٩٩٢-١٩٩٣) ونزوح حوالي ٢٥٠ ألف جورجي عاد الابخاز من جديد يمثلون الأغلبية العددية للإقليم(٧٥).

وعلى الرغم من جورجيا ذات طابع مركزي، وتهيمن عليها الأغلبية الجورجية فقد تم إقصاء الأقلية عن أي مشاركة سياسية وعن أي تمثيل في الحكومة، إذ تتعامل معها بمنطق الإخضاع، وهو ما أدى بها إلى حرب الاستقلال التي قادها الابخاز للحفاظ على وجودهم القومي، إذ يتطلعون فيها إلى الاستقلال التام عن جورجيا، والقبول مرحلياً بصيغة فدرالية للدولة الجورجية، وهي في رأي الكثيرون بان ابخازيا جزء من جورجيا، وإن امتيازاتهم جاءت كسياسة من الدولة السوفيتية التي قسمت جورجيا ثلاثة أقسام، وأوجدت فيها كيانات ثلاث تتمتع بالحكم الذاتي ومنها ابخازياً وأوسيتيا الجنوبية وهو ما دفع بجورجيا إلى إلغاء حكمها الذاتي وضمها إلى دولة جورجيا بعد زوال الاتحاد السوفيتي، لاسيما إن النظرية القومية الجورجية تقسم القوميات إلى نوعين: أصيلة (الجورجيون، الابخاز، الادجار) ودخلاء (داغستان، الأذريين، الأرمن، الأوسيت) وهؤلاء الدخلاء أمامهم خيارات أما الذوبان أو الهجرة، ولما كانت غالبية الجورجيون ارثونكس فإنهم ينظرون إلى الادجار بأنهم جورجيون اعتنقوا الإسلام، ومن ثم فلا حاجة للابقاء على وضع خاص بهم،الأمر الذي لابد من إرسال البعثات التبشيرية لإعادتهم إلى الأمة(٧٦).

إن المشكلة الابخازية القومية والصراعات الموجودة في القوقاز تعد من أهم الأمثلة على كيفية تأثير قضايا القوميات على السياسات والعلاقات الدولية وإعادة رسم التحالفات، إذ يوجد في القوقاز خمس صراعات عرقية رئيسة هي(٧٧):-

- الصراع الأرميني-الأذري حول جيب كاراباخ.
- الصراع الجورجي-الأوسيتي حول أوسيتيا الجنوبية.
- الصراع الأوسيتي-الأنجوشي حول بريجورودني رايون في أوسيتيا الشمالية.

---

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤-١٤٥.

(٧٧) للتفصيل ينظر: تشيتريان فيكن، جدلية الصراعات العرقية ومشاريع النفط في القوقاز، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، د.ت، ص ٧٨ .وكذلك عصمت برهان عبد القادر، جذور وأبعاد الصراع الشيشاني الروسي، الموصل، مكتبة الجبل، ١٩٩٩، ص ٣٣ وما بعدها.

- الصراع الروسي–الشيشاني حول الشيشان.
- الصراع الجورجي–الابخازي حول ابخازيا.

ويمكن تفسير هذه الصراعات المتعددة لسببين هما[٧٨]:-

١- إن هذه الصراعات لم تكن وليدة أحداث آنية، بل قديمة تعود جذورها إلى العشرينات، ولكنها ما وجدت فرصة للاشتعال إلا بعد زوال الاتحاد السوفيتي.

٢- سياسات السوفييت القمعية والتعسفية للقوميات والخرائط العشوائية التي وضعت لتسهيل تحكم الدولة المركزية لغرض المزيد من السيطرة وأمثلتها كوضع إقليم كاراباخ ذي الأغلبية الأرمنية في أذربيجان ووضع ناخيتشفان بين أرمينيا وإيران ويلامس الحدود التركية–كجمهورية حكم ذاتي في أذربيجان، ولم تعط قوميات أخرى أي حكم ذاتي في الاتحاد السوفيتي مثل الطاليش في أذربيجان والأكراد في أرمينيا، وفي النهاية مما أدى إلى تحول هذه الصراعات من محلية إلى إقليمية ودولية، وسرعان ما تتحول إلى نزاعات خارجية عندما تتدخل دولة لصالح أحد الأطراف المتنازعة لحصولها على مواطئ قدم، أو مصالح معينة تحققها، أو دعم القومية التي تنتمي لها مثل دعم الأتراك للأذربيجانيون ضد الأرمن، وتدخل الروس لصالح الأرمن، ووقوف الشيشان مع الابخاز، وهكذا فإن انفجارمثل هذه القضايا يمكن أن يكون مصدر تحدٍ للسلم والأمن.

٢- القضية القومية الصومالية:

تقع الصومال في شرق أفريقيا، يحدها من الشمال والشرق والجنوب المحيط الهندي، كينيا وإثيوبيا من الغرب، ومن جهة الشمال الغربي جيبوتي، أما مساحتها أكثر من ٩,١٠,٠٠٠ مليون نسمة وعاصمتها مقديشو، وتمثل صادراتها الموز والمواشي والجلود[٧٩].

---

(٧٨) للتفصيل ينظر: مثنى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥ وكذلك تشتريان فيكن، المصدر السابق، ص ١٤، وكذلك زبيقنو بريجنسكي، الفوضى-الاضطراب العالمي عند مشارف القرن الحادي والعشرين، ترجمة نرجس علي فاضل، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص ٧٥، وقارن مع محمد الأطرش، حول الأزمة الاقتصادية الدولية الراهنة، عن كتاب العرب وتحديات النظام العالمي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٣٠.

(٧٩) بولا محسن، الجغرافية، الموسوعة الثقافية العامة، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٩، ص ١٥٧.

ويمتلك الشعب الصومالي لغة واحدة وأصول عرقية متشابهة، وأفراده يدينون بالإسلام مع أقلية مسيحية ويعيشون على أرض خاصة بهم، إذ يملكون كل مقومات القومية الواحدة التي لابد أن تكون مجتمعةً واحدةً، ولكنه تم تقسيمه إلى خمسة أقسام وكيانات سياسية، الأمر الذي تم تجسيده في العلم الصومالي الذي يحتوي على نجمة من خمسة أضلاع لتدل على أجزاء الشعب الصومالي المتناثرة في كل من الصومال وإثيوبيا وجيبوتي وكينيا(٨٠).

إن القومية الصومالية لم تنبعث كرد فعل لمقاومة الحكم الاستعماري، أو نتيجة التأثر بآراء الغرب، ولكنها نبعت أساساً من طبيعة الشعب الصومالي الذي لم يفتت من وحدته، نتيجة تجزئة الشعب بين دول استعمارية متعددة(٨١)، فالصومال منذ قرابة نصف قرن يقسم على النحو الآتي(٨٢):-

- استمرار السيطرة البريطانية على الصومال الشمالي.
- استمرار السيطرة الإيطالية على الصومال الجنوبي، رغم توحيد الشطرين الشمالي والجنوبي عام ١٩٦٠.
- استمرار السيطرة الفرنسية على إقليم عفار وعيسى (الصومال الفرنسي/جيبوتي).
- وجود جزء من الصومال ضمن المستعمرة البريطانية لكينيا.
- استمرار السيطرة الإثيوبية على الصومال الغربي (هرر وأوغادين وما حولها) وهكذا أصبحت أجزاءً من الأراضي الصومالية تحت الهيمنة الإثيوبية.

وتبعاً لذلك، تعد كل من إثيوبيا وكينيا هذه الأراضي جزءً متمماً لدولتها لا يمكن التفريط به، ولا إعطاءه حق تقرير المصير، الأمر الذي يرفضه الصوماليون بشدة.

(٨٠) نبيه الأصبهاني، المواجهات المسلحة الإثيوبية الصومالية، مجلة السياسة الدولية، العدد ٥٤، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٨، ص ٢٢.

(٨١) توفال، القومية الصومالية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٦٥، ص ١٦٤.

(٨٢) عبد السلام إبراهيم بغدادي، المصدر السابق، ص ١٦٥.

وتبعاً لذلك فإن القضية القومية الصومالية تؤثر بكل أو بآخر على العلاقات الدولية، إذ شهدت منطقة القرن الأفريقي توتراً كبيراً وصراعاً مرير بسبب تطلعات تلك القومية لطموحاتها في التحرر والاستقلال من جهة، وتعنت الدول المعنية من جهة أخرى.

فالولايات المتحدة من ألد أعداء القومية الصومالية منذ القدم، إذ ساندت إمبراطور إثيوبيا (هيلاسيلاسي) من حقوق وتطلعات الصوماليين، وقدمت له مساعدات عسكرية ضخمة في حربه مع الصومال، إذ دخلت الدولتان في حربين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٧[٨٣]، وحاول الصوماليون إعادة أوغادين وهرر إلى الصومال، ورفضت الولايات المتحدة مساعدة الصومال عموماً وتزويدها في السلاح لأنها كانت تحتفظ بقواعد اتصالات عسكرية في البحر الأحمر وتحديداً في ارتيريا التي نالت استقلالها عام ١٩٩٣ بعد أن كانت جزءً من إثيوبيا[٨٤] كما شهدت العلاقات الصومالية الفرنسية والصومالية البريطانية قطيعة وتوترات بسبب دور الدولتين في رسم خريطة المنطقة وعدم مساندتها لحقوق الصوماليون.

وعلى صعيد القوى العظمى وتأثير هذه القضية عليها، فقد توجه السوفييت والصينيون إلى مساعدة الصوماليون مدة من الزمن لمواجهة الوجود العسكري الأمريكي في القرن الأفريقي والبحر الأحمر.

وبعد تصفية حكم هيلا سيلاسي عام ١٩٧٧ في إثيوبيا، ووصول منغستو ميريام إلى مقاليد الحكم سرعان ما ساءت العلاقات الصومالية السوفيتية، ووقفوا مع الإثيوبيين وبنوا قواعد عسكرية في البحر الأحمر، وبدأت العلاقات الصومالية تنحرف تدريجياً نحو الولايات المتحدة، وأعلنت الصومال في تلك الأثناء على موافقتها على موضوع تقديم تسهيلات عسكرية للولايات المتحدة والسماح لها باستخدام المرافق الجوية والبحرية التي كان الاتحاد السوفيتي قد أنشأها في الصومال منذ عدة أعوام[٨٥].

ولكن الولايات المتحدة بعد دراستها للأمر الواقع اضطرت للتراجع خشية حدوث حرب دولية كبيرة بين المعسكرين بسبب الوضع في القرن الأفريقي.

---

[٨٣] توفال، المصدر السابق، ص ١٦٧.

[٨٤] عبد السلام إبراهيم وسعد ناجي، المصدر السابق، ص ٩٤-٩٦.

[٨٥] موسى زناد، القواعد العسكرية الأجنبية، بغداد، الدار العراقية للتوزيع، ١٩٨٥، ص ٩٢.

وبناءً على ما تقدم فالقضية القومية الصومالية تؤثر بشكل واضح في كل مشاريع السياسة الخارجية للدول المعنية بالقرن الأفريقي، ولاسيما الدول الأربعة المعنية بالمشكلة، كما إن لها تأثيرها على التغيرات والسياسات الداخلية التي تنعكس على السياسات الخارجية.

٣- أسبانيا وإقليم الباسك:

باسك كمنطقة هي سبعة مقاطعات ثلاث منها في فرنسا، وأربع منها في أسبانيا (مالاقا، بسقاية، جيبوثكوا، نافارا) وهو إقليم يقع في الشمالي الشرقي من أسبانيا ويمتد إلى جنوب فرنسا، ويسكن أغلب شعب الباسك البالغ تعداده (٣) مليون نسمة سالمقاطعات الأسبانية على سفوح جبال البيرينية القريبة من فرنسا، إذ تعد هذه المنطقة مركزاً مهماً للصناعات الأسبانية[٨٦]، وكان هذا الإقليم يوماً ما له كيان نظامي بحد ذاته، ففي عام ١٩٣٦ أصدرت الحكومة في أسبانيا قانون الحكم الذاتي للمقاطعات، وانتخب رئيساً لها، ولكن نظام فرانكو الحاكم أصدر قانوناً بإلغاء الحكم الذاتي سنة ١٩٣٧، وذهبت حكومة الباسك إلى المنفى في المكسيك[٨٧].

ومنذ ما يقارب سبعاً وأربعين عاماً تشن حركة إيتا الانفصالية حرباً عنيفة ضد الحكومة المركزية في مدريد لفصل الإقليم واستقلاله وأسفرت تلك العمليات عن سقوط آلاف الجرحى، فضلاً عن فاتورة مالية باهظة وخسائر تقدر بملايين الدولارات.

ومنظمة إيتا (E.T.A) هي اختصار لأسم باللغة الباسيكية من الحروف الآتية (Euskadi Taaskata Suna) ومعناه بلاد الباسك والحرية، وتأسست عام ١٩٥٦ في اجتماع سري، وشعارها (٤+٣+١) يطالبون بإقامة دولة مستقلة تضم إقليم الباسك الأسباني والفرنسي[٨٨].

وفي عام ١٩٥٩ ظهرت منظمة إيتا على مسرح الأحداث، وبدأت العمل العسكري المسلح عام ١٩٦١ من خلال وضع المتفجرات في مقرات الجيش والشرطة، وعقدت

---

(٨٦) محمد القنام، الإرهاب في الديمقراطيات الغربية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠٧، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٢، ص ٩٦.

(٨٧) نازلي معوض، النظام الأسباني ما بعد الجنرال فرانكو، مجلة السياسة الدولية، العدد ٤٣، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٦، ص ١٦٠.

(٨٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٦.

اجتماعها الأول عام ١٩٦٢، وحددت هويتها كمنظمة ثورية، وفي عام ١٩٧٣ قامت باغتيال بلانكو رئيس حكومة فرانكو في مدريد[٨٩]. حتى بلغت ذروتها في المدة المحصورة بين عامي ١٩٧٨ – ١٩٨٠ ،التي شهدت فيها أسبانيا حكومة ديمقراطية، وتحديداً بعد صدور دستور جديد للبلاد أعطى ميزات حكم ذاتي للإقليم، وقام سكانه عام ١٩٨٠ باختيار المجلس التشريعي المحلي، ولكن المنظمة رفضت هذه الصيغة.

وتضم منظمة إيتا جناحين: الجناح العسكري والجناح السياسي، الذي يتكون من المتعاطفين معها الذين يجتمعون في الائتلاف المسمى (هري باتا سونا Heri Bata Suna) ومعناه الشعب المتحد[٩٠]، ومع كل هذا فانه لا يتمتع بتأييد شعبي في إقليم الباسك، إلا في مقاطعتي جيبوثكوا وبسقاية.

وفي إقليم الباسك توجد أحزاب مؤدية للانفصال مثل الحزب الباسكي الوطني وحزب ايسكو الكارتاسونا، وحزب اوسكال هريتا روك أو الجناح السياسي لمنظمة ايتا، إذ حصلت هذه الأحزاب مجتمعة على ٥٢% من الأصوات في المجلس التشريعي المحلي عام ١٩٨٨، الأمر الذي يوضح الثقل السياسي لها[٩١].

لقد تضمنت قائمة ضحايا ايتا الكثير من كبار رجال الدولة والمسؤولين الأسبان منهم رئيس الوزراء (بلانكو) والحاكم العسكري لمدريد، والحاكم العسكري لمقاطعة جيبوثكوا وغيرهم من الصحفيين والمدنيين ممن تعدهم المنظمة من الخونة لعملاء التصفية الجسدية[٩٢].

ومع إن إيتا أعلنت أواخر التسعينات الهدنة مع الحكومة، إلا إنها لم تتوقف عن أعمال العنف، واشتدت هجماتها من عام ٢٠٠٠، وتحاول الحكومة الأسبانية أن تضغط على الأحزاب الباسكية التي منحتها كل الصلاحيات السياسية والاقتصادية والإدارية والقضائية، ولم تحتفظ بالصلاحيات إلا في مجالي الدفاع والخارجية، ولكن منظمة إيتا لا تقبل إلا بفكرة

---

[٨٩] محمد القنام، المصدر السابق، ص ٩٧.

[90] **Salvador ciner: Laconguista del caos. Terrismoy sociedad Democratia, Madrid, 1982, P. 9.**

[٩١] عزة سامي ، إيتا الانفصالية، صحيفة الأهرام، القاهرة في ٢٠٠١/٧/٢١.

[٩٢] محمد القنام، المصدر السابق، ص ٩٨.

الاستقلال، رغم إن (٢٥%) فقط من إجمالي الشعب الباسكي في أسبانيا يؤيدون الانفصال عن أسبانيا، أما الباقون فيفضلون البقاء في دولة أوربية كبيرة ديمقراطية[٩٣].

أما بالنسبة للعلاقات الدولية فإن مشكلة الباسك تخلق دوماً متاعب للدولة الأسبانية داخلياً وخارجياً، وأبرز ما تجلت به هذه المتاعب هو أحداث ١٩٧٥، حينما أقدمت الحكومة على تنفيذ حكم الإعدام في خمسة من الناشطين من الإقليم، اثنان من زعماء إيتا، وثلاثة من زعماء الجبهة الثورية الماوية المناهضة للفاشية بتهمة قتل رجال الشرطة متجاهلة مناشدات دولية وضغوطات عديدة من أجل منعها عن هذا الفعل، الأمر الذي أعطى دفعة قوية لحركة تحرير الباسك، حينما طالب رئيس المكسيك وقتها بطرد أسبانيا من الأمم المتحدة، وهاجم رئيس الوزراء السويدي أولف بالمة حكومة مدريد، ووعد بتقديم معونة مالية لحركة الباسك، واستدعت كل الدول الغربية باستثناء أيرلندا سفراءها من مدريد للتشاور، وصدر قرار إدانة من مجلس وزراء خارجية السوق الأوربية المشتركة، أدان فيه تصرفات حكومة مدريد، الأمر الذي فرض عزلة على أسبانيا[٩٤].

٤- كندا والمشكلة القومية في كيوبك:

تعد كندا إحدى الدول الصناعية السبع الكبرى في العالم، إذ تقع في قارة أمريكا الشمالية، وهي تنتمي إلى الدول الديمقراطية ذات التجربة القومية والعرقية ولاسيما في مقاطعة كيوبك، لما لها من تأثير على الدولة الكندية داخلياً وخارجياً، وبما يؤثر على مستقبلها السياسي كدولة موحدة.

ينقسم السكان في كيوبك إلى جاليتين إنجليزية (الاكثرية) وفرنسية (الأقلية)، إذ تبلغ مساحتها ٥٩٤,٨٦٠كم، وهو أكبر مقاطعة مساحةً، وتحتل المرتبة الثانية من عدد السكان الذي يبلغ تعداده (٧) ملايين نسمة، كما إنها تشكل المرتبة الأولى في إنتاج البوتاسيوم

---

(93) **El Pais Diario independient, No. 8.240, Madried 2 de marzo de, 2000, P. 12.**

(٩٤) **محمد الغنام، المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩ وما بعدها.**

والنحاس[٩٥]، وتسهم بنحو ٢١% من إجمالي الناتج المحلي الذي بلغ عام ١٩٩٥ (٦٠٠) مليون دولار أمريكي[٩٦].

ويشكو سكان كيوبك من تسلط الإنجليز وهيمنتهم الثقافية والسياسية والاقتصادية عليهم، منذ وقوعها في أيدي الإنجليز عام ١٧٦٠ حتى انضمامها للاتحاد الفيدرالي الكندي عام ١٨٦٧ كمقاطعة فرانكفورنية وحيدة في كندا، الأمر الذي أدى إلى ذوبان شخصيتهم المستقلة وثقافتهم الخاصة، ومن ثم مخاوف الفرنسيين الناجم عن المواليد الفرنسية في المقاطعة، والتغيير الديمقراطي بالنسبة للمهاجرين الذي غالباً ما يختارون اللغة الإنجليزية، وهو ما يؤدي لزيادة عدد الإنجليز[٩٧].

لقد أدى هذا التهميش والإقصاء إلى ظهور تيارات سياسية تتبنى الوحدة، وبعضها تتبنى الانفصال، ومن الأحزاب السياسية المؤيدة للانفصال هي[٩٨]:-

١- حركة الأليانس: وقد ظهرت هذه الحركة بين عامي (١٩٥٧-١٩٦٢) وهي مدعومة من اليمين السياسي والكنيسة الكاثوليكية.

٢- حركة تحرير كيبك: وهي الجبهة التي أنشئت عام ١٩٦٢، وتتبنى أفكاراً ثورية، تمثل امتداداً للمنظمات الماركسية في كوبا وبعض الدول الشيوعية، ونسفت المباني، وولدت الرعب في السلطات المركزية ولاسيما في أحداث ١٩٧٠، واختفت من الوجود بعد أن اعتقل منهم ٥٠٠ ناشط.

٣- حركة التجمع للاستقلال RANA: وهي الحركة التي ظهرت على مسرح الأحداث عام ١٩٦٢ بزعامة (مارسيل شابو) وتحمل شعار كيبك للكيبكيين، وتحدد هوية السكان بالفرنسية والكاثوليكية.

---

[٩٥] منى محمد طه، مشاكل التعدد العرقي في بناء الدولة الحديثة، مجلة دراسات استراتيجية، العدد ١٣، الخرطوم، ١٩٩٨، ص ١٢٢.

[٩٦] محمد خال، صحيفة الحياة، العدد ١، لندن في ١٩٩٦/١١/١.

[٩٧] منى محمد طه، المصدر السابق، ص ١٢٤.

[٩٨] المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

٤- الحزب الكيبكي: وهو الحزب الذي ظهر عام ١٩٦٧، ويحمل أفكاراً سياسية انفصالية، إذ وصل الحزب إلى الحكم في المقاطعة ثلاث مرات، وأجرى استفتاءين للانفصال عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٥، ويعد الآن لاستفتاء آخر.

أما بالنسبة للعلاقات الدولية، فلا جدال إن هذه القضية ووضع الفرنسيين فيها يعد من المتغيرات المهمة في العلاقات الفرنكوفونية ولاسيما فرنسا، إذ يسودها التوتر أحيانا وهو ما حدث بعد زيارة الرئيس الفرنسي (ديغول) في الستينات للمقاطعة ودعوته في خطبه إلى الحفاظ على الطابع الفرنسي للمقاطعة، إذ اعتبرته كندا تحريضاً وتدخلاً في شؤونها الداخلية.[٩٩]

ويرى الاتجاه المؤيد لانفصال كيوبك بان المقاطعة تتمتع بكل مقومات دولة ناجحة، في حين يصف بعضهم بأنها تمثل خمسة ملايين سجين سياسي، ونتائج الاستفتاءات تحمل زيادة المشاعر الانفصالية، إذ حصل الانفصاليون في الاستفتاء الأخير لعام ١٩٩٥على ٤٩,٤% مقابل ٤٠,٥% في استفتاء ١٩٨٠[١٠٠].

وفي ضوء ذلك يبدو لنا مدى التأثير الذي تتركه قضايا القوميات على العلاقات الدولية، فضلاً عن إيجاد بؤر إقليمية للصراع، وعرقلة مشاريع التكامل والتعاون بين الدول المعنية بهذه الصراعات وحقوق تلك القوميات.

---

[٩٩] صحيفة الحياة، لندن في ١٩٩٨/٨/٧.

[١٠٠] منى محمد طه، المصدر السابق، ص ١٢٥.

الخاتمة:

لقد تبين من خلال البحث إن هناك تعريفات كثيرة ونظريات متعددة تختلف في تحديدها لعوامل تكوين القوميات، ولكن في الواقع نجد إن عاملاً واحداً مثل الدين واللغة يكون كافياً أحياناً لتشكيل شخصية قومية من القوميات.

إن الشعور القومي بالخصوصية والتمييز ظاهرة عالمية لا تخلو في أي مكان من العالم، إذ تمثل جزء من الفطرة البشرية ومن ثم فإن هذا الشعور يكمن في توافر صفات لهذه المجموعة (كاللغة، والدين، والعرق، والثقافة والعادات) ومن ثم لابد من المحافظة على تلك الصفات لأنه حق من الحقوق وجزء أصيل من طبائع البشر، ولا ينبغي التخلي عنها مهما كانت الأسباب لأنها تحمل في طياتها استخفافاً بقيم الآخرين والاستعلاء على ما هم عليه.

إن الدعوة إلى القومية اكتسحت في القرن التاسع عشر روح الرجعية القديمة، مما نتج عنه استقلال أمم كثيرة خضعت طويلاً لغيرها وقامت كدول جديدة عرفت بالدول القومية ولدت بعد معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨، ومن بين هذه الدول ظهرت الدولة المتعددة القوميات التي يضم سكانها خليط من الشعوب والقوميات، فأما أن تكون قوميات متكافئة تحافظ على توازن الدولة القومي، وأما أن تكون أقليات قومية ذات أغلبية في الدولة.

أن لجوء تلك القوميات إلى الاستقلال يكون اعتماداً على الحق الطبيعي لكل قومية بالاستقلال والتمتع بحرية استناداً إلى مبدأ حق المصير وبسبب شعورها بالاضطهاد ومن القومية الأكبر أو نزوعاً إلى الاستقلال يعود أما بسبب تدخلات خارجية، أو بسبب كونها منتهكة الحقوق، فتطالب بالاستقلال لاستعادة مركزها وتطالب بحقوقها، وهذه الحقيقة تبين لنا الأثر الذي تركه العامل القومي على العلاقات الدولية وفي الاستقرار الداخلي والإقليمي وحساسية التعامل معه.

الصدمة النفطية الثالثة لاسعار النفط في الاسواق العالمية

المدرس المساعد
خضير عباس النداوي[*]

المقدمة:

تبرز أهمية النفط في كونه واحداً من أهم السلع الاقتصادية المتفردة في تأثيراتها على حركة الاقتصاد العالمي ، وبالتالي لم يعد النفط سلعة اقتصادية فحسب ، بل سلعة ستراتيجية ذات أبعاد اقتصادية وسياسية وعسكرية متداخلة . وقد شهدت الأسواق النفطية الدولية منذ خمس سنوات تَطورات ملحوظة في مؤشراتها الرئيسية وبخاصة ظاهرة أسعار النفط التي سجلت ارتفاعات قياسية وعلى مستويات غير مسبوقة مما شكل صدمة ثالثة لأسعار النفط في الأسواق العالمية .

وتنعكس تداعيات هذه الظاهرة على الدول المنتجة للنفط باتجاهين : الأول ايجابي بزيادة العائدات المادية للدول المصدرة للنفط ومن ثم ازدهار الحياة الاقتصادية فيها في كافة الميادين ، والثاني سلبي : بزيادة الصراع والتنافس الدولي على المناطق المصدرة للنفط لغرض فرض الهيمنة العسكرية على بعض هذه المناطق لضمان التحكم بكميات النفط المصدرة للأسواق العالمية .

خلفية تاريخية :

عرف الإنسان النفط منذ القدم في بلاد العراق وفارس ومصر وغيرها من دول العالم . وكان يستعمل في التدفئة ورصف الطرق والبناء وصُنع العقاقير وصيانة السفن . وقد ابتدأ العصر الاقتصادي للنفط في تاريخ البشرية منذ ١٤٨ سنة خلت ، وتحديداً عقب حفر أول بئر للنفط في ولاية بنسلفانيا الأميركية واستغلاله لأغراض اقتصادية عام ١٨٥٩م[1]

[*] مدرس العلوم السياسية، جامعة النهرين.

[1] د.حافظ برجاس : الصراع الدولي على النفط العربي ، طبع بيسان للنشر والتوزيع والأعلام بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠ م ، ص٢٢ .

وجرى أول تسعير تجاري له عام ١٨٦٠م بنحو (٩) دولارات للبرميل ، ثم بدأ السعر بالتراجع المستمر ليصل بنهاية الحرب العالمية الثانية إلى (١،٨) دولار للبرميل الواحد . وقد شهد عقد السبعينيات في القرن العشرين الصدمتين الأولى والثانية لأسعار النفط . كانت الأولى عام ١٩٧٣م حيث قفز سعر برميل النفط وبشكل مفاجئ من ٢،٧ دولار ليصل بعد حرب تشرين/أكتوبر ١٩٧٣ إلى (٤٠) دولار ، وجاءت الصدمة الثانية بعد توقف تصدير النفط الإيراني في شباط/ فبراير ١٩٧٩ عقب سقوط نظام الشاه[٢] . ومنذ ذلك الحين تراوح سعر البرميل بين ٢٠_٣٥ دولار .

وتجئ الصدمة الثالثة لأسعار النفط في الأسواق العالمية مختلفة عن سابقتيها من حيث المضامين والدلالات ، لتسجل تصاعد الأسعار بشكل تدريجي بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق في نيسان / ابريل٢٠٠٣ ليصل إلى أكثر من (٤٠) دولاراً في عام ٢٠٠٤ ثم إلى أكثر من (٥٠) دولاراً عام ٢٠٠٥ ليواصل ارتفاعه إلى أكثر من (٧٠) دولاراً في منتصف عام ٢٠٠٦[٣]. ثم ليتخطى حاجز (٩٠) دولارا للبرميل الواحد في نهاية ٢٠٠٧ . وعلى الرغم من استمرار التصدير من الدول المنتجة للنفط ، وفي مقدمتها دول منظمة الأقطار المصدرة للنفط (الأوبك) ، إلا أن الارتفاع الزاحف لأسعار النفط لا زال مستمراً وسجل أرقاما غير مسبوقة في بورصات بيع النفط العالمية .

تسعير النفط: تؤثر على تسعير النفط العديد من العوامل ، في مقدمتها :

١. أن القيمة الحقيقية للنفط ينبغي أن يُعبر عنها بالسعر الذي يدفعه المستهلك النهائي مقابل ما يحصل عليه من فوائد حقيقية باستهلاك المنتجات النفطية المكررة وباستقطاع مجمل التكاليف من البئر حتى أسواق الاستهلاك النهائية ، و ينتج ما يعرف اصطلاحا بالريع النفطي .
٢. يتوزع صافي الريع بين حكومات الدول المستوردة للنفط معبرا عنه بنصيبها بما تفرضه من ضرائب على استهلاكه ، وبين الدول المصدرة للنفط معبرا عنه

[٢] خضير عباس النداوي : أسعار النفط في الأسواق لعالمية ، الوقائع والتوقعات ، مجلة النفط والتنمية ، العدد الخامس ، أيلول – تشرين الأول ١٩٨٧ ، بغداد ، ص٨٩ .
[٣] لمزيد من التفاصيل أنظر صحيفة الزمان ، ٢٠٠٥/٨/٣٠ .

بنصيبها بصافي سعر النفط الخام ، مطروحا منه ما تتكلفه في البحث والاستكشاف والإنتاج ....الخ . ويتوقف نصيب كل من الطرفين من صافي الريع على مستوى سعر النفط الخام، إذ كلما انخفض السعر ، انخفض نصيب الدول المصدرة منه، والعكس صحيح .

٣. أن ما يثقل كاهل المستهلك النهائي لا يتمثل في سعر النفط الخام ، وإنما فيما تحصل عليه حكومات الدول المستوردة للنفط من ضرائب تتجاوز في الدول الأوربية ٧٠% من السعر الذي يتحمله هذا المستهلك . وقد برهنت التجارب عبر نصف القرن الماضي على أن نصيب تلك الحكومات من صافي الريع كان يتجاوز ٨٥% ، بينما لا يتجاوز نصيب الدول المصدرة منه سوى ١٥% .

٤. لا بد أن يعبر عن سعر النفط بالسعر الحقيقي أو السعر بدولارات ثابتة القيمة ، والذي يكشف عن تطور السعر عبر فترة زمنية بعد استبعاد ما طرأ عليه خلال تلك الفترة من عوامل التضخم النقدي والتغيير في سعر صرف الدولار الذي يتخذ أساسا لتسعير النفط في الأسواق العالمية ،كما يعتمد الطلب على النفط على الظروف الاقتصادية في العالم والتي تؤثر على تحديد أسعار النفط في الأسواق العالمية .

٥. يعتمدُ تسعير برميل النفط في البورصات العالمية على مكان المنشأ (مثلاً تكساس، الجزائر ، دبي .. الخ) أو عن طريق كثافته (خفيف ، متوسط ، ثقيل) اضافة الى محتواه من الكبريت[٤] . كما تُستخدم تقييمات أخرى للاسترشاد بها للتسعير منها : نفط مزيج برنت ، نفط وسط تكساس لزيت شمال أميركا ، ونفط دبي كعلامة استرشادية لزيت الشرق الأوسط ، ونفط تابيس في ماليزيا كمرجع للزيت الخفيف في الشرق الأقصى ، ونفط ميناس في اندونيسيا كمرجع للزيت الثقيل في الشرق الأقصى . فضلاً عن نفط سلة الأوبك التي تضم الزيت الخفيف

---

[٤] لمزيد من التفاصيل حول آليات تسعير النفط في الأسواق الدولية يمكن الرجوع إلى الموسوعة الإلكترونية على شبكة الانترنت والمتوفرة على الموقع : www.wikipedia.org

في المملكة العربية السعودية ، دبي بدولة الأمارات العربية المتحدة ، الجزائر ، فنزويلا ، والمكسيك ، رغم انه لايتبع منظمة الأوبك .

العوامل الاقتصادية لارتفاع الأسعار :

١. زيادة الطلب : عكست أرقام إجمالي الطلب العالمي على النفط منذ عام ٢٠٠٢ والتي لم تفلح القدرة الإنتاجية الاحتياطية للنفط عن مواجهة الزيادة الغير مسبوقة التي طرأت على الطلب العالمي والتي بلغت نحو (٧) مليون برميل يومياً خلال الأعوام الخمس الأخيرة . كما لم تستطيع القدرة الإنتاجية أن تخفف من حدة ارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية و أنعكس أداء الاقتصاد العالمي خلال ٢٠٠٥ على معدلات نمو الطلب عل النفط خلال العام المذكور ، حيث بلغت الزيادة (١,٢) مليون برميل يوميا وذلك مقارنة بمعدلات النمو العالمية للطلب على النفط خلال عام ٢٠٠٤ والتي بلغت (٢,٩) مليون ب/ي خلال عام ٢٠٠٥ وفي هذا السياق فقد بلغ إجمالي الطلب العالمي على النفط (٨٣,٣) ب/ي خلال عام ٢٠٠٥ أي بزيادة قدرها (١,٥%) مقارنة بعام ٢٠٠٥ وتصاعد الطلب العالمي على النفط ليصل على (٨٤,١) ب/ي خلال ٢٠٠٦ (الجدول رقم (١))

الجدول (١) : إجمالي الطلب العالمي على النفط ٢٠٠٢-٢٠٠٦

السنة	إجمالي الطلب/مليون برميل يوميا
٢٠٠٢	٧٧,٨
٢٠٠٣	٧٩,٤
٢٠٠٤	٨٢,٣
٢٠٠٥	٨٣,٣
٢٠٠٦	٨٤,١
٢٠٠٧(*)	٨٥,٨

المصدر : (OPEC : Monthly Oil Market Report ,P.42, available at :www.opec.org)

(*) تقديرات منظمة الأوبك .

٢. نقص طاقة التكرير : تسبب نقص طاقات التكرير لمصافي النفط في الدول الغربية والاختناقات في طاقات التكرير العالمية والتحويلية ، وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية , عن تلبية احتياجات الاستهلاك مما أدى إلى رفع أسعار المشتقات النفطية بصورة حادة(٦) ، وبالتالي ارتفاع أسعار النفط الخام في الاسواق العالمية .

٣. انخفاض إنتاج النفط : على الرغم من تصاعد الطلب العالمي على النفط فقد تزامن معه تذبذب إنتاج النفط في نيجيريا(٧) وبحر الشمال ، في حين لم تتمكن بعض الدول من زيادة إنتاجها كما كان متوقعاً .

٤. انخفاض الدولار : استمرت أسعار صرف الدولار بالانخفاض خلال عام ٢٠٠٦ مقارنة مع بقية العملات الدولية ، وبحلول الشهر الأخير من عام ٢٠٠٦ أنخفض الدولار الأميركي بنسبة ٢,٦% مقابل اليورو ، و ٢,٨% مقابل الباون البريطاني ، و ٢,٤%مقابل الفرنك السويسري ، و ٢% مقابل الين الياباني ، مما أدى إلى ارتفاع أسعار نفط سلة الأوبك بنسبة ٤,٥% أي من (٥٥,٤) دولار إلى (٥٨) دولار للبرميل الواحد في أسواق النفط العالمية(٨) .

٥. عمليات مزج البنزين بالايثانول : عمدت العديد من مصافي تكرير النفط في الولايات المتحدة الأميركية إلى مزج البنزين بالايثانول لأسباب بيئية تنفيذاً لقوانين أقرت في غالبية الولايات الأميركية , مما أدى إلى زيادة الطلب على البنزين .

(٦) انظر صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٠٢٩٤ في ٢٠٠٧/٢/٣ .
(٧) صحيفة الزمان، ٢٠٠٦/٩/١٣.
(٨) جامعة الدول العربية وآخرون : التقرير الاقتصادي العربي الموحد ، ٢٠٠٦ ص٦٠ . وكذلك
OPEC : Monthly Oil Market Report , January 2007, P.8, available at www.opec.org.

العوامل الجيوسياسية لارتفاع الأسعار : تتأثر أسعار سلعة النفط وبشكل حاد جدا بالأحداث والتطورات التي يشهدها العالم* . وقد ساهمت العديد من التهديدات الجيوسياسية في مختلف مناطق العالم بارتفاع أسعار النفط بالأسواق الدولية وفي مقدمتها الآتي :

١. تطور الإحداث في العراق : على الرغم من امتلاك العراق لثاني اكبر احتياطي نفطي في العالم ، إلا انه يعاني من اضطراب الوضع ألامني منذ أربع سنوات والذي تسبب في ارتفاع حجم الأضرار التي تكبدها القطاع النفطي جراء استمرار عمليات التخريب . وطبقاً لتصريحات المفتش العام لوزارة النفط العراقية السيد علي العلاق ، فقد تكبد العراق لخسائر تقدر بخمسة مليارات دولار أميركي جراء استمرار عمليات التخريب التي طالت أنابيب النفط والمنشات النفطية الأخرى ، مما تسبب في تراجع إمكانيات التصدير العراقية أو انقطاعها لمدد طويلة كما حصل لتوقف تصدير النفط عبر الأنبوب العراقي التركي مما ساهم بارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية[٩] .
٢. الأزمة الإيرانية مع الغرب : تمثل الأزمة النووية الإيرانية واستمرار توتر المواقف مع الغرب احد أهم العوامل التي دفعت باتجاه زيادة أسعار النفط في الأسواق العالمية ، وخاصة في ظل التهديدات التي يطلقها المسئولون الإيرانيون ، كلما تعثرت مفاوضاتهم مع الغرب بشأن الملف النووي الإيراني وطبقاً لنشرة ميس الاقتصادية في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ فقد هدد المرشد الأعلى للجمهورية الإيرانية السيد علي خامنئي بأن إيران ستغلق

*في مؤتمر صحفي لجيمس بيكر وزير خارجية أميركا الأسبق في ٩ / كانون الثاني / ١٩٩١ عقب فشل مباحثاته في جنيف مع وزير خارجية العراق آنذاك طارق عزيز حول أزمة الكويت : قال في المؤتمر { سيداتي سادتي للأسف فطى مدار أكثر من ست ساعات لم أسمع شيئاً يوحي بأي مرونة عراقية أيا كانت بامتثالهم لقرارات الأمم المتحدة } وأشاعت كلمة "للأسف" الاضطراب في البورصات العالمية أما أسعار النفط فقد ارتفعت من ٢٣ دولاراً للبرميل الواحد عندما بدأ المؤتمر الصحفي إلى ٣١دولاراً للبرميل الواحد في نهاية المؤتمر الصحفي . لمزيد من التفاصيل أنظر : جيمس بيكر : سياسة الدبلوماسية "مذكرات جيمس بيكر" ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٩ ، ص٥٣٢ .

[٩] أنظر المقابلة الصحفية مع المفتش العام لوزارة النفط العراقية السيد علي العلاق والمنشورة في صحيفة المدى العراقية في ٢٠٠٦/٥/١٠ .

منافذ تصدير النفط المصدر من الخليج إلى الأسواق العالمية في حال تعرض بلاده إلى ما اسماه بخطوة خاطئة من قبل الولايات المتحدة الأميركية (عمل عسكري) . وقد اتخذت هذه الأزمة اتجاهاً آخر عقب صدور قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ١٦٩٦ في ٢٠٠٦/٧/٣١ والذي طالب إيران بتعليق جميع أنشطتها النووية المتعلقة بتخصيب اليورانيوم وإعادة التجهيز ، على أن يخضع ذلك للتحقيق من قبل ا لوكالة الدولية للطاقة الذرية ، لاسيما وأن هذا القرار صدر استناداً للمادة (٤٠) من الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لجعل القرار ملزما لإيران [١٠] مما يعني التلويح باستخدام القوة العسكرية من قبل الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها ضد إيران ، وبخاصة أن الحكومة الإيرانية رفضت تطبيق هذا القرار ، وأعلنت في شهر كانون الأول ٢٠٠٦ بأنها ستطلب من مشتري نفطها بأن يدفعوا باليورو بدلا من الدولار الأميركي ، ورغم أن شركة النفط الوطنية الإيرانية أعلنت بكونها ما زالت تسعر مبيعاتها النفطية بالدولار الأميركي ، لكنها تحصل على ٧٥% من إيرادات صادراتها النفطية باليورو الأوروبي[١١] . وفي الاتجاه ذاته هدد المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية السيد على خامنئي في ٢٠٠٧/٢/٨ الولايات المتحدة الأميركية باستهداف مصالحها في كل مكان في العالم في حال اعتدائها على إيران[١٢] ، وبتاريخ ٢٠٠٧/١١/٢٧ أعلن رئيس مجلس الخبراء الإيراني هاشمي رفسنجاني (بان الأمن الدولي مرتهن بأمن منطقة الشرق الأوسط الإستراتيجية وان الجميع يدرك بان مفتاح امن الشرق الأوسط هو بيد إيران)[١٣] لذا فأن أي تصعيد مرتقب في مجريات

---

[١٠] لمزيد من التفاصيل أنظر نص قرار مجلس الأمن الدولي ١٦٩٦ في ٢٠٠٦/٦/٣١ على الموقع الرسمي لمنظمة الأمم المتحدة على شبكة المعلومات (الانترنت) في www.un.org/arabic/se.

[١١] صحيفة الوطن الكويتية في ٢٠٠٦/١٢/٢٣ .

[١٢] للاطلاع على تفاصيل حديث السيد علي خامنئي ، أنظر : www.alarabiya.net .

[١٣] وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية – أيرنا في ٢٠٠٧/١١/٢٧ .

الأزمة الإيرانية ستنعكس سلباً باتجاه تصاعد أسعار النفط في الأسواق العالمية.

٣. الصراع على النفط في نيجيريا : تحتل نيجيريا المركز الأول بإنتاج النفط في إفريقيا ، والسادسة على المستوى العالمي ويصل معدل إنتاجها إلى (٢,٦) مليون برميل يومياً ، وقد قامت العصابات المسلحة بالعديد من الهجمات على المنشآت النفطية في منطقة دلتا النيجر مما تسبب في خسارة أكثر من(٦٠٠) ألف برميل يومياً . وبحسب بيانات المجموعة النفطية الهولندية العملاقة (رويال دوتش شل) فقد أدت الهجمات إلى انخفاض صادرات نيجيريا من النفط الخام إلى (٤٠٥) ألف برميل يومياً[١٤] . مما ساهم بارتفاع أسعار النفط بالأسواق العالمية .

٤. تأميم النفط في بوليفيا : أعلن الرئيس البوليفي الجديد (إيفو موراليس) في الأول من أيار / مايو ٢٠٠٦ عن تأميم قطاعات المحروقات ووضع حقول النفط والغاز تحت إشراف الشركة الوطنية العامة للمحروقات ، وينطبق قرار التأميم على ٢٦ شركة أجنبية منحت حق التنقيب عن النفط في بوليفيا عام ١٩٩٦ ومنها شركة ريبسول الاسبانية وتوتال الفرنسية واكسون موبيل الأميركية وغيرها[١٥] مما أدى إلى إحداث مشاكل بين الحكومة البوليفية والشركات المذكورة وبالتالي تذبذب إمكانيات تصدير النفط البوليفي للأسواق العالمية .

---

[١٤] صحيفة الزمان ، ٢٠٠٦/٩/١٣ .

[١٥] أنظر صحيفة المدى البغدادية ، ٢٠٠٦/٥/٣ .

انعكاسات ارتفاع أسعار النفط :

١. التركيز على دول الخليج العربي : أجمعت العديد من الدراسات الاقتصادية بوجود ست دول من دول الأوبك ممن ستكون لديها القدرة على توسيع إمكانياتها الإنتاجية ، بحيث ترتفع بقدراتها الإنتاجية من (٢٣) مليون ب/ى إلى (٤٤) مليون ب/ي في غضون السنوات العشرين القادمة وهذه الدول هي السعودية ، الإمارات ، الكويت ، والعراق وإيران ثم فنزويلا .

٢. ارتفاع عائدات النفط : تتقاسم الدول المنتجة والمستهلكة عائدات الريع النفطي . وهو ما يزيد في السعر للمستهلك النهائي فوق مجمل التكاليف ، ويتوزع الريع النفطي (بعد استبعاد كافة التكاليف ، وإرباح الشركات الوسطية) بين الدول المصدرة للنفط ، وحكومات الدول المستوردة (معبراً عنها بما تحصل عليه في صورة ضرائب تفرضها على استهلاك المشتقات النفطية) . وتختلف توزيع الريع النفطي بين الدول المنتجة للنفط والدول المستهلكة له تبعاً لقوة أو ضعف أسعار النفط الخام ، أذا كلما انخفض سعر النفط الخام يتضاءل نصيب الدول المنتجة من ذلك الريع وكلما ارتفع سعر النفط الخام تصاعد نصيب الدول المنتجة من الريع النفطي .

٣. استخدام المصادر البديلة : يلعب الارتفاع الحالي لأسعار النفط دور المحفز للتحول أكثر فأكثر إلى استخدام المصادر البديلة للطاقة على حساب النفط وهذا هو جوهر مبادرة الطاقة المتقدمة التي أقترحها الرئيس الأميركي جورج بوش في شباط / فبراير ٢٠٠٦ ضمن خطاب حالة الاتحاد والتي تهدف إلى تطوير مصادر طاقة نظيفة أرخص ويمكن الاعتماد عليها . وقد رُصد لهذه المبادرة مبلغ عشرة مليارات دولار أميركي لتطوير هذه المصادر وزيادة الاستثمارات في مجالات تطوير تكنولوجيا الطاقة البديلة وبنسبة ٢٢% عما كانت عليه قبل المبادرة . و قد عرض الرئيس الأميركي جورج بوش في خطابه السنوي عن حالة الإتحاد في ٢٠٠٧/١/٢٣ خطة جديدة لمواجهة ارتفاع أسعار النفط

تضمنت ثلاث فقرات الأولى : تنويع مصادر الطاقة الأميركية باعتماد الوسائل التكنولوجية المتقدمة . والثانية : زيادة إنتاج النفط الأميركي باستخدام أساليب حساسة مراعية للبيئة . والثالثة : مضاعفة المخزون الاحتياطي الإستراتيجي من النفط [١٦].

٤. إضعاف الإصلاحات الاقتصادية : ساهمت فوائض عائدات النفط غير المتوقعة في البلدان المنتجة له بإضعاف عمليات الإصلاح الاقتصادي في هذه البلدان. وطبقاً لتقرير البنك الدولي الصادر في حزيران /يونيو ٢٠٠٦ ، عن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فقد زادت السعودية أنتاجها من النفط من (٧،٤) مليون برميل يومياً إلى (٩،٢) مليون برميل يومياً . كما شهدت دول الخليج الأخرى زيادات كبيرة في معدلات الإنتاج حيث ارتفع أنتاج الكويت بنسبة ٣٣% وقطر ٢٤% ودولة الإمارات ٢٣% . وتزامن مع هذه الزيادات طبقاً لذات التقرير ، تزايد الإيرادات المالية الحكومية لصادرات النفط . حيث تضاعفت خلال السنوات الثلاث الماضية مرتفعة من (١٥٤) مليار دولار أميركي عام ٢٠٠٢ إلى (٣٦٥) مليار دولار أميركي عام ٢٠٠٥ عدا ليبيا وسوريا . كما تضاعفت الاحتياطات المالية في الخارج من (١٤٠) مليار دولار عام ٢٠٠٣ إلى (٣٠٠)عام ٢٠٠٥ مما أدى إلى الاعتماد على الفوائض النفطية لتنشيط الاستثمارات في مختلف القطاعات الاقتصادية وإسدال الستار عن مشاريع الإصلاحات الاقتصادية . و قد مكن الريع النفطي النظم الحاكمة في دول مجلس التعاون الخليجي من تقديم الخدمات لمواطنيها بتكلفة بسيطة أو من دون تكلفة على الإطلاق ، وفي المقابل أن يبقى نشاطهم السياسي في الحدود المرسومة من قبل حكوماتهم [١٧].

---

[١٦] أنظر خطاب بوش عن حالة الاتحاد في ٢٠٠٧/١/٢٣ والمنشور على الموقع الرسمي لوزارة الخارجية الأميركية علي شبكة الإنترنت الدولية والمتوفر على الموقع الرسمي : www.usinfo.state.gov.

[١٧] مبارك مبارك أحمد : تغير القيادة والتحول الديمقراطي في دول مجلس التعاون الخليجي ، مجلة آراء حول الخليج ، إصدار مركز الخليج للأبحاث ، دبي ، العدد الخامس عشر ٢٠٠٦ ، ص٣٧ .

التوقعات المستقبلية :

أ. **وكالة الطاقة الدولية** : تنبأت وكالة الطاقة الدولية في تقريرها السنوي لعام ٢٠٠٦ بتصاعد أسعار النفط في الأسواق العالمية جراء تراجع إنتاج النفط الخام من الدول غير الأعضاء في منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك)وبخاصة : المكسيك والنرويج وكندا وسيؤدي ذلك إلى زيادة الطلب بنسبة (١,٨%) أي (١,٥٥) مليون ب/ي في عام ٢٠٠٧ [١٨] ، وذلك بسبب استمرار تصاعد الطلب من الصين ثاني أكبر مستهلك للوقود في العالم بعد الولايات المتحدة الأميركية .

ب. **صندوق النقد الدولي** : أكد الصندوق في تقرير له عن التوقعات الاقتصادية الدولية صدر في تشرين الأول ٢٠٠٧ ، بان أسواق النفط العالمية تعاني من ضغوط على جانب العرض والتوترات السياسية والتي ستدفع أسعار النفط نحو الارتفاع عن مستوياتها القياسية لتتجاوز سقف (٩٥) دولارا للبرميل الواحد بحلول ٢٠٠٨ [١٩].

ج. **معهد اليابان لاقتصاديات الطاقة** : حدد التقرير السنوي للمعهد المذكور ثلاث سيناريوهات للأسعار خلال عام ٢٠٠٧ وبداية عام ٢٠٠٨ وكما يلي :

الأول : استمرار الأسعار الحالية : والتي تتراوح في المتوسط ما بين (٦٠-٦٥) دولار للبرميل الواحد .

الثاني : السعر المرتفع : ممثلاً ببروز عوامل تأثير جديدة ، كأن يسجل الطلب العالمي على النفط ارتفاعاً في العام ٢٠٠٧ قدرها (٦٠١) مليون ب/ي عن العام السابق ، مما يؤدي لزيادة أسعار النفط ما بين (٧٠-٧٥) دولار للبرميل

---

[١٨] وزارة النفط بدولة الكويت : تقرير التطورات في السوق النفطية ٢٠٠٦ ، والمنشور على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) في : www.moo.gov.kw.

[١٩] صحيفة الشرق الأوسط في ٢٠٠٧/١٠/١٨ .

الواحد . وفي حالة حصول إنقطاعات في الأمدادت فقد يكون المتوسط أعلى بحوالي خمسة دولارات (٧٥-٨٠) دولار للبرميل الواحد .

الثالث : السعر المنخفض : ويتمثل في تسجيل الطلب العالمي على زيادة معتدلة قدرها (١,٢) مليون ب/ي عن العام السابق وسيكون معدل سعر النفط خام ما بين (٦٠- ٦٥) دولار أميركي للبرميل الواحد[٢٠].

ج. **وزير البترول السعودي** : تؤثر قرارات المملكة العربية السعودية في خفض أو زيادة كميات إنتاج النفط المصدر للأسواق العالمية في تثبيت الأسعار ، كونها أكبر منتج و مصدر للنفط في العالم ، ويتراوح إنتاجها حاليا بين (٨,٥ و ٨,٦) مليون برميل يوميا ، وتستحوذ على ٣٠% من كميات النفط التي تصدرها دول منظمة الأوبك . وطبقاً لتصريحات وزير النفط السعودي السيد علي النعيمي[٢١]، تخطط السعودية لزيادة أنتاجها إلى (١٢,٥) مليون برميل يومياً ، وفي المرحلة الحالية لا يوجد ما يدعو للتغيير إذا ظل الاتجاه على ما هو عليه مع تحسن السوق النفطية ، ومما يعني ضمناً استمرار أسعار النفط في عام ٢٠٠٧ وبداية عام ٢٠٠٨ على مستوياتها المرتفعة .

د. **ريتشارد هاس** : توقع المذكور استمرار ارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية ، نتيجة للطلب المتزايد من قبل الصين والهند والنتائج المحدودة للجهود التي قامت بها الولايات المتحدة الأميركية للحد من ظاهرة الاستهلاك وزيادة

---

[٢٠] لمزيد من التفاصيل أنظر تصريحات البروفيسور (كين كوياما) مدير قسم أبحاث الصناعة والإستراتيجية في معهد اليابان لاقتصاديات الطاقة والمنشورة في صحيفة الزمان في ٢٠٠٧/١/١٧ .

[٢١] صحيفة الشرق الأوسط السعودية في ٢٠٠٧/٢/١٣ .

احتمالات حدوث نقص في التغذية النفطية وعندئذ سيتجاوز سعر برميل النفط (١٠٠) دولار أميركي[٢٢] .

٥. **الرئيس الفنزويلي :** طالب الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز في خطاب له ألقاه في مؤتمر قمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) والذي عقد بالرياض في المملكة العربية السعودية في ٢٠٠٧/١١/١٨ بضرورة قيام منظمة الأوبك بدورا مؤثرا، وطالبها بتكريس نفسها لاعبا جيوسياسيا مهما على المستوى العالمي ، وحذر من احتمال وصول أسعار النفط إلى (٢٠٠) دولارا للبرميل الواحد إذا هوجمت إيران من قبل الولايات المتحدة الأميركية ا و اتخذت خطوات مماثلة ضد فنزويلا [٢٣].

---

[٢٢]سبق وأن عمل ريتشارد هاس مديراً لبرنامج الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي الأميركي في إدارة الرئيس بوش الأب ، ثم عمل مديراً للتخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأميركية في الفترة الأولى لإدارة بوش الابن وخرج عام ٢٠٠٣ ، ويعمل حالياً رئيس المجلس الأميركي للعلاقات الخارجية ، لمزيد من التفاصيل أنظر :
Richard N. Hass : The New Middle East, Foreign Affairs, November/December 2006, available at : www.foreignaffairs.org

[٢٣] صحيفة الزمان اللندنية في ٢٠٠٧/١١/١٩ .

الخاتمة:

بضوء ما تقدم ، نستنتج الآتي :

١. تختلف الصدمة النفطية الثالثة لأسعار النفط من حيث البعد الزمني الذي استغرقته ومبرراتها الاقتصادية والسياسية عن الصدمتين السابقتين ، لذا فان أسعار النفط عقب الصدمة الثالثة مرشحة للاستمرار والتصاعد بعكس ما حصل بعد الصدمتين الأولى والثانية حيث تراجع السعر عقب انحسار تأثير مبررات الصدمتين السابقتين .

٢. حصلت الصدمة الحالية بتصاعد تدريجي لأسعار النفط ، مع وجود خزين استراتجي لدى الدول المستهلكة وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية ، مما ساعد على التحكم النسبي في اتجاهات العرض والطلب .

٣. بظل الظروف التي يشهدها الاقتصاد العالمي وانتشار تأثير العوامل السياسية على ثلاثة قارات في العالم العراق وإيران في أسيا ونيجيريا في إفريقيا ، وبوليفيا في أميركا اللاتينية ، لذا فان أي توجه نحو تصعيد التوتر السياسي واحتمال التصادم العسكري بين إيران والدول الغربية سيدفع بارتفاع أسعار النفط لتتجاوز (١٠٠ دولار) في الأسواق العالمية وعندئذ سيلقي هذا الارتفاع بظلاله القاتمة على الاقتصاد العالمي .

أشكالية ضعف الدولة الغنية

المدرس المساعد
رعد قاسم صالح(*)

المقدمة:

أن بقاء ضعف الدولة الغنية بمعطيات جغرافيتها الوطنية بسبب بعدها عن أحتضان تعابير قوانين التطور العلمي والنظم والتشكيلات الموائمه له، وعجزها عن توظيف هذه القوانين في المواكبة المستديمة للتطور التكنولوجي في فن التنظيم الحالي لتعبئة الذكاء والموهبة مع الموارد المادية، وبقائها رهينة للمفاهيم التقليدية في ضمان أمنها القومي دون رفده بالحلقات العالية التقنية والكفاءة سيجعلها أسيرة التفوق الأقليمي والدولي ومنطقة أستقطاب للتنافس والصراع الدوليين عليها.

والضعف المقصود هنا، شاملاً لطبيعتهِ عندما يتعلق الأمر بالدولة لكيان هرمي متشابك والذي يحتاج من أجل تطوره والمحافظة عليه إلى نظام سياسي قادر على أستيعاب الواقع المحلي والتكيف مع الواقعين الأقليمي والدولي، ونظاماً أقتصادياً قادراً على أشباع حاجات الناس وتطوير مستوياتهم المعيشية نحو الرفاهية مستوعباً لكل مايطرأ من متغيرات على النظام الأقتصادي الدولي، ونظاماً أجتماعياً قادراً على أيجاد المشترك العام لجميع كتلهِ وأحزابه وطوائفه نحو الأهداف والغايات العليا ليشكل العلم رابطاً مهماً لهذا المشترك العام راعياً لمبادئ العدل والمساواة وضمان تمتع الأفراد لحرياتهم وحقوقهم من أجل الأبداع في تطوير هذا الرابط الذي يلعب دوراً مهماً في تفعيل وتوسيع مقدرات الأمن القومي في الدفاع عن المصالح والمؤسسات والقيم الوطنية، وتوجد هناك مقاييس لضعف الدولة من خلال مظاهر عديدة أقتصادية وسياسية وصناعية وأمنية، لعب العلم وتعبيراته دوراً مهماً فيها ليضيف مقياساً رئيسياً إلى المقاييس التقليدية ((أرتفاع أو أنخفاض الدخل السنوي الفردي- أرتفاع أو أنخفاض معدل الأنتاج والدخل القوميين-تخلف أو تطور الأنتاج الزراعي

(*) مدرس العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

والصناعي–الواقع الصحي والتعليمي–الأداء الوظيفي... الخ)) أضافة إلى القدرة على الدفاع عن النفس تجاه التهديدات الخارجية، أو مدى التأثير على الدول الأخرى في المحيطين الأقليمي والدولي، والدولة التي لاتملك التطور العلمي المعاصر وإستيعاب مظاهره، وتحمل الأشارات السلبية في المقاييس التقليدية الأنفة الذكر تكون أسيرة دائماً للتفوق الخارجي وتعجز عن تأكيد أرادة شعوبها، وتكون النتائج كارثية عليها أن هي أتسمت بالضعف ولكنها تملك في أراضيها من موارد طبيعية ومواد أولية وموقع مهم مما يحتاجه الأخرون، وخاصة الأقوياء منهم.

لأن الصياغة الصحيحة للعلاقات الدولية وفق قواعد العصر الحالية لم تعد مبادئ يجري ترديدها عن المسافة والسكان وكمية ونوعية الموارد الطبيعية والمواد الأولية، وأنما هي حركة نشطة ودورية وفاعلة لأن سرعة الأحداث وقوتها بفضل العلم والعمل تجعل من الصعوبة الرهان على المجهول مما تخبئه الأقدار، وهنا غاية بحثنا التي تعالج أشكالية وجود بعض الدول العاجزة عن أشباع حاجيات شعوبها بسبب محدودية مواردها الطبيعية، ودول من الممكن أن تشبع جميع حاجيات شعوبها بسبب وفرة مواردها الطبيعية، بيد أن تحليل الواقع الدولي أظهر أنقلاباً في هذه المعادلة، لاننا وجدنا بعض الدول القوية المؤثرة أستطاعت أن تشبع جميع حاجيات شعوبها الضرورية وهي لاتملك أي فائض من الموارد الطبيعية الرئيسية بل وتحتاج إلى معظمها، في المقابل وجدنا دولاً أعطاها الله سبحانه وتعالى أكثر مما تحتاجه شعوبها من الموارد الطبيعية ولاتملك المكانه المؤثرة وتقع دائماً أسيرة تفوق الأخرين وأتضح من خلال التحليل أن متغير القوة العلمية والبشرية قد لعب دوراً مهماً في خرق هذه المعادلة.

لذلك جاء بحثنا في أوله عن مظاهر القوة التقليدية وماطرأ عليها من متغيرات ومبحثه الثاني عن كيفية أحتضان العلم لتوظيف قوته في التطور، والثالث عن تعبيرات القوة العلمية في مضامين الأمن القومي والدفاع عن النفس ذلك الدفاع الذي يرتب الحرية في أستثمار وتوظيف خيرات المعطيات الجغرافية بعيداً عن أستغلال الأقوياء الأخرين.

المبحث الأول

مظاهر القوة التقليدية

أن ظاهرة الاحتلال والأستعمار جاءت بتفوق بعض التنظيمات السياسية والأقتصادية والعسكرية لبعض الجماعات البشرية على الأخرى، ومن واكب هذه التفوق وأدامه بكافة عناصر القوة المتطورة مع أستيعاب كافة المتغيرات المحلية والدولية أستطاع البقاء كقوة أحتلالية أستعمارية أو أي مسميات أخرى تتفق مع جوهر أهداف هيمنة دول على دولة أخرى، ومن بقي خارج هذه المواكبة فقد قوة التأثير وتحقيق عين الأهداف وقد يتعرض إلى التهميش والعزلة وحتى الاحتلال بسبب عدم قدرة مقومات القوة التقليدية مجابهات المقويات الحديثة المتطورة بفعل المتغَير العلمي:

١. **البيئة الجغرافية:** لم تقتصر مخاطر تخلف الدولة الغنية في مضامين العلم والتكنولوجيا على أمنها القومي فحسب، بل قد يتعدى ذلك الى حقها في البقاء في البيئة الدولية ونقصد بالدول الغنية بمعطيات جغرافيتها من الثروة الطبيعية والموادِ الأولية والأرض والموقع والطقس... الخ، التي أعتبرها أصحاب المدرسة الجيوبوليتيكية التقليدية عناصر قوة رئيسية، متناسين الآثار الجسيمة التي سيرتبها التخلف العلمي التكنولوجي والذي أنعكس على الدولة في التفاعلات الدولية، فقد أكد مفكروها ومنذ قيام الدول القومية في القرن الثامن عشر وحتى بدايات القرن العشرين على أهمية معطيات الجغرافية الوطنية في رسم السياسة الداخلية والخارجية وتبوء نوع المكانة في العلاقات الدولية، بشكل مبالغ فيها، حتى أطلق البعض على هذه العلاقة (الحتمية الجغرافية) التي وجدت تعبيراً جازماً لها في أطروحة حيث قال: (أعطوني خريطة بلد وهيئته ومناخه ومياه Vector Cusinفيكتور كوزان ومجموع نباتاته وحيواناته... الخ وأنا اتكفل بأن أقول لكم جازماً من سيكون رجل هذا البلد وما سيكون دور هذا البلد في التاريخ ، وليس في زمن معين بل في جميع الأزمنة)[1]. مستنداً في أطروحته على أعتبار أن الدولة التي تم التعرف عليها متصلة بأرض تمارس عليها كامل أشرافها، وان الإلمام بها لاينفصل عن الإلمام بها لاينفصل عن الإلمام بالأرض. وان الأرض وما تحتويه

---

[1] بيير رينوفان ، وجان باتيست ، مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية - مكتبة الفكر الجامعي – لبنان – بيروت – ١٩٦٧ – ص١٦ .

تؤثر في زيادة سلطة الدولة أو أنقاصها، وإن أهم صورة عن هذا التأثير هو تمكنها بحرية من توفير الأحتياجات الأنية والمستقبلية للسكان، والمحافظة على هويتها الخاصة المتأتية من خلال التفاعل العميق في التاريخ بين البيئة الجغرافية والمبادئ الأساسية لقيمها وتكون في وضع أقل تبعية حيال الدول الأخرى لأنها تملك القدرة التقليدية لحماية أرضها ونستدرك هنا مقولة راتزل الشهيرة عن الأرض وحمايتها حيث قال: (إن كل دولة هي بالضرورة في صراع مع العالم الخارجي للدفاع عن الفراغ الذي تشغله ، وكل دولة متينة التنظيم تحاول زيادة فراغها بمختلف الوسائل لتأمين موارد ومنافع أكبر)[2] أرتبط ذلك بمفهوم الأمن القومي التقليدي الذي دمج بين فكرة فرض الإرادة على الأخرين وحق حماية الذات، حين خول الدولة أستخدام ما يتوفر لديها من الوسائل المادية وغير المادية لبقائها وذاتها ومصالحها.

ويوعز الباحثون من المدرسة السلوكية أصل هذه الفكرية الى خاصية العدوانية لدى الأنسان البدائي وبالذات عدوانية التملك الذي يبدأ من أمتلاك الذات وقد لاينتهي إلاعند أمتلاك العالم[3].

بيد أن مايهمنا إن هذه الأفكار أظهرت مفهوم (الفراغ الحيوي) الذي أعتمدته المدرسة الجيوبوليتيكية التقليدية حيث أعتبرت حينها أن سيطرة روسيا على النجود والسهوب المحيطة بها والتي كانت معبر الغزوات الكبرى عملية تنظيم الفراغ وفي نفس السياق أعتبرت إمعان ضم ألمانيا الهتلرية لأجزاء كبيرة من بولندا وبلجيكا الى ألمانيا فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية[4].

وترادف مع هذا المفهوم ظهور فكرة (مراكز القوة الطبيعية) وكأن الكتاب كانوا فترة الحربين العالميين الأولى والثانية يؤطرون السبل لتلبية الحاجة المستديمة للنظم الأقتصادية الأوربية في أيجاد الأسواق الجديدة والموارد الأولية الجديدة والأيدي العاملة الرخيصة مما أظهر صراعاً دولياً جوهره تنازع الإرادات الوطنية، وهو تنازع ناتج عن الأختلاف في دوافع الدول وفي تصوراتها وأهدافها وتطلعاتها وفي مواردها وإمكانياتها ولكي تفوز هذه

---

[2] المصدر نفسه ص٣٩ .

[3] د. محمد مصالحة – مسألة الأمن القومي – بين المفاهيم ، الواقع ، النصوص – شؤون عربية – العدد ٣٥ ، لسنة ١٩٨٤ .

[4] بيير رينوفان ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢ .

الدول في هذا الصراع أخذت تبحث عن مصادر جديدة لزيادة إمكاناتها وقدراتها ولذلك برزت الظاهرة الأستعمارية في العلاقات الدولية، وأن تغيير اللاعبون في هذه الظاهرة، حيث بقي البعض ورحل البعض وجاء غيرهم كان بفعل المتغير العلمي الأقتصادي الذي غير في خارطه التفوق الدولي.

٢. **الأرض:** أهم مكون في هذه البيئة وإن سعة الأرض وعدم أنغلاقها وقربها من السواحل ومنافذ البحار ونقاط أرتكاز المواصلات الدولية وأحتوائها على وفرة الثروات الطبيعية والمواد الأولية وتنوع الطقس والنبات الطبيعي وكثرة المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية.

بالتأكيد تؤثر هذه المعطيات الحياتية للشعب وتوفر له حرية كبيرة للحركة نحو النمو والتطور والمكانة المرموقة (الهيبة الدولية) في البيئة الدولية وفي المقابل فأن الشعوب التي تشغل فراغاً صغيراً يفتقر الى كل أو جزء من هذه المعطيات الأيجابية للجغرافيا تتصف بأستعدادات فكرية أكثر تهيباً وتواضعاً ولاترتقي الى المكانة المرموقة في البيئة الدولية، وغالباً ماتكون دولهم أسيرة الأعتمادية على الدول الكبرى، وأن حدثت أستثناءات في هذه الدول ستكون بالتأكيد بفعل العامل الأنساني المقرون بالتطور النوعي للإنسان، حين وظف العلم في السيطرة على فضاء دولته وفضاأت الدول الأخرى، أو على السيطرة على مياهه الأقليمية والمياه الأقليمية للدول الأخرى.

٣- **الثروة الطبيعية والموارد الأولية:** تصاعدت أهمية الطاقة مع تقدم التقنيات الصناعية، فقد أعطى الفحم في تفاعلات العلاقات الدولية أهمية متفوقة للدول التي تملك طبقات فحمية كبرى وجاء عهد الطاقة المائية ليدخل في حياة الصناعة الكبرى في مناطق جبلية ظلت من قبل خارج حدود الأهتمام السياسي[٥].

وفي العقود الأولى للقرن العشرين ولغاية الأن تصاعد دور البترول في العلاقات الدولية جراء أتساع أستخداماته لأغراض طاقة وأغراض عديدة للصناعة، الأمر الذي أبرز أهمية كبيرة للمناطق المنتجة له، والتي لم يولها أحد حتى ذلك الحين غير أهمية بسيطة، ثم جاءت مصادر الكونغو من اليورانيوم بعدد عام ١٩٤٥م التي أستثمرت أستثماراً واسعاً

---

[5] ج. موريس و. ا. ج. ديكنز – تاريخ العلم والتكنولوجيا ، ج٢ ترجمة أسامة أمين القوي – الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة – ص١٢ .

فأسندت لهذا البلد المنسي حينها مركزاً هاماً ولو لحين من الزمن[٦]. ومع التطور العلمي أخذت التكنولوجيا الصناعية تلبي بصورة مستديمة تتسع كماً ونوعاً أحتياجات المجتمعات الأستهلاكية فأرتفعت الأهمية السياسية لمناطق الأخشاب والقصدير والنحاس والحديد والألمنيوم والكبريت... الخ، وبسبب عدم التعادل في مصادر الثروات الطبيعية والموارد الأولية المنتشرة في الكرة الأرضية، وبفضل التطور الملحوظ في وسائط النقل والمواصلات والأتصالات والتفوق العسكري للأوربيين، أصبحت الموارد الطبيعية والأولية أكثر عمقاً وأتساعاً وأهمية في الصراعات الأولية[٧]، وأصبحت المنافسة بين الدول علنية حول الهيمنة على منافذ الموارد الطبيعية والأولية، وقد حدثت حروب عديدة بسببها، وكانت هذه الحروب تزداد ضراوة كلما كانت الشعوب ذات الخواص التنظيمية المتبينة الفاعلة وصاحبة الأمكانيات التكنولوجية المواكبة للتطور المستديم تمعن في سياسة الهيمنة على الثروات الطبيعية والموارد الأولية تجاه الدول (الضعيفة) وكأن الحق معها في ذلك، وهل صحيح أن الواقع يفرز دائماً حقيقة أن الموارد الدفينة والثمينة تحت الأرض وفوقها لاتجدي إلا أولئك القادرين على أن يستخلصوا منها أفضل المنافع، والقدرة هنا تعني الإمكانية على تطبيق قوانين التطور العلمي التكنولوجي وتوظيفها في فاعليات قوة التأثير للأستحواذ على ما تحتاجه لدى الدول الضعيفة.

وبالعكس نستطيع أن نقول بأن الدولة التي لاتملك النظم والتشكيلات المتفاعلة مع التطور العلمي التكنولوجي، ولكنها تملك حظاً وافراً في الثروة الطبيعية والمواد الأولية، تكون عامل تصعيد في هذه المنافسات والصراعات التي تأخذ أشكالاً عديدة حسب تطور وتغير وسائلها.

٤- **البيئة النفسية:** الشعور بالراحة والأطمئنان على القيم والتراث ونمو الثقافة وتدعيمها كلها نجدها بالمنظور الأمني الحديث المتفاعل مع المبادئ الأساسية للبيئة النفسية في الأخلاق والقيم والأيديولوجيات الوطنية الذي أبرز جملة من المفاهيم أهمها (القدرة لحماية الأمة من خطر القهر على يد قوة خارجية) وفي تعريف أخر (أنه قدرة الأمة على حماية قيمها الداخلية

[6] بيير رينوفان ، مصدر سبق ذكره ، ص٤٧ .
[7] روبرت جيلبن – الحرب والتغيير في السياسة الدولية – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٩٠ – ص ١٤٩.

من التهديد الخارجي) وعرفه والتر ليبمان (تكون الدولة آمنه عندما لاتضطر الى تكريس مصالحها المشروعة لتفادي الحرب، وهي أيضاً قادرة في حالة التحدي والضرورة على أن تكرس هـــذه المصالح لمــواجهة الحرب)، وأخيراً يعرفه هنري كيسنجر (انه يعني أي تصرفات يسعى المجتمع عن طريقها الى تحقيق حقه في البقاء)[٨].

فالكل تحدث عن القدرة والمقدرة في توظيف المعطيات الجغرافية الأستراتيجية والعامل البشري النوعي لتحقيق التفوق أو التوازن بين الدول المتصارعة وقد يكون هناك هامش لتفوق البيئة النفسية لهذه الدولة أو تلك بيد أن التجارب الحديثة لم تحدثنا عن رقي هذا الهامش الى المرتبة الأولى قبل القدرة العلمية والتكنولوجيا فلا مجال لصمود الجندي المقاتل البسيط المدجج بالقيم والأخلاق في ساحة المعركة أمام الجندي المدجج بالمعدات والأدوات العالية الكفاءة والقوة التدميرية مع أسناد فضائي، فالبيئة النفسية تكون أمنه وسليمة مع المقدرة العلمية والتكنولوجية وضعيفة ومهددة بدونها ويئول ذلك الى التطور النوعي لطبيعة القدرة الذي أحدثته الثورة العلمية التكنولوجية، وبذلك تراجعت وبشكل جاد العلاقات الدولية القائمة على تقارب الأيديولوجيات لتحل محلها العلاقات القائمة على المنافع الأقتصادية والعلمية المنظمات الدولية ذات الطبيعة الأقتصادية العلمية أكثر حضوراً وتأثيراً من المنظمات الأيديولوجية والمذهبية.

٥- **السكان:** لم تعد القوة البشرية تقاس كماً بعدد عشرات الملايين من الأفراد، فالتغبير الذي أحدثته القوة العلمية غير ذلك بشكل كبير، فالمجتمعات التي أفرزت الأنظمة السياسية القوية ونظمها الأجتماعية المستقرة والمتطورة نجحت في خلق الشخصية الفردية الموائمه مع المتجدد من التطور التكنولوجي عن طريق النظم الأجتماعية والمؤسسات التعليمية والبحثية العالية الكفاءة والمتناسقة مع مجموعة القيم الحركية المتفاعلة مع المكون العلمي النظري والتطبيقي للمعارف والمكون المعياري المستند على المطابقة والمواكبة لأهداف المجتمع نحو التطور الأقتصادي والأجتماعي والأمني[٩]، أي جعل عملية أكتساب المعرفة للأفراد وسيلة لغايات معبرة عن التطور وتحقيق أنجازات ترصد تفوق شعب على شعوب أخرى.

---

[8] رفعت سيد أحمد ، الأمن القومي العربي ، تطور المفهوم ، دراسات عربية ، العدد ٣٥ ، ص ٨٠ .
[9] د. أحمد زايد – سيكولوجية العلاقات بين الجماعات – عالم المعرفة – العدد ٣٢٦ لسنة ٢٠٠٦ ص٥٦ .

وبذلك لكون الشعب قوياً بالنوعية المشبعة بعناصر مميزة وقادرة على التواصل مع النهج العلمي لمعالجة الواقع المحلي والأقليمي والدولي[10]، بعيداً عن المنهج الميتافيزي الذي لايعطي للشعوب الضعيفة غير الأيحاء والحدس والمثالية[11] ويحرمها من التعاطي مع هذه الوقائع بصورة فاعلة ومؤثرة ويسحبها نحو الضياع أو الأنعزال الضعيف.

والمجتمعات التي أجتهدت نحو هكذا تعليم وتربية والتي تشكل ٥/١ خمس سكان العالم أتسمت بتملك التفوق والقدرة على التأثير والهيمنة على ٥/٤ أربعة أخماس سكان العالم الذين أبتعدوا أولم يرشدوا نحو أهمية "العلم" وتعبيراته في القضاء على مشاكلهم الغارقين فيها كالتخلف والفقر والصراعات الداخلية والشلل في توظيف القوة البشرية في مجالات الدفاع عنها أو حضورها المؤثر في التفاعل بين الشعوب أو في مجالات أستثمار مواردها الطبيعية ومواردها الأولية[12].

المبحث الثاني

أحتضان القوة العلمية

أن تهيئة مستلزمات أحتضان الجهد الأنساني للتطور العلمي بأساليب بحثية موضوعية لرفد التطور التكنولوجي في أنشطة المجتمع والأقتصاد والصناعة والقوات المسلحة يتم بالتفاعل مع الدور المميز للمؤسسات البنيوية في الأعداد البشري لهدف ((صنع ثقافة علمية)) فالمعروف أن كل علم أياً كان موضوعه له آثار أيجابية على النظام الأجتماعي والسياسي والعلاقات الدولية من خلال قدرته على صنع شبكة ترابط وتشابك جميع مكونات المجتمع نحو التماسك والفاعلية مع نفسه ومع المجتمعات الأنسانية الأخرى.

في طبيعة العلم :

لكل علـــــم طريقة منظمـــــه ومحددة للبحث، فالعلم هو معرفة مصنوعة بأداة خاصة ويجد الباحثون طبيعة هذا الشرط بأنه يجب أن تكون لكل علم طريقة وأدوات

---

[10] عادل ظاهر – الأسس الفلسفية للعلمانية – دار الساقي – بيروت – ١٩٩٨ ص١٢٥ .

[11] أنظر هنري برجسون – الفكر والواقع المتحرك – ترجمة سامي الدوربي – مطبعة الأنشاء – دمشق ص٤٣ .

[12] كذلك أنظر – نادر خرجاني – برنامج الأمم المتحدة الأنمائي – تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥ المستقبل العربي – العدد ٣٢٥ لسنة ٢٠٠٦ ص١٩٢ – ص١٩٣ .

Tooled knowledge[13] وهـــذا يعنـــــي ضرورة توفير عدة تشكيلات بحثية Special Techniques خاصه به في البحث العلوم، خاصة العلوم الداخله في صلب عملية التطور العلمي التكنولوجي مفتاح الدخول في التفوق الأقليمي والدولي، وهذا يتم بفعل دعم النظم السياسية الأقتصادية الأجتماعية السليمة.

واقعية العلم:

يمتاز العلم بالتجريد، فالمعلم يقوم من هذه الناحية على دراسة الحالات الفردية بصرف النظر عن الأختلافات الخاصة بين تلك الحالات، فبالرغم وجود مميزات خاصة لكل حالة من الحالات الفردية إلا أنه توجد خصائص عامة مشتركة تجمعها، وتحديد هذا المشترك هو مانعنيه بالتجريد، وهو ما يهتم به العلم ويوصلنا الى فكرة ((القانون العلمي)) الذي يعتبر قاعدة تحدد الخصائص العامة التي تتوفر في كافة الحالات الفردية فظاهرة من الظواهر، وبذلك يساعد في تحديد ما يحدث في المستقبل، لان القانون العلمي لا يقوم على مصادفات حدثت في الماضي وقد حدثت في الماضي وقد تحدث أو لاتحدث في المستقبل، بل هو يقوم على رابطه حتمية هي رابطة ((السببية)) وهذه الرابطة لاتتوقف على زمان معين أو مكان معين لأنها تترجم عن حقيقة منطقية مستمدة من طبيعة الظاهرة[14] وهذا مايفسر تطور أمكانية الدول المحتضنة للعلم في الدفاع عن نفسها لأنها تواكب الأستكشافات العلمية وتأثيراتها وبذلك تكون على أستعداد دائم لما قد يلجأ إليه الاخرون ممن أمتلكوا هذه الأستكشافات.

عالمية القوانين العلمية :

القوانين العالمية نوعين، الأول مايشمل القوانين الطبيعية الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، الأحياء، الجاذبية، الأشعاعات،... الخ، وهي قوانين كاملة الأنطباق بمعنى أنها لاتتحمل الأستثناءات وهي قوانين الدرجة الأولى أوجدها الله سبحانه وتعالى ، وما على العقل البشري إلا الأجتهاد في أكتشاف ما يمكنه أكتشافه منها وتغييرها لخدمة الأنسان والمجتمع

[13] د. لبيب شقير – تاريخ الفكر الأقتصادي – دار نهضه مصر للطبع والنشر – بدون تاريخ ص٢١ .
[14] المصدر نفسه ص٢٢ .

والأنسانية، والفرق لايكمن في قوانينها بل في الجهد الأنساني لمعرفتها وتوظيفها الذي يرتب ميزة تفوقية للجماعة أخرى، إما النوع الثاني من القوانين هي الأجتماعية والأقتصادية والسياسية التي تحكم في مجالات العلاقات الأنسانية والدولية، وهي أحتمالية بمعنى أنها تحتمل الأستثناءات، فهي قوانين من الدرجة الثانية، تلعب البيئة الجغرافية والمبادئ الأساسية للشعوب دوراً مهماً فيها، والفارق في المبادئ الأساسية للشعوب لايرتقي الى العوامل التي تمنع أحتضان قوانين التطور العلمي فبأستطاعة الشعوب أن تحتضن قوانين التطور العلمي التكنولوجي بعيداً عن الوقوع بمأزق ((الصوت والصدى)) المتمثل بالتقليد الكامل عند بناء النظم والتشكيلات الأقتصادية والسياسية والأجتماعية والأمنية تحت وهم الحصول على نفس النتائج. وعلى سبيل المثال من دراسة التطور الأقتصادي لدول غرب أوربا نرى ان هذا التطور قد سار وفقاً لنمط معين بحيث أتخذ مراحل متعددة، رتب كل منها على المرحلة السابقة لها التي تركت بصماتها على المرحلة التي تلتها[١٥]، بيد أن هذه المراحل لن يمر بها التطور الأقتصادي لشعوب أسيا وأفريقيا، ونستخلص من هذا أن القوانين التي حكمت التطور الأقتصادي لغرب أوربا ليست حتمية الأنطباق فيما يتعلق بالتطور الأقتصادي لشعوب أخرى، بيد أن قوانين التطور العلمي التكنولوجي سنجدها تلعب دوراً مهماً في أي تطور أقتصادي في جميع أنحاء العالم، فتعبيرات العلم بالمكننة الزراعية ومعالجة آفاتها أخرجت قانون تطور الأنتاج الزراعي عند توافر المستلزمات الأخرى لدى جميع شعوب ودول العالم.

القوانين العلمية والتطور:

أهم ميزة تطورية على الصعيد الأجتماعي يوفرها العلم كقاعدة للأنطلاق هي محاصرته للتنافر بين الأراء والذهنيات، فالعلم يوفر حقيقة واحدة يتقبلها الجميع وأن أختلفت ميولهم، وهو القوة الرئيسية لمحرك المشترك العام داخل المجتمع.

أما على صعيد الدول التي أنتقل اليها التطور العلمي التكنولوجي التي كانت غير مؤثرة في البيئة الأقليمية والدولية ولاتملك المقدرة عن الدفاع عن نفسها، نجدها الأن أمتلكت

[15] د. أسماعيل محمد هاشم – مذكرات في التطور الأقتصادي – دار الجامعات المصرية – ١٩٧٤ ص٩ .

التأثير والقدرة في الدفاع عن نفسها كالهند وباكستان وكوريا الشمالية على صعيد التكنولوجيا النووية، وهونك كونغ واليابان وكوريا الجنوبية والمانيا على صعيد التكنولوجية العلمية الأقتصادية والصناعية بعد أن رتب العلم لها مساحة أكبر من الحرية في توظيف مواردها الطبيعية والبشرية.

والتطور يظهر مظهرين في طبيعة الدول:

المظهر الأول : تغيير تطوري Development Change

ونعني بهذا التغيير إحلال نفوذ وأحكام أساليب جديدة في الأنشطة السياسية والأقتصادية والأجتماعية والأمنية وينتج عن عملية التحلل والأحلال هذه تطور مهم يصب في مجمله في مظاهر، يمكنها من التفاعل مع الدول المتطورة مثلها والأرقى منها نسبياً وفق مبادئ المصالح المشتركة، ويمكنها من الخروج من الاثار السلبية لأشكالية "وجود حاجات أنسانية متعددة للمجتمع وموارد محدودة لأشباع تلك الحاجات مما يجعلها رهينة الأعتمادية على الغير" أو وجود موارد ستراتيجية فائضة عن الحاجة المحلية للمجتمع، وتحتاج لها المجتمعات الأخرى مما يجعلها موضع طمع وأستقطاب الأخرين.

والتغيير التطوري هذا حجماً يتناسب مع الموارد الطبيعية والبشرية وفاعلية النظام الديمقراطي في الدول .

المظهر الثاني: تغيير أنتكاسي Retrogressive change

ونعني بهذا التغيير هو تدهور مستويات الأداء والفاعلية في الواجبات السياسية والأقتصادية والعلمية والأجتماعية والأمنية، بسبب غياب المقدرة على اللحاق بالتطور والتفوق لدى دول الجوار أو دول العالم الأخرى، وينتج عن هذا التغيير تدهور معمم يصب في مجمله في قصور الدولة في الدفاع عن مصالحها في علاقاتها الدولية، ويجعلها عرضه للتدخلات الأقليمية والدولية. ويمكن أيضاً أعتبار الحالة أنتكاسية على الدولة عندما تبقى مستويات الأنشطه في كافة المجالات على حالتها في مقابل حدوث تغيير تطوري نوعي في المجالات نفسها لدى الدول الأخرى وخاصة المجاورة.

والحالة الأنتكاسية تنحسب على الدولة سلباً في هذا الوقت أكثر من الفترات السابقة بعد أن أصبح النظام الأقتصادي العالمي المتخطي للقوميات حيث أصبحت فيه الدول عاجزة عن الخروج من تأثيرات ترابط وتشابك المصالح[16] وبذلك تكون الغاية من أحتضان القوة العلمية:

١- تدعيم الأستقلال السياسي.
٢- تدعيم البناء الأجتماعي.
٣- تدعيم الأقتصاد الوطني.
٤- حماية الأمن القومي.

التطور العلمي والحرية:

أساس التطور العلمي هو الأبداع، والأبداع هو النزوع الى تجاوز المألوف وتنسيق المعارف وفق نمط جديد للأتيان بحلول جديدة للمشكلات المطروحة، فالمبدع صاحب تحليل دقيق وتفكير خلاق يولد الحقائق من رحم ركام معرفي بجهد علمي يكسر الأطار المعهود والأجتهادات السابقة وفق أسس قابلة للتحقيق، والمبدع يمتاز على جمع المعلومات وصهرها عقلياً وأخراجها في حالة جديدة تخدم عمليات التطور الأقتصادي والتقني والأجتماعي وأي حقول أخرى، ولكن لايمكن الحديث عن الأبداع العلمي والمبدعين في مناخ متوتر غير مستقر تغيب فيه الحرية وينعدم فيه الأمن النفسي والجماعي، فحيثما حكمت القوه وحذفت الأصوات الحرة تراجع الأبداع وتراجع معه التطور العلمي، وتوقفت الحالات الأقتصادية والأجتماعية والأمنية على حالها[17].

أنعكاسات التطور العلمي والتكنولوجي في العلاقات الدولية :

التطور العلمي لحقبة القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين أفرز المرحلة الأولى للثورة الصناعة، التي أنعكست على واقع العلاقات الدولية لمظاهر (الأستعمار-

---

16 د. فؤاد مرسي – الرأسمالية تجدد نفسها – عالم المعرفة – العدد ١٤٧ – الكويت – ١٩٩٠ ص١٥٠ .
17 سلطان بلغيث – تطور الجامعات العربية في دعم ثقافة البحث العلمي الأبداعي – شؤون عربية – العدد ١٢٧ لسنة ٢٠٠٦ ص١٣٤.

الأحتلال– السيطرة والهيمنة) بأساليب (الحروب–التحالفات العسكرية–المعاهدات الأمنية– أقتسام مناطق النفوذ–حروب النيابة) وبأدوات تشكل القوة العسكرية معظمها. أما أنعكاسات الثورة التكنولوجية الحالية وتفاعلاتها في البيئة الدولية فأخذت مظاهر وأدوات مختلفة، ولكنها تتقارب أكثر في جوهر الأهداف، ومن أهم هذه الأنعكاسات:

١. الرأسمالية طورت نفسها: ركزت الرأسمالية العالمية على المجالات البحثية العالمية وخلقت نظم وتشكيلات مطابقة لها، وقد أثبت هذا التطابق قدرة ملحوظة على التكيف والتجديد رتب تفوقاً ملحوظاً في القوى العلمية والقوى الأقتصادية على الطرف الشيوعي المواجه للرأسمالية، وكانت نتائج هذا التفوق تفكك المعسكر الشيوعي[18] وتوجه معظم الدول َالتي وجدت بعض تفككه نحو النظام الأقتصادي الحر.

٢. تصحيحاً لمسار التقسيم الدولي للعمل والتجارة والنظام المالي وفي دورة أقتصادية جديدة بحيث لم يعد شئ في العلاقات الدولية بمنأى عن متناول الثورة العلمية التكنولوجية رتبة ذلك المظاهر:

المظهر الأول: تراكم الأنتاج مع تراكم المعلومات وأحتكار الحلقات العلمية التكنولوجية الأكثر تطوراً وتأثيراً لدى الرأسماليات الكبرى ضاعف من قدراتها في مجال التأثير على الدول (المختلفة في هذا المجال).

المظهر الثاني: ثورة في الأستهلاك وتخلف في أحتضان وأستيعاب التطور العلمي التكنولوجي في الدول الضعيفة الأمر الذي أدى الى أنكشاف المساحات الجغرافية لهذه الدول أمام زحف قوى الأنتاج الرساميل والتجارة[19] والمال كجيوش علمية أقتصادية من أجل الهيمنه على ثروات وموارد وعمالة الدولة (المختلفة في هذا المجال).

---

[18] برنامج حرب النجوم الذي تبنته الولايات المتحدة المريكية أثبتت تفوقاً علمياً تكنولوجيا واضحاً تجاه الإتحاد السوفيتي السابق في مجالات سباق التسلح ، وكان من الأسباب المهمة في نهاية الإتحاد السوفيتي ونهاية العلاقات الدولية في ضل نظام القطبين الدولي ، لمزيد من المعلومات أنظر ميخائيل غورباتشوف .

[19] أنظر د. سالم توفيق النجفي – حول مسألة الرأسمالية – رؤية للقرن الحادي والعشرين – بيت الحكمة – بغداد ١٩٩٩ – ص٧٥ .

المظهر الثالث: زحف الرأسماليات الكبرى نحو الشرق الأوربي بفضل أنهيار النظم السياسية الشمولية ونحو آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، طارحة معها مفاهيم العولمة المستندة على تفوقها العلمي والتكنولوجي والأقتصادي وحتى الـــدول القليلة التي أستطاعت أن تحافظ على نظمها الشمولية قد لجأت الـــى تكييـــف نفسها مع هذه التفاعلات لإحداث إصلاحات وتعديلات في تشكيلاتها العلميـــة والأقتصادية والسياسية وخير مثال في ذلك الصين حيث إعتمـــدت تـــشجيع الأقتصاد الفردي، وربطت الأقتصاد الأشتراكي مع نظام السوق بعد أدخـــال أساليب الإدارة الأقتصادية الحديثة المتقدمة[20].

٣. مخاطر البيئة: إذا كان النشاط البيئي التقليدي للإنسان قد ألحق بالـــضرورة ضـــرراً بعدد من البيئات الطبيعة مثل الماء والتربة والهواء، فإن الثورة العلمية التكنولوجيـــة المعاصرة قد عجلت بنمو القوة الإنتاجية إلـــى أقـــصى الحـــدود بأســـتغلال العمـــل وأستنزاف الطبيعة بحكم المنافسه والجري السريع وراء الربح وإن الأستخدام غيـــر الرشيد للثورة التكنولوجية يؤدي الى تراكم وتزايد النفايات الضارة، ولم تعد الطبيعة قادرة بعد الن على أستيعاب هذه النفايات وكثير منها سام بالنسبة للطبيعة والإنـــسان أيضاً ومن أبرز مظاهر ذلك:

- تحول ٦ملايين هكتار كل سنه من الأراضي الجافة المنتجة إلى صـــحاري ظاهرة التصحر لاقيمة لها.
- تدمر أكثر من أحد عشر مليون هكتار من الغابات سنوياً.
- محروقات الوقود المختلفة تؤدي إلى نشر ثاني أوكسيد الكاربون الذي يسبب في الزيادة التدريجية للحرارة في العالم بصورة عامة بما يكفي لإلغاء العديد من المناطق الزراعية، ورفع مستويات البحار وغرق المدن الساحلية وتهديد غلاف الأوزون الذي يحمي القشرة الأرضية بفعل التصاعد الكثيف للغازات الصناعية.

---

[20] **أنظر د. عدنان مناتي – أشتراكية السوق – النموذج الصيني – الموقف العربي – بغداد – العدد ٢٩ لسنة ٢٠٠٠ – ص١٠.**

- الإخلال بدورة الغذاء في المحيطات وللإنسان نفسه بما يعرضه إلى أمراض جديدة أكثر فتكاً ، كذلك الإنتشار الملحوظ لأمراض السرطان[21].
- مخاطر الجسيمة لما يسمى بمخاطر الأستخدامات السلمية والحربية للطاقة الذرية فإن تشييد مصنع ذري يستغرق حوالي ١٠ عشرة سنوات، أما فترة عمله فلا تزيد على ٤٠ سنة، غير إن النفايات الذرية التي سوف ينتجها تضل تشع عدة ألوف من السنين وتخلف مشكلة بيئية بالنسبة لألاف الأجيال المقبلة، ولسوف تتأثر ظروف الحياة بإحتمالات الموت الذري البطيء للغابات والمزارع والحيوانات والإنسان.

عملية نقل الأضرار:

الدول ذات النظم والتشكيلات العلمية والتكنولوجية المنضبطة التنظيم ومعظمها في الدول الرأسمالية الصناعية الكبرى، تستطيع أن تنقل، بل ونقلت الأضرار والنفايات إلى أطراف أخرى بعيدة عن بيئتها، وتحاول في الوقت نفسه حماية بيئتها الداخلية عن طريق:

١. أدخال تدابير عملية وعلمية في الأنتاج.
٢. إدخال الطبيعة في أطار أقتصاد السوق، أي جعل الطبيعة ملكية خاصة ترتب تكلفة صيانتها على أرباب العمل[22] ومتابعة أعمالهم وإجبارهم على إدخال التحسينات المناسبة للبيئة في الإنتاج والخزن والنقل، عن طريق نظمها وتشكيلاتها الفاعلة.

السؤال المهم هنا : أين الدول المتخلفة من كل هذا؟ وماذا ستفعل في حال تعرض بيئتها الداخلية للمخاطر جراء الأستثمارات الأجنبية أو أنتقال هذه المخاطر اليها، وإن أدركت هذه المخاطر فإنها لاتملك التدابير والإجراءات لدرءها، وستكون المحاولات الخارجية لمساعدتها سواء طلبتها أو فرضت عليها مدخلاً للتدخل في الشؤون الداخلية من قبل الدول الأكثر تفوقاً على الصعيد الإقليمي والدولي، وسيقوض أكثر أستقلالها السياسي وتكون عاملاً أخر مضافاً

---

21 تقرير البيئة الدولية للتنمية – عالم المعرفة – العدد ١٤٢ – ص٢٧ .
22 د. فؤاد مرسي – مصدر سبق ذكره – ص٧٨ .

لعامل عجزها العلمي والتكنولوجي في تصعيد حدة الصراعات بين الدول القوية للهيمنة عليها، في عالم أصبح صغيراً جداً ومتداخلاً.

٣. عملية غزو الفضاء أعلن المعنيون والمسئولون في برامج غزو الفضاء ومنهم وكالة ناسا الأمريكية بأن العام سيشهد للفترة من ٢٠١٠ – ٢٠٢٠ البدء برحلات فضائية الى سطح القمر والمريخ من أجل إنشاء مستعمرات بشرية هناك، وبالتأكيد سيكون البحث عن مواد أولية إستراتيجية بديلة لتلك المعرضة للنفاذ في الأرض الأمر الذي سيرتب مكانة ووضعاً متميزاً.

المبحث الثالث

القوة العلمية والأمن القومي

أثرت القوة العلمية في شكل ونطاق الأمن القومي، فما عادت الدول القوية المتقدمة ترصد وتراقب حدودها وأجوائها فحسب، بل أمتلكت المقدرة على المعرفة لما يحدث في فضاءات وأراضي الأخرين ورصد مايجري في البحار والمحيطات والنخب لكل ذلك ولهذا أتسعت ظاهرة الأجراءات الأحترازية والضربات الأجهاضية لديها.

وأصبح العالم يرتب نفسه على أساس حقائق القوة بمضامينها العسكرية والأقتصادية والعلمية وليس وفقاً لمقتضيات أخلاقية أو قانونية لذلك تدخل القوة العلمية في ترتيب أشكال المقدرة أو العجز، فعندما تكون الدولة عاجزة لضعفها تكون مدعيه فقط لحقوقها، وعندما تكون مقتدرة لقوتها تكون مؤكدة وساعية لهذه الحقوق دون الحاجة الى طلب مساعدة الأخرين وتقديم التنازلات لهم، فالقوة العلمية أفرزت سياسات لاتراعي أمن الضعفاء، حيث أصبح الضعف عامل تصعيد لتأثير المتغير الدولي على الدولة الضعيفة، كذلك أفرزت سياسات الترهيب والترغيب بين الدول القوية والضعيفة، وأفرزت أيضاً سياسات الأعتمادية الأمنية بينهما[٢٣].

---

[23] لمزيد من المعلومات أنظر د. خضير عباس عطوان – وضع العرب في النظام الدولي – شؤون عربية – القاهرة – العدد ١٢٧ لسنه ٢٠٠٦ ص٢٣٦ كذلك بحثية – العرب والتوازنات الدولية – مجلة شؤون عربية القاهرة – العدد ١٢٠ لسنة ٢٠٠٤ ص١٠٥ – ص١٠٦ .

وإن التحليل عن دور القوة في علاقات الدول ببعضها، يجب أن لايفصل هذا الدور عن طبيعة تلك العلاقات، فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، كانت عبارات الأستيلاء على أراضي الغير بالقوة، أو عبارة تغيير نظام الحكم بالقوة، أو التدخل الأجنبي بالقوة، أو بأستخدام القوات المسلحة تعطي معنى واحداً، فكان مفهوم القوة مرادف لمفهوم العنف وأستخدام القوات المسلحة والأستعداد العسكري، وبعد منتصف القرن العشرين أخذ مفهوم القوة شكلاً أكثر أتساعاً تحت تعريف مؤداه "أنها المقدرة على التأثير في سلوك الدول الأخرى وبالكيفية التي تخدم أهداف الدول المتملكة لها" وبدون ذلك فقد تكون الدولة كبيرة أو غنية أو عظيمة ولكنها ليست قوية[24] وقد أتفق الخبراء في العلاقات الدولية على ترتيب لعناصر قوة الدولة كالآتي:

١- العوامل الجغرافية.

٢-الإمكانات والموارد المادية والطبيعية.

٣- السكان.

٤- مستوى النمو الأقتصادي والصناعي.

٥-درجة التطور التقني والتكنولوجي.

٦- الأستعداد العسكري.

٧- كفاءة المؤسسات السياسية والدعائية[25].

وبفضل الثورة العلمية وخلال العقود الثلاثة المنصرمة ظهر واقع العلاقات الدولية ترتيباً جديداً لعناصر قوة الدولة، ليجعل العلم العنصر الأول في هذا الترتيب بعد أن أصبح قوة بحد ذاته ويكون النشاط الأقتصادي المترابط مع الثورة العلمية التكنولوجية العنصر الثاني وحتى الأستعداد العسكري تراجع بأستثناء الحلقات العالية المستوى التقني والعلمي وذات الكفاءة والمقدرة، وأنعكس هذا الترتيب الجديد على الوسائل والأدوات التي تلجأ إليها (الدول القوية) في سياسات الربح والضغط والتأثير والهيمنة وبذلك أفرزت التفاعلات الدولية الجديدة مفاهيم أمنية جديدة وتحديات جديدة، مثل التطور العلمي-الأمن العلمي. الأحتياط النفطي-

---

24 د. اسماعيل صبري مقلد – مصدر سبق ذكره – ص٥٨ .

25 روبرت جلبن – الحرب والتغيير في السياسة الدولية – بغداد – ١٩٩٠ – ص٥٦ .

الأمن النفطي . تطور الخبرة العلمية–أمن المعلومات وأمن العلماء. البيئة–الأمن البيئي. القدرة النووية–الأمن النووي... الخ.

التحديات التي أفرزتها الثورة العلمية التكنولوجية على أمن الدول (الضعيفة):

الدولة الضعيفة (المتخلفة) هي تلك الدولة التي لاتملك القدرة الذاتية على الدفاع عن كيانها، الأمر الذي يدفع بها الى البحث عن الحماية الخارجية والقبول بنتائجها فكيف الحال بها وقد أضافت الثورة التكنولوجية أعباء وتحديات كبيرة عليها، الأمر الذي سيرتب أستقطاباً أكبر للتدخل في شؤونها والمنافسة على ثرواتها جراء بحثها بأتجاهات متعددة عن المساعدة لتدعيم قدراتها لمواجهة هذه التحديات الجديدة سيما وأن أمتلاك الحلقات الرئيسية للثورة التكنولوجية أصبح حكراً لدى مجموعة من الدول تتوزع في آسيا وأوربا وأمريكا، فكيف سيكون أمن الدولة الضعيفة وهي تملك أكثر من ٦٠% من أحتياجات الولايات المتحدة الأمريكية و٩٠% لأحتياجات أوربا و٨٠% لأحتياجات أوربا للطاقة ، و٩٩% من الألمنيوم و٨٩% للصفيح و٦٥% للنحاس و٩٥% للمنغنيز و٩٣% البن و١٠٠% للسكر ومع ٣٠% لما يحتاجه الأقوياء من الطعام[٢٦] وموارد أخرى تحتاجها الدول القوية.

التحديات:

١–**تحدي الأختراق:** لم تعد الحواجز الطبيعية والمعدات التقليدية قادرة على منع وصول الصواريخ والمقذوفات الأخرى العابرة للقارات لتدمير الأهداف النقطوية. ولا المياه الإقليمية تكون آمنه بمجرد حمايتها بالسفن والزوارق الحربية كما كانت عليه، فالتطور النوعي وفر للدول القوية إمكانية إختراقها والوصول إلى سواحلها وموانئها وتدمير أي هدف منتخب من مسافات بعيدة لاتستطيع الدول الضعيفة بإمكانياتها التقليدية من التأثير عليها وهكذا الحال بالنسبة لجميع المنشآت الحيوية الأخرى داخل أراضيها.

٢– **التحدي الأعلامي:** أنعكست أثار الثورة العلمية التكنولوجية في زيادة أهمية الأعلام الخارجي الذي أضطلع بالتأثير أكثر على الدول وسياساتها، فأن ثورة المعلومات والتطور

---

[26] كولن باون وبيتر موني – من الحرب الباردة حتى الوفاق – دار الشروق للنشر والتوزيع – ترجمة صادق أبو عودة – عمان ١٩٨٣ – ص٢٣٩ .

النوعي لأجهزة الإعلامي المرئي والسمعي والمكتوب أضحى قوة تأثيرية لا يستهان بها بيد الدول القوية ضد مدركات وذهنيات شعوب الدول الضعيفة، والتسميم الأعلامي الموجه ضد أي شعب أو مجموعة يستطيع إلحاق الضرر في مكوناته الفكرية والثقافية وبالذات إذا توفرت فيه ثغرات أمنية مثل التنافر العرقي والمذهبي وأختلاف في الأراء في الأزمات الأقتصادية والسياسية وغالباً مايهدف هذا التكثيف الإعلامي من الدول القوية تجاه الدول الضيقة الى الحصول على منافع إضافية تتعلق بالثروة الطبيعية وأي باحث يقوم بتحليل ودراسة مراحل التطور النوعي للإعلام الخارجي للدول القوية سيجد أن هذا التطور مصحوباً بتطور وأتساع حجم الأزمات الأقتصادية والسياسية والعرقية والمذهبية في الدول الضعيفة التي تشكل أهتماماً بالغاً في السياسة الخارجية للدول القوية.

٣- **تحدي الإرهاب المنظم**: إن أتساع نطاق الجريمة المنظمة، ثم أتساع ظاهرة الإرهاب جاء متزامناً مع الثورة العلمية والتكنولوجية، فقد هيأت هذه الثورة مستلزمات وأدوات متطورة نوعياً في الأتصالات والمواصلات والقتل تسربت الى مجاميع أرهابية رتبت لهم موقفاً متميزاً ومتفوقاً أكثر وضوحاً في مساحات الدول المتخلفة وهناك اليوم أكثر من (٤٣٧) منظمة تمارس نشاطها الأرهابي في أكثر من (١٢٠)[27] دولة أغلبها من الدول الضعيفة التي ستضطر إلى تبديل خياراتها وأولياتها وإلى الإنشغال في مكافحة هذه الظاهرة بعد الأستعانة بالدول القوية التي تملك الوسائل العلمية والكفاءة والتقنية الحديثة وسيؤدي ذلك إلى الكثير من التدخل لأغراض الهيمنة من الدول القوية تجاه الدول الضعيفة[28].

٤- **التحدي المؤامراتي**: اليد الخفية العابثة بأستقلال الدول الضعيفة لم تعد خفية بعد الثورة العلمية والتكنولوجية. فأن نتائج تدخل الأجهزة المخابراتية ظهرت للعيان، وأصبح التسلل والتوغل بشكل أسرع وأعمق في المجالات السياسية والأقتصادية والأجتماعية وبأدوات تسبح في البحار وتسير على الأرض وتعلو في الفضاء، تدخل البيوت والقصور والمجالس والمنشآت، لتحكم قبضتها على أبرز السياسيين وأصحاب القرار لتحصل على المزيد من

---

[27] د. ضاري رشيد ياسين – الأرهاب الدولي – الأسباب والدوافع – جامعة بغداد – قسم الدراسات الأمريكية – بحث مقدم لسنة ٢٠٠٥ – ص١ .

[28] أنظر – منذر سليمان – دولة الأمن القومي وصناعة القرار الأمريكي – المستقبل العربي – العدد ٣٢٥ مايس ٢٠٠٦ ص٣٤ – ص٣٥ .

المكتسبات وخاصة تلك المتعلقة بالثروات الطبيعية في الدول الضعيفة ، وبذلك أضافت الثورة العلمية والتكنولوجية (طفرة) في القدرات الأستخبارية للدول القوية ظهر ذلك في صراعاتها الحميمة للأستحواذ على مظاهر الهيمنة في أكثر الدول الضعيفة أهمية وبالذات بعد تقارب العد العكسي لنفاذ اكثر المواد الأولية حاجة وأستهلاكاً كالنفط والمعادن.

٥- **التحدي النووي**: إتجهت دول عديدة نحو تطوير الطاقة النووية في محاولة لتقليل أعتمادها المستقبلي على النفط وقد شجع هذا الأتجاه الأوضاع المتقلبة في السوق النفطية الدولية، وقرب نفاذ هذه السلعة الأستراتيجية.

أستطاعت الدول القوية تطوير بنية تحتية للشروع لتطوير مايأتي:

* القوة النووية العسكرية.
* مشاريع الطاقة لأغراض سليمة (بدائل النفط).

وفي الحالتين لعبت التكنولوجيا العلمية الدور الأول ورتب هذا قوة لوجودها في البيئة الدولية تدعيماً لأمنها القومي مما أعطاها وصفاً مميزاً في الوضع الأقليمي والدولي والعلاقات الدولية وأيضاً خلق هاجساً أمنياً للدول الأخرى مما دفعها إلى الشروع بأمتلاك هذه التكنولوجيا العلمية بغية أمتلاك القدرة النووية لإحداث توازن إقليمي ودولي لها. بيد أن أمعان الدول القوية في إحتكار هذه التكنولوجيا وإحباط محاولات الدول الأخرى جسد وضعاً في العلاقات الدولية قائماً على:

أ. خضوع أكبر للدول الضعيفة تجاه الدول القوية طلباً للحماية.

ب. صراعاً خطيراً بين الدول القوية والدول التي تجتهد في أمتلاك التقنية النووية في خارج أعضاء النادي النووي.

ج. دخول الدول الغنية الضعيفة في حلقات أستنزاف قدرتها الأقتصادية لمراحل الأعداد والأنتاج والسلامة والمراقبة والحماية البيئية وعوزها المستمر لأمتلاك المقذوفات الجوية والأرضية والبحرية، وفي النهاية ستكون عاجزة عن اللاحق بالدول الأكثر تطوراً في هذا المجال ناهيك عن عدم أستطاعتها

تحقيق مكاسب الضربة الأولى لغياب المقدرة على نشر صواريخها النووية حول أهم الأماكن في العالم.

٦- التحدي الأقتصادي: ان الأنحياز الى توظيف القوة العلمية التكنولوجية في المضمار العسكري بدرجة الى أكبر من المضمار الأقتصادي يرتب أخلال في النظام السياسي العام، وتجربة أنهيار الأتحاد السوفيتي السابق والوضع الأقتصادي الحالي في كوريا الشمالية وباكستان والهند خير دليل على ذلك[29] فالتناقض بين المستوى التكنولوجي المستخدم في أنتاج السلع والخدمات الأستهلاكية المدنية برفع المستهلكين في العالم للأتجاه صوب السلع العالية الكفاءة والقدرة التكنولوجية الأمر الذي يحقق أنتعاشاً متصاعداً لأقتصاديات الدول القوية وتصدعاً مستمراً لأقتصاديات الدول الضعيفة الى الحد الذي يصبح به أسيرة لهذا التفوق الأقتصادي وفاقدة الأمن الأقتصادي.

---

[29] لمزيد من المعلومات – أنظر ميخائيل غورباتشوف – البيريسترويكا – ترجمة د. عباس خلف – شركة المعرفة – بغداد – ١٩٩٠ ص١٤٧ – ص١٤٨ .

الخاتمة:

تفقد الدول الغنية (الضعيفة) عناصر القوة في خيرات معطيات جغرافيتها الوطنية من الثروات الطبيعية والمواد الأولية وسلامة البيئة، أن عجزت عن خلق نظم وتشكيلات سياسية وأقتصادية وأجتماعية تواكب التطور العلمي التكنولوجي الحديث، وتصبح أكثر أسيرة للتفوق الإقليمي والدولي في هذا المجال، وتكون مسرحاً للصراعات الدولية بحكم أستقطاب التنافس المصلحي الدولي على أراضيها، وقد تتباين حدود وأحجام هذه الصراعات حسب الأهمية الجيوبولوتيكية والجيوسياسية للدول (المتخلفة) ويمكننا أن نقول هنا أن مفهوم الضعف والتخلف بفعل التطور العلمي والتكنولوجي وخاصة في مجالات القدرة لحماية الأمن القومي أصبح أكثر تقارباً في توصيف الدول في هذا السياق. بعد أن رتبت القوة العلمية عوامل تصدع وأختراق للمفاهيم التقليدية للأستقلال والسيادة والأمن، عوامل خارقة في التأثير، وصلت في تأثيراتها الى الحدود الداخلية للمجتمعات لتربك المقومات الأخلاقية والقانونية وحتى الحريات الطبيعية والمكتسبة للأفراد والجماعات، وماعاد أمام المجتمعات إلا أعطاء قيادته للعقل والعلم والتسريع في أستيعاب مضامينهما وتعبيراتهما في نظم وتشكيلات فاعلة ومتطورة لتدعيم الأمن الأقتصادي والسياسي والأجتماعي وحتى السوسيولوجي للفرد والجماعة، وبعكس ذلك ستتحول الشعوب الضعيفة الى حضيرة الأستعباد العصري القائم على التوصيفة القديمة التي عرفت العبد بأنه الأنسان الذي ينتمي الى سيد ما يتسلم منه أوامره وليس له الحق التصرف في ممتلكاته وشخصه، وهو محروم من حقوقه السياسية والأقتصادية والأجتماعية.

تعزيز الوحدة الوطنية العراقية
بين الفيدرالية والمركزية وتعديل الدستور

الدكتور
عامر حسن فياض(*)

المقدمة:

تتحدد ماهية الفيدرالية بدلالة كونها شكل من اشكال السلطة السياسية يقوم على اساس توزيع وظائف السلطة دون تركيزها او تركزها بيد فرد او اقلية حيث ان السياسة هي " فن ادارة الشأن العام" ومن يدير هذا الشأن العام يتمثل بـ(هيئة) وهذه الهيئة تقوم على:-

- اصل ومصدر شرعية سلطة هذه الهيئة سواء كان اصل ومصدر شرعية ارادي انساني (الشعب مصدر السلطة مثلاً) او غير ارادي غير انساني (الله مصدر السلطة مثلاً).
- شكل سلطة هذه الهيئة يتراوح ما بين شكل ونظام مركزي او لامركزي (ملكي – جمهوري – برلماني رئاسي ....الخ).
- وظيفة سلطة هذه الهيئة: سواء كانت لهذه الهيئة وظيفة تدخلية واسعة (اشتراكية الوظيفة) او وظيفة محددة ضيقة (وظيفة ليبرالية) او مختلطة.
- آلية تداول أو تعاقب السلطة سواء كانت آلية تعتمد الوسائل السلمية (انتخاب-استفتاء-تعيين دستوري) او تعتمد الوسائل غير السلمية لتداول السلطة وتعاقبها (ثورة-انقلاب-عصيان-اغتيال...الخ).

وبقدر تعلق الامر بما هية الفيدرالية فان امرها يتصل بشكل سلطة الهيئة التي تدير الشأن العام أي السلطة السياسية. وللاخيرة اشكال متعددة تتراوح بين السلطة ذات الشكل المركزي (سلطة الدولة الموحدة البسيطة) والسلطة ذات الشكل اللامركزي (سلطة الدولة

(*) عميد كلية العلوم السياسية- جامعة بغداد.

الفيدرالية وسلطة الدولة الكونفدرالية). وهنا فان الفيدرالية هي شكل من اشكال السلطة اللامركزية.

وبعد ذلك بالامكان تحديد ماهية الفيدرالية بدلالة المفهوم المقارب لها والمتميز عنها الا وهو مفهوم الدولة الكونفدرالية. فاذا كانت الكونفدرالية تمثل شكل لسلطة دولة لامركزية واسعة فان الفيدرالية تتمثل ايضاً بشكل لسلطة دولة لامركزية ولكنها لامركزية نسبية. ففي الفيدرالية هناك علم واحد للدولة الفيدرالية وجيش واحد وتمثيل خارجي واحد وبرلمان فيدرالي واحد مع برلمانات للاقاليم وشرطة فيدرالية واحدة مع مؤسسات شرطة ممثلة للاقاليم وخزينة فيدرالية واحدة مع وجود خزائن محلية للاقاليم. بينما الكونفدرالية تعبر عن اتحاد وحدات سياسية مستقلة (دول) لكل وحدة علم خاص وجيش خاص وتمثيل خارجي خاص وشرطة خاصة بها غير ان هناك شكل من اشكال التنسيق بين دول الاتحاد الكونفدرالي.

ان اهمية الفيدرالية ودواعها تتاتى، من حيث المبدأ، من ضرورة الانتقال من مجتمع الوحدة السياسية (الدولة) المتنوع اللامتجانس قومياً ودينياً الى مجتمع تنوع متجانس ضمن اطار وشكل من اشكال الوحدة السياسية التي تسمى بشكل الدولة الفيدرالية. والجدير بالذكر ان ١٢ دولة فقط من ٢٠٠ دولة في عالمنا المعاصر تعيش حالة تجانس ولا تعاني من مشكلة القوميات و الاقليات. بمعنى ان اكثر من ١٨٠ دولة في العالم تعيش حالة اللاتجانس القومي والديني ولكن ذلك لايعني ان هذه الدول تحتاج جميعاً الى فيدرالية بدليل انها تدار بانظمة سياسية تاخذ شكل انظمة سياسية مركزية الشكل ضمن دول بسيطة.

وتتكون النظم الفيدرالية بطريقتين:

الاولى:- طريقة اتحاد دولتين او اكثر وفي هذه الحالة فان الدول التي كانت مستقلة وتدخل الاتحاد الفيدرالي تفقد شخصيتها القانونية الدولية المستقلة.

الثانية:- طريقة تفكك دولة مركزية موحدة واعادة الاتحاد بين بعض او بين جميع اقاليم هذه الدولة ليصبح هذا الاتحاد بشكل دولة فيدرالية بعد ان كانت دولة مركزية موحدة.

ان المعايير التي تقوم عليها النظم الفيدرالية المعروفة و المالوفة في عالمنا المعاصر (كما هو الحال في الولايات المتحدة الامريكية- المانيا – سويسرا- البرازيل- الهند وغيرها) تقوم على اساس جغرافي (ولايات –اقاليم – محافظات-... الخ) وليس على اساس قومي عنصري ولا على اساس ديني طائفي.وبقدر تعلق الامر بالعراق فان المطروح اليوم فيما يخص المطالبة بالفيدرالية صيغ متعددة فالقوى السياسية القومية الكردية تفضل صيغة الفيدرالية لكردستان و الديمقراطية لكل العراق فيما تفضل اطراف اخرى من القوى السياسية غير الكردية صيغة الحكم الذاتي اما اطراف ثالثة وهي الاضعف في الخارطة السياسية العراقية، فانها تفضل الفيدرالية لكل العراق. ومقابل جميع الاطراف آنفة الذكر هناك قوى عراقية اخرى تفضل المركزيَة.

ومن دون الخوض في تفاصيل هذه الصيغ والدوافع السياسية الرغبوية التي تكمن ورائها نقول من حيث المبدأ ان الفيدرالية لا خشية منها عندما تقوم على شرطين لا ثالث لهما:

الشرط الاول:- ان تقوم الفيدرالية على معايير جغرافية اقليمية وليس على اساس معايير قومية عنصرية ولادينية ولاطائفية.

الشرط الثاني:- ان تكون ديمقراطية المشاركة وليس ديمقراطية الموافقة (ديمقراطية التأييد) هي اساس ممارسة السلطة الفيدرالية و سلطات الاقاليم المحلية.

واذا كانت ديمقراطية الموافقة تقوم فقط على اساس التأييد الشعبي للقرار السياسي السلطوي فان ديمقراطية المشاركة تقوم على اساس المشاركة الشعبية في صنع القرار السياسي.

ان شروط تحقق ديمقراطية المشاركة في العراق وفي غيره من بلدان العالم تتمثل بالإقرار والتجسيد العملي للحقائق والمبادئ الاتية:

١. اقرار حقيقة التنوع في المجتمع العراقي لا سيما التنوع القومي و الديني.
٢. اقرار مبدأ حق الاختلاف بين التنوعات القومية و الدينية .

٣. اقرار حقيقة ان تعبر جميع هذه التنوعات القومية والدينية على السواء عن مصالحها ورغباتها ومطالبها وطموحاتها عن طريق تنظيمات عصرية تتمثل بمؤسسات المجتمع المدني (احزاب – نقابات – جمعيات– اتحادات ...الخ) وليس عن طريق مؤسسات تقليدية (عشائرية او طائفية).

٤. اقرار مبدأ التداول السلمي او التعاقب السلمي للسلطة على المستويات الفيدرالية والمحلية. وهذا التداول يقوم على استبعاد كل وسائل العنف في التعامل ما بين التنوعات في المجتمع العراقي والقوى السياسية العصرية لهذه التنوعات الامر الذي يتطلب اتفاق جميع القوى ومؤسساتها المدنية على الاساليب السلمية المتمثلة بالانتخابات والاستفتاءات والمبايعة ضمن خطابات سياسية تؤمن بعلاقات الحوار وترفض علاقات الاقتتال والاحتراب.

ان فيدرالية تقوم على ما تقدم من شروط سوف لا تتعارض مع الوحدة الوطنية العراقية بقدر ما تخدم وتجسد هذه الوحدة فالدولة الفيدرالية التي يقوم جيشها على المحاصصة القومية والطائفية لاتخدم الوحدة الوطنية.

والدولة الفيدرالية التي يقوم برلمانها الفيدرالي على اساس المحاصصة القومية والطائفية لا تخدم الوحدة الوطنية.

والدولة الفيدرالية التي تقوم اجهزة امنها وشرطتها وبقية اجهزة السلطة التنفيذية الفيدرالية فيها (الوزارة الفيدرالية مثلاً) على اساس المحاصصة القومية العنصرية والدينية الطائفية لا تخدم الوحدة الوطنية.

اذن الوحدة الوطنية لا تصان بالمركزية القسرية ولا بالفيدرالية القائمة على اساس قومي عنصري او ديني طائفي بل انها تصان بالديمقراطية الحقيقية (أي ديمقراطية المشاركة) وفي اطار فيدرالية لكل العراق.

ومن باب الحرص على الخصوصية القومية الكوردية وكذلك العربية المقترن بالتفهم العقلاني لدور الكورد وقواهم السياسية في تاريخ الحركة الوطنية الاستقلالية الديمقراطية العراقية منذ ثورة محمود الحفيد ١٩١٨ حتى دورهم في اسقاط النظام الدكتاتوري في نيسان

عام ٢٠٠٣. من باب هذا التفهم نرى ضرورة ان يتم الاقرار الدستوري اولاً ومن حيث المبدأ بالفيدرالية لكل العراق على اساس فيدرالية المحافظات. وفي الوقت نفسه يكون هناك اقرار دستوري ايضاً بامكانية اقامة علاقات تعاونية بين محافظين او اكثر بصيغ التنسيق او التضامن وصولاً الى صيغة الاندماج. على ان تكون اقامة هذه الصيغ مشروطة بشرط ديمقراطي يتمثل بموافقة الاغلبية المطلقة (بواقع ٥٠+١) للمجالس التمثيلية المنتخبة لهذه المحافظات.

عندها سيكون من الطبيعي ان يضمن الكورد بالديمقراطية وليس بغيرها كيانية كردية في كردستان العراق وهذه امكانية لم تتاتى وفق المعيار القومي بل ستأتي وفق المعيار الديمقراطي.

ومن هنا تاتي اهمية دعوتنا للجميع للانشغال اساساً بالديمقراطية وبالبناء الديمقراطي. وهذا الانشغال سيكون كفيلاً بحل كل الموضوعات الخلافية وعلى راسها موضوع الفيدرالية.

وعليه فان القاسم المشترك لعدم الخشية من الفيدرالية من جهة وعدم الخوف على الوحدة الوطنية من جهة اخرى يتمثل بالديمقراطية و بالمزيد من الديمقراطية أي بديمقراطية المشاركة والمزيد من ديمقراطية المشاركة.

وان منطلق هذه الديمقراطية يتمثل بالمواطنة اولاً واخيراً اما القانون الذي يحكم هذه الديمقراطية فانه يتوجب ان يسود العراق الديمقراطي قانون يصنع بـ(رأي الاغلبية ورضا الاقلية) ففي كل المؤسسات التمثيلية الفيدرالية والمحلية في كل العراق شمالاً ووسطاً وجنوباً قد تكون الاغلبية كردية والاقلية عربية او تركمانية كما في بعض المحافظات الشمالية (السليمانية، اربيل، دهوك) وقد لا تكون الاغلبية مطلقة لقومية على اخرى كما في محافظة كركوك وقد تكون الاغلبية شيعية والاقلية سنية في محافظة او اكثر من محافظات العراق الوسطى والجنوبية وقد تكون الاغلبية سنية والاقلية شيعية في محافظات عراقية اخرى وقد يكون فلا ضرر ولا ضير ولا خوف من هذه الاغلبيات ولا من هذه الاقليات لان السيادة في العراق الفيدرالي ستكون فقط لديمقراطية مشاركة منطلقها (حق المواطنة اولاً واخيراً) وقانونها مصنوع بـ(رأي الأغلبية ورضا الأقلية).

ولما كانت الديمقراطية شرطاً لازماً لكل من الوحدة الوطنية والفيدرالية فان هذا الشرط اللازم يفترض ان يكون السيد المهيمن والحاضر السرمدي في الدستور. الامر الذي يقتضي بالنتيجة تعديل الدستور بما يضمن هيمنة وسيادة وحضور هذا الشرط أي شرط الديمقراطية. فلماذا وكيف السبيل الى تعديل الدستور؟

نحتاج هنا الى افكار تهدي الى رسم خارطة طريق للانتقال بالعراق الى المستقبل، بمعنى الانتقال بالعراق من واقع مجتمع سياسي (متنوع غير متجانس) الى واقع مجتمع سياسي (متنوع متجانس). وان فتح مغاليق مستقبل العراق يحتاج الى مفتاح مناسب وهذا المفتاح المناسب يتمثل، بانعقادنا، اساساً بالدستور الذي يعد بمثابة معطيات مهمة من معطيات ما بعد الانتخابات العراقية للجمعية الوطنية من جهة وما بعد الاستفتاء الدستوري من جهة ثانية.

وقبل ان نكتب عن ما بعدية الانتخابات والاستفتاء فقد اضحى من المعروف ان الانتخابات تمثل افضل الاليات التي عرفتها شعوب البلدان المتمدنة لتشكيل الدولة وبناء السلطة السياسية وتوليها وممارستها. فبهذه الآلية ومن خلالها تتأكد الشرعية والمقبولية كما يتاكد الرضى الشعبي عن السلطة السياسية ومؤسساتها بعد ان غادرت معظم شعوب عالمنا المعاصر وانظمتها السياسية مصادر اخرى للشرعية غير الانتخابات مثل مصادر القوة والحرب والثورة والانقلاب والاغتيال والوراثة وغيرها من الآليات الدموية العنيفة او التقليدية العتيقة.

اما الاستفتاء الدستوري الذي شهده العراق مؤخراً فانه لا يمكن ان يمثل نهاية العلمية الدستورية بقدر ما يمثل حلقة مهمة في سلسلة حلقاتها المتوالية ابتداءاً من حلقة وضع المبادئ والمنظمات الدستورية الاساسية وصولاً الى تعديل الدستور وما بينهما المرور بحلقتي الدستور واقرار الدستور.

المناخات السلمية لمستقبل العملية السياسية

ان حلقة تعديل الدستور تعيد الى الذهن مكانة الدستور بوصفه المفتاح الرئيس لمغاليق المستقبل السليم للعملية السياسية في العراق الجديد. بيد ان سلامة المستقبل هنا تحتاج الى اجواء سليمة ونظيفة ونقية للبيئة المجتمعية العراقية الحاضنة للعملية السياسية عموماً، وتحتاج ايضاً الى ذات هذه الاجواء للعملية الدستورية لفترة ما بعد اقرار الدستور بالاستفتاء ولفترة ما بعد التعديل القادم للدستور الحالي.

وبقدر تعلق الامر بالمناخين الخاص والعام فان العملية السياسية في العراق ينبغي ان توصف كيما تكون عملية سياسية سلمية بانها عملية ديمقراطية. والديمقراطية الحقة تفهم ببساطة وتمارس بحق بوصفها ديمقراطية تقوم على ما يأتي:

١. توافر الاقرار المجتمعي الدستوري بحقيقة التنوع السياسي والقومي والديني والعشائري في العراق الجديد.

٢. توافر الاقرار المجتمعي والدستوري بحق الاختلاف (وليس الخلاف والنزاع) ما بين المتنوعين سياسياً وقومياً ودينياً ومذهبياً وعشائرياً في العراق الجديد.

٣. توافر الاقرار المجتمعي والدستوري بحق المتنوعين سياسياً وقومياً ومذهبياً وعشائرياً في العراق الجديد بالتعبير عن مصالحهم ومطاليبهم ورغباتهم السياسية فقط من خلال مؤسسات سياسية مدنية عصرية متحضرة أي من خلال مؤسسات مجتمع مدني (احزاب، نقابات، جمعيات، روابط، اتحادات، منتديات..الخ)، وليس من خلال مؤسسات تقليدية غير متمدنة وغير متحضرة كالتنظيمات السياسية العنصرية القومية او الطائفية الدينية او الاجتماعية العشائرية.

٤. توافر الاقرار المجتمعي والدستوري بمبدأ التداول السلمي للسلطة. ويترتب على هذا الاقرار الالتزام (فكراً وسلوكاً) بالمبادئ الاساسية للديمقراطية وابرزها اعتماد آلية الانتخابات الحرة النزيهة في الوصول الى السلطة وممارستها، مع اعتماد التعددية السياسية بشقيها (التعددية الحزبية وتعددية الرأي)، واعتماد مبدأ المواطنة لتحدي

العلاقة بين الفرد والدولة، واعتماد الصحافة الحرة، واحترام سيادة القانون وحقوق الانسان مع الاحتفاظ والحفاظ على سلطة قضائية مستقلة.

الحملة من اجل التسامح والسلم الاهلي

وفي سياق توفير البيئة السلمية للعملية السياسية الديمقراطية في العراق الجديد لابد من تجاوز الكثير من الصعوبات والتعقيدات التي تعرقل السلم الاهلي والتي تتحكم بالواقع السياسي العراقي الحجالي. وهذه الصعوبات وتلك التعقيدات تفصح عنها جملة اسئلة ومجموعة تساؤلات تتصل باشكاليات استكمال السيادة وصولاً الى الاستقلال الناجز وإشكالية تجاوز الارث الدكتاتوري القديم والجديد وصولاً الى الديمقراطية واشكالية تغليب الهوية الوطنية السياسية والمدنية العراقية على الهويات السياسية غير المدنية الفرعية (القومية العنصري، الدينية الطائفية، الاجتماعية العشائرية).

وان الاجابة عن كل هذه التساؤلات غير كافية لوحدها دون الوحدة الوطنية من تحديد مستقبل العراق بين البقاء ككيان ديمقراطي متحد مستقر وآمن وبين استمرار العنف والصراع القومي والطائفي بما يكرس التقسيم الفعلي للعراق.

فما دام العراقيون يخشون بعضهم بعضاً ستبقى قوى الاحتلال ضرورة لبعضهم وربما لجميعهم. ومن يريد حقاً انهاء الاحتلال الاجنبي واستكمال السيادة وتحقيق الامن فعليه ان يسهم في بناء الوحدة الوطنية العراقية اولاً.

وان اتول آليات تحقيق الوحدة الوطنية العراقية هي تنظيم حملة وطنية عراقية من اجل التسامح والتعايش الوطني.

فكيف؟ ومن اين نبدأ هذه الحملة؟

ان ماساة العراق اليوم هي في حالة الانقسام الطائفي والاثني التي اخذت تهدد السلم الاهلي والانزلاق نحو حرب أهلية. والحروب الاهلية لا يخطط لها دائماً بقدر ما تنزلق لها مكونات الشعب الواحد وهذا ما شهدته لبنان والسودان والجزائر. فالسؤال الذي يواجه كل

عراقي هو كيف يتم توقيف التدهور نحو هاوية الاقتتال الاهلي؟ فقد سقط من العراقيين مئات الالاف منذ احتلال بغداد وان اغلبهم سقط على يد العراقيين انفسهم.

ان دورة الاقتتال الاهلي لها حياتها الخاصة، وغالباً ما استغرقت سنوات قبل ان يهب من يعمل على وضع نهاية لها. فلبنان عاش سبعة عشرة عاماً في ظل الاقتتال الاهلي، وفي الجزائر استمرت اكثر من عشر سنوات، اما في السودان فقد دامت اكثر من عشرين عاماً. وفي كل هذه الحالات لم يخر طرف منتصراً فيها، بل كان كل الشعب ضحيتها، وما كان سبيلاً لانهائها الى على قاعدة المصالحة الوطنية، فهل ننتظر عقداً او اكثر قبل ان تنتهي عبثية الحالة العراقية القائمة؟ واذا كان البعض يحمل الحكومة والاحتلال المسؤولية فان هذا لا يعفينا كمواطنين من تحملَ مسؤوليتنا في التصدي للمأساة.

ومن هنا نطلق الدعوة الى حملة من اجل التسامح والسلم الاهلي، والسبيل الفعلي لذلك لا يتم عبر السلاح بل من خلال مصالحة وطنية، وما يتمخض عنها من ارادة مشتركة لوقف العنف بكل اشكاله.

ان موضوعة المصالحة ليست بالجديدة، فقد سبق ان طرحت ابان العهد السابق، كسبيل الى خروج العراق وشعبه المطحون بين سنديان العقوبات الدولية ومطرقة النظام الدكتاتورية القمعية، بيد ان النظام السابق رفض المصالحة وبدلاً من ان يقدم التنازلات لشعبه قدمها للاجنبي عبر القرارات الدولية التي جعلت من العراق وشعبه فاقد السيادة والحرية معاً. كما رفضت المعارضة العراقية المصالحة رغم انها لم تكن قادرة على اسقاط الدكتاتورية اعتماداً على قواها الخاصة وفضلت التحالف مع القوى الخارجية التي مهدت لاحتلال العراق. ولابد من فهم هذه التجربة والاستفادة من دروسها لفهم افضل لموضوعة الحملة الوطنية من اجل التسامح والسلم الاهلي.

فالمصالحة الجادة لابد من ان ترافقها مصارحة: المصالحة من من؟ وبين من؟ أي ن هم اطراف المصالحة؟ فأي تشخيص ناقص أو محاولة لاستبعاد طرف من دون آخر قد تجهض العملية بالأساس. كما ان المطلوب هو تشخيص مسؤولية الاطراف المعنية عن الحالة التي نعيشها: النظام السابق، قوى المعارضة العراقية آنداك حزب البعث، المليشيات المسلحة،

الاحتلال والقوى المتحالفة معه، دول الجوار، وأخيراً مسؤولية النخب الفكرية والثقافية عن غياب ثقافة الحوار والتسامح.

ان نجاح هذه العملية لا يتم بصفقات في غرف مغلقة، بل لابد من فتح باب الحوار الوطني على مصراعيه من دون ارهاب فكري او اجتماعي، الامر الذي يدع الى التساؤل لماذا لم تفتح ابواب مثل هذا الحوار؟ ولماذا وقفت الحكومات المتتالية منذ الاحتلال ضد عقد مؤتمر حوار ومصالحة وطنية، خاصة ان الفرصة كانت متاحة في قمة شرم الشيخ العربية في تشرين الثاني ٢٠٠٤ عندما تم اقتراح عقد مثل هذا المؤتمر هذا ولكن حكومة بغداد ومن ورائها واشنطن رفضته.

وزيادة على أهمية مؤتمر التوافق العراقي في القاهرة فإن بإمكان العملية الدستورية أن فهمت كعقد بين مكونات وفعاليات الشعب الواحد، أن تسهم في مثل هذا الحوار. وإن نجاح العملية الدستوري (وليس مجرد كتابة الدستور فقط) في دول خارجة من صراعات عملية في غاية الدقة والحساسية وتتطلب مناخاً يسوده الوئام الاهلي لضمان مقبولية الدستور والتزام الأطراف المعنية به. فالسلم الأهلي يجب أن يسبق أو يرافق عملية كتابة الدستور كما يجب أن يرافق أيضاً عملية تعديل الدستور.

هناك حاجة ايضاً للتصدي لإشكالية الاحتلال، وكيفية التعامل معه من أجل استكمال السيادة وتحقيق الأمن؟ فتأسيس الدولة العراقية الحديثة مر عبر تآلف وطني مناهض للاحتلال البريطاني كرس الوحدة الوطنية خاصة بين عرب العراق من شيعة وسنة. كما أن حركة التحرر الوطني العراقية في الثلاثينات حتى الخمسينات ساعدت على تكريس هذه الوحدة.

الاشكالية اليوم في اختلاف العراقيين بشأن الاحتلال، فخشية بعضنا بعضاً جعل من بقاء الاحتلال خياراً مقبولاً بل ضرورياً عند بعضهم، وبعضهم الآخر يريد اخراجهم بأمل الانتقام ممن ان وجود القوات الاجنبية يشكل حماية له، وآخر يبحث عن حليف أجنبي لحمايته في حال انسحاب القوات الامريكية. وبين هذا وذاك من له أجندة سياسية تتجاوز العراق يريد البلاد ساحة حرب ضد "عدو عالمي". والمفارقة بين الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٥-

١٩١٨ والاحتلال الامريكي عام ٢٠٠٣ هو أن الأول وحد ثلاث ولايات (الموصل، البصرة، بغداد) وجعل منها العراق، والآخر اخذ يفككها.

في ضوء ذلك هل بالامكان إنهاء الاحتلال الامريكي خارج إطار الوحدة الوطنية؟ واذا كانت الأخيرة ضرورة فكيف الوصول اليها؟ وما اثر انسحاب امريكا في غياب مصالحة وطنية؟

وما مسؤوليتنا من الظاهرة الجديدة في المشهد العراقي المتمثلة باستعداد قوى سياسية قاطعت الانتخابات السابقة دخول اللعبة السياسية والتي تتعرض بسبب ذلك للقتل من قبل عناصر تكفيرية ذات أجندة اسلامية متشددة؟

إن المباحثات الدستورية على أقصر أمدها كشفت عمق التناقض بين العراقيين بشأن "الهوية". فكلمة عراقي والعراقية لم تعد بالنسبة لقطاعات مختلفة كافية لتحديد هويتنا الوطنية. المطلوب أن نعرف من نحن أولاً وقبل أن نبحث عن كيفية العيش على أرض مشتركة. ففي غياب إرادة العيش المشترك يبقى الكيان العراقي مهدداً بالانقسام، فليس هناك زواج بالإكراه. ولكن قبل أن نصدر حكماً بالطلاق علينا فهم القضايا الخلافية وفيما إذا كان بالإمكان إيجاد حلول وسط تحمي مصالح الجميع عبر تنازلات متبادلة.

وتأسيساً على ما تقدم لابد من بداية حملة وطنية عراقية ترافق تعديل الدستور وما بعد التعديل، من أجل التسامح والتعايش الوطني تبدأ بسلسلة من اللقاءات تشارك فيها شخصيات فكرية وسياسية واجتماعية ودينية معنية بالشأن العراقي بعيداً عن أي انحياز حزبي أو سياسي أو فئوي بامل إنضاج الفكرة والسبيل الى تجسيدها بخطوات عملية بالتعاون مع مؤسسات فكرية إقليمية ودولية للوصول الى قناعة مشتركة مع إحدى مؤسسات الامم المتحدة المعنية بالشأن، العراقي للمباشرة في العملية وبدعم منها.

إن استعداد الامم المتحدة للمساعدة في عملية التسامح والسلم الأهلي يحمل اصحاب هذه المبادرة من العراقيين مسؤولية خاصة، بدأ بتحديد هويتهم. فهل أنهم مجرد طرف أو نخبة تنويرية؟ أو مجموعة تعمل لخلق قوة ضغط شعبية على الأحزاب والقوى الحاكمة. أم أنهم أداة تنفيذية لخطوات عملية ولو كانت رمزية؟ أو أنهم كل ذلك معاً؟ ولكن الشيء الذي لا

يجب أن يكون عليه اصحاب الحملة هو التحول الى حزب أو قوة سياسية جديدة لتدخل ساحة التنافس من أجل السلطة.

ان العراق والعراقيين بحاجة الى منبر بل منابر أخلاقية تنأى بنفسها عن لعبة السلطة لتصبح الجسر بين العراقيين بما يصلح ذات الشأن، وتستبق كارثة على الوطن والمواطن اسمها الحرب الأهلية في العراق.

عندها نتمكن من فك رموز العلاقة العكسية ما بين السيادة والاحتلال حيث ان الزيادة في استكمال السيادة تعني التآكل في جرف الاحتلال. وهذه العلاقة العكسية ستنتهي، بالنتيجة، الى تحقيق الأمن والأمان طالما بقيت العملية الدستورية الديمقراطية متواصلة.

إن كل هذه المناخات الصحيحة لنجاح العملية السياسية وضمان مستقبلها الديمقراطي للعراق الجديد ابتداءاً بالانتخابات ثم الاستفتاء الدستوري مع حملة تسامح وتوافق من أجل السلم الأهلي ستظل رغم ضرورتها وأهميتها الكبيرة مناخات غير كافية لنجاح العملية السياسية ومستقبلها الديمقراطي في العراق دون استكمال عملية تعديل الدستور بما يجعل منه مرجعية وطنية وقاسم مشترك بين الجميع.

ان عملية تعديل الدستور بالنوايا والافعال آنفة الذكر تعيد الى الذهن؟ كما أسلفنا، تلك الماكنة (المفتاح) الدستور العراقي رسم مستقبل العملية السياسية للديمقراطية في العراق.

فما هي أهمية تعديل الدستور؟ وأي نصوص دستورية تستوجب التعديل؟

الوصول الدستورية الذهبية

قبل ومن أجل الإجابة السليمة على التساؤلات المصتلة بتعديل الدستور نحرص على ذكر وصايا ذهبية تستحضرها دائماً عقول المهتمين أو الذين يرغبون، حقاً الاهتمام بالشأن الدستوري ليجعلوا من الدستور (المفتاح) و(المرجعية الوطنية) و(القاسم المشترك بين الجميع).. وهذه الوصايا هي:

الوصية الاولى: ان وظيفة القاعدة الدستورية تتمثل بتسوية الخلافات والنزاعات وليس بوظيفة إنتاج وإعادة الخلافات والنزاعات في المجتمع السياسي.

الوصية الثانية: إن العلاقة بين الرضا العام والقبول التام عن الوثيقة الدستورية وبين كثرة الإقصاءات والاستثناءات في نصوص هذه الوثيقة هي علاقة عكسية. فكلما زادت الاقصاءات والاستثناءات تقل المقبولية التامة ويتناقض الرضا العام عن هذه الوثيقة.

الوصية الثالثة: ينبغي أن تحضن الوثيقة الدستورية بادئ ومنطلقات عامة تضمن التوافق وبالتالي الشراكة بين جميع مكونات المجتمع السياسي من جهة وينبغي ان تتجنب نصوص هذه الوثيقة، قدر الامكان، الانشغال بالتفاصيل التي تثير، في الغالب، النزاعات والخلافات، لان في التفاصيل، كما يقال (تكمن الشياطين).

الوصية الرابعة: إن ضوع قاعدة دستورية صحيحة، غير قابلة للتطبيق اليوم وقابلة للتطبيق غداً أو بعد غد، أفضَل بكثير من وضع قاعدة دستورية ناقصة وغير صحيحة قابلة للتطبيق اليوم وإن تطبيقها بعد هذا اليوم تحت مزعم (الواقعية) يكون كارثياً. فليس كل ما هو (واقع) صحيح، وليس كل ما هو صحيح واقع.. والأهم، من أجل المستقبل، ودستورياً يتمثل بكل ما هو صحيح اليوم وغداً سواء كان هذا الصحيح واقعاً ملموساً اليوم أو صحيحاً ملموساً غداً او بعد غد.

الوصية الخامسة: كل وثيقة دستورية يمكن ان تحتوي الغام ومعطلات الألغام والخطورة لا تكمن فقط في الالغام، بل في تعطل معطلات الألغام ايضاً. وعلى صناع الدستور والمشتغلين على تعديله أن يحذروا من زرع الألغام في هذه الوثيقة كي لا يضيعوا الوقت في وضع معطلات لهذه الألغام من جهة ولكي يعفوا أنفسهم والآخرين من التفكير والخوف عند تعطيل هذه المعطلات من جهة ثانية/ ولكي يتخلصوا من الخوف المترتب على هذا التعطيل المسبب لفاجعة إنفجار الألغام بعد تعطل معطلاتها من جهة ثالثة.

الوصية السادسة: كل الوثائق الدستورية الديمقراطية السليمة تقوم على اساس التوافق او التوافقية. غير ان هذه التوافقية او ذلك التوافق ينبغي أن يكون سياسياً. أي محكوماً بالمعايير السياسية المدنية وليس بمعايير المحاصصة العنصرية والطائفية

والعشائرية. لأن المعايير الأخيرة تجعل من هذه الوثيقة الدستورية مجرد لباس عصري متمدن لحشوة تقليدية غير متمدنة.

الوصية السابعة: ان صناعة الوثائق الدستورية الديمقراطية وتطبيقاتها بعد الصناعة تقوم على اساس مبدأ الشراكة والمشاركة وليس على اساس التفرد والهيمنة لفريق من فرقاء المجتمع السياسي. وان كل فريق من هؤلاء الفرقاء في المجتمع السياسي يفكر ويعمل على اساس انه المنتصر في هذه الوثيقة الدستورية على الفرقاء الاخرين فان تفكيره هذو وعمله ذاك هو بداية هزيمته وبداية الخسارة لكل الفرقاء.

الوصية الثامنة: ان الوثيقة الدستورية الديمقراطية هي المستلزم التأسيسي والاساسي لبناء دولة قوية (مع) المواطن، وليست لها الامكانية في ان تكون (ضد) المواطن.

الوصية التاسعة: ان الوثيقة الدستورية الديمقراطية لدولة فيدرالية (اتحادية) لا تسمح بتقطيع السلطة السياسية ولا بتركيزها وتركزها، بل تسمح بتوزيع وظائف السلطة وصلاحيات مؤسساتها التشريعية والتنفيذية والقضائية ما بين المركز (العاصمة) والاطراف (أقاليم، مقاطعات، ولايات، محافظات).

الوصية العاشرة: ان وجود نص دستوري يؤكد استقلال الدولة وسيادتها ووحدتها ارضاً وشعباً يجعل من المطالبة بالاستقلال التام واستكمال السيادة مطلباً مشروعاً ومسعى لا اعتراض ولا غبار عليه. فالافضل لمواطن هذه الدولة ان يطالب باستكمال السيادة والاستقلال بوجود مثل هذا النص الدستوري من ان يطالب باستكمال السيادة والاستقلال دون وجود هذا النص الدستوري.

نضع هذه الوصايا ونأمل ان نكون موضع انتباه اللجنة الدستورية البرلمانية التي ستتولى النظر في تعديل الدستور.

النصوص التي تستوجب التعديل

من دون ان نكون مداحين بشكل مطلق او قداحين بشكل مطلق نسمح لانفسنا القول ان هذه (الوصايا) تم الاخذ ببعضها بعين الاعتبار عندما تمت كتابة الدستور العراقي. بيد ان الموضوعية تقتضي ان نسجل ما هو لصالح هذه الوثيقة من حسنات وما عليها من سيئات تستوجب المراجعة والاصلاح والتعديل.

ان هذه الوثيقة تحمل بين طياتها لا سيما في ديباجتها اطاراً عاماً مقبولاً للفلسفة التي يقوم عليها الدستور. ورغم طابعها الخطابي الانشائي المشوش، والتفاتها الى الماضي اكثر من تطلعها نحو المستقبل فانها تضمنت مبادئ ومنطلقات اساسية مهمة....

- فكل مواطن عراقي يريد ان يدافع عن استقلال العراق وسيادته عليه ان يعتمد على هذه الوثيقة (انظر الديباجة وكذلك المواد (١، ٥٠، ٦٧) على سبيل المثال لا الحصر).
- كل مواطن عراقي يريد ان يدافع عن وحدة العراق (شعباً وارضاً وسيادة) عليه ان يتكأ على هذا الدستور (انظر الديباجة مثلاً).
- ويستطيع ان يعتمد على هذا الدستور كل عراقي يريد ان يدافع عن (دولة القانون، الوحدة الوطنية، التداول السلمي للسلطة، مبدأ التوزيع العادل للثروة، مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، مبدأ المواطنة) (انظر الديباجة والمادة ١٨ على سبيل المثال).
- ان من يريد ان يكافح الطائفية والعنصرية عليه ان يلجأ الى هذا الدستور (انظر الديباجة).
- ان من يريد ان ينبذ ويكافح الارهاب ويبعد العراق من ان يكون مقراً او ممراً ٣١ ساحة للنشاط الارهابي عليه ان يعتمد هذا الدستور (المادة ٧ الفقرة الثانية).
- في هذا الدستور وبين طياته نتلمس مبدأ (تدويل الدستور الوطني) لا بمعنى العدمية الوطنية بل بمعنى ضمان المقبولية الدولية لهذه الوثيقة الوطنية (انظر المادة ٨ و ٩ الفقرة هـ والمادة ٢١ الفقرة الثالثة).

- وهتلمس في هذا الدستور مبدأ علوية الدستور (المادة ١٣) ومبدأ المساواة سياسياً بين الرجل والمرأة في التصويت والانتخاب والترشيح (المادة ٢٠)...
- ان ما تقدم هو غيض من فيض ايجابي احتضنه الدستور.. اما الاخفاقات والاسقاطات بل الالغام التي زرعت فانها كثيرة ايضاً ولا بد من ان ينوشها التعديل القادم للدستور ونذكر ابرزها:

١. اللغم ضد مبدأ المواطنة ويتمثل في المادة ٩ في الفقرة الاولى:

أ. تتكون القوات المسلحة العراقية والاجهزة الانية من مكونات الشعب العراقي... والصحيح المقترح ان ترفع كلمة (مكونات) لتكون بدلها كلمة (ابناء) او (مواطني) الشعب العراقي. لان (المكونات) قد تفسر تفسيراً يجعل من القوات المسلحة والاجهزة الامنية تشكيلات لقوميات وطوائف وعشائر بحجة انها مكونات.

ب. يحظر تكوين ميليشيات عسكرية خارج اطار القوات المسلحة... والصحيح المقترح يحطر تكوين ميليشيات عسكرية داخل و خارج اطار القوات المسلحة.

٢. اللغم المتعارض مع الاتجاه الديمقراطي التحرري المتمثل بالمادة ٢٩ الفقرة"أ" التي تنص على ان (الاسرة اساس المجتمع) والصحيح المقترح لتعديل النص على ان (الفرد اساس المجتمع والمواطن اساس الدولة..).

٣. لغم الفوضى الاجتماعية المتعارض مع النظام الاجتماعي المدني المتمثل بالمادة ٤١ التي تريد من العراقيين ان يكونوا (احراراً) في تكبيل وتقييد انفسهم باحوالهم الشخصية حسب دياناتهم او مذاهبهم او معتقداتهم او اختياراتهم. أي تكريس (قوانين) رجولية غير مدنية الامر الذي يؤدي الى فوضى مدنية ويتعارض مع ابسط حقوق الانسان ومع الحقوق

والحريات المستحقة للمرأة بصفتها مواطنة من المـــواطنين الاحـــرار. وأفضل المقترحات هو الغاء هذه المادة اساساً.

٤. لغم العشائر ومؤسسات المجتمع المدني المتمثل بالمادة ٤٥ التي جمعـت بغرابة بين حرص الدولة على "تعزيز دور مؤسسات المجتمـع المـدني و"النهوض بالقبائل والعشائر العراقية" ومثلها كمثل الذي يقدم لك شـراباً محلى بالملح او مملح بالسكر.

٥. لغم تكوين المحكمة الاتحادية العليا المتمثل بالفقرة الثانية من المـادة ٩٢ الذي ينص على ما يفيد ان المحكمة الاتحادية العليا تتكون من (عدد من القضاة، وخبراء في الفقه الاسلامي...) بينما العضوية هنـا ينبغـي ان تكون قضائية قانونية فنية تخصصية تستعين بخبراء عـراقيين دون ان يكونوا اعضاء من التخصصات الاخرى غير القانونيـة ومـن الفقهـاء العراقيين ذوي الخبرة في كل الاديان والمذاهب.

٦. لغم النفط والغاز المتمثل بالمادة ١١١ التي تنص على ان "النفط والغـاز هو ملك الشعب العراقي في كل الاقاليم والمحافظات" وماذا عـن بقيـة الثروات الطبيعية غير النفط والغاز؟

٧. لغم النفط والغاز (المستخرج حالياً) المتمثل بالمادة ١١٢ التـي حـددت للحكومة الاتحادية فقط وظيفة ادارة النفط والغاز المستخرج من الحقول الحالية وماذا عن الحقول المستقبلية؟.

٨. لغم تغويل قانون الاقاليم والمحافظات وتقزيم القوانين الاتحادية المتمثـل في المادة ١١٥ التي اكدت في حالة الخلاف بـين الحكومـة الاتحاديـة والاقاليم والمحافظات فيما يتصل بالصلاحيات المشتركة تكون "الاولوية فيها لقانون الاقاليم والمحافظات غير المنتظمة فـي اقلـيم". والـصحيح المقترح ان يترك الحكم في تحديد الاولوية للمحكمة الاتحادية العليا.

٩. لغم الشرط السهل للموضوع المعقد والخطر المتمثل بالمادة ١١٨ التي تنص على ان "يسن مجلس النواب في مدة لا تتجاوز ستة اشهر من تاريخ او جلسة له، قانوناً يحدد الاجراءات التنفيذية الخاصة بتكوين الاقاليم، بالاغلبية البسيطة للاعضاء الحاضرين" أي اغلبية ٥١ بالمئة من الحاضرين وهو شرط سهل تحقيقه لقضية معقدة وصعبة.

ويزيد على ذلك ان المادة ١١٨ أكدت هذا الشرط السهل (استفتاء اغلبية المصوتين) لنفس القضية المعقدة والخطرة الا وهي قضية تكوين الاقاليم، اعتماداً على المادة (١٣١) التي تؤكد ان (كل استفتاء وارد في هذا الدستور يكون ناجحاً بموافقة اغلبية المصوتين، مالم ينص على خلاف ذلك). بمعنى ان نجاح الاستفتاء المشروط لتكوين الاقاليم يعتمد شرط (اغلبية المصوتين) وهو الشرط السهل لموضوع معقد وخطير.

١٠. الغاء المادة ١٢١ المتمثلة بلغم تعديل تطبيق القانون الاتحادي في الاقليم (الفقرة ثانياً) المؤدية الى تغويل سلطة الاقاليم التشريعية الاتحادية. وبلغم مكاتب الاقاليم والمحافظات في السفارات والبعثات الدبلوماسية (الفقرة رابعاً) وبلغم (حراس الاقليم) التي قد تفسر بسهولة وبجهد مريح بانها تعني (جيش) الاقليم (الفقرة خامساً) الامر الذي يجعل من العبارة الاخيرة في هذه الفقرة (حراس الاقليم) بمثابة الزائدة الدودية المتورمة والقابلة للانفجار والصحيح المقترح هنا رفع هذه العبارة والاكتفاء للاقليم بـ(قوى الامن الداخلي للاقليم) كالشرطة والامن فقط.

الفيدرالية والديمقراطية

الدكتور
سعدي كريم سلمان(*)

المقدمة:

بات الاتفاق شبه التام على إن الديمقراطية هي الحل الإنساني الأكثر ترجيحا ونجاحا حتى الآن للمشكلات السياسية للحياة الاجتماعية، ومن ثم تعاظم الاهتمام بها واتسع نطاق المطالبة بتحقيقها في كل المجتمعات والأوساط، ولو لأسباب وأهداف متنوعة بقدر ما هي متباينة إن لم تكن متعارضة ومتقاطعة .

فأصبحت الديمقراطية في عالمنا المعاصر مطلبا عاما في بعض المجتمعات، وأصبحت هناك حركة تكاد أن تكون عالمية النطاق تهدف إلى "دمقرطة" النظم السياسية فرضت نفسها على العديد من البلدان خارج نطاق النظم الغربية[1]. وذلك لكون الديمقراطية أثبتت قدرتها النسبية على إدارة أوجه الاختلاف وتعارض المصالح في إطار الجماعة الواحدة، أو بين الجماعات المتعددة، داخل الدولة وسمحت بالاستقرار السياسي في البلدان التي اتخذت من الديمقراطية نظاما للحكم ومنهجا رسميا وأهليا لإدارة الشؤون العامة[2].

وإذا كانت الديمقراطية قد أثبتت نجاعتها بإيجاد الحلول للمشاكل التي يثيرها الانفراد بالسلطة، واختلاف الرأي والمصالح داخل الجماعة والمجتمعات المختلفة، فان الفيدرالية، وعبر مختلف تطبيقاتها الحقيقية قدمت هي الأخرى الكثير من الحلول للمشاكل التي يثيرها التنوع والتعدد القومي والاثني في تلك الدول من خلال قيامها بتوزيع وتعدد مركز اتخاذ القرار على أسس ديمقراطية. فنجاح الفيدرالية وضمان الديمقراطية كلاهما يعتمدان على وجود دستور ينظم العلاقة بين السلطات، ويجعل الشعب مصدر السلطة ويسمح بالتعددية والمشاركة الحقيقية للشعب في إدارة

(*) أستاذ العلوم السياسية- جامعة بغداد

[1] علي عباس مراد: بناء الدولة العراقية الحديثة: عدالة التأسيس وتأسيس العدالة. جامعة بغداد- كلية العلوم السياسية، د.ت، ص٩-١٠.

[2] علي خليفة الكواري (محررا) : مدخل للانتقال إلى الديمقراطية في البلدان العربية. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٧-٨.

شؤونه، فضلا عن ضمانه للحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتباينة في الدولة. ومن هنا فان العلاقة بين الفيدرالية وجوهر المعاني الديمقراطية قد تكون متلازمة. بكلمة أوضح إن قيم الديمقراطية قد لا تقتضي إقامة الفيدرالية غير إن قيم الفيدرالية تقتضي وجود الديمقراطية. ففي الدولة التي لا تعاني من تنوع قومي واثني يمكن إقامة الديمقراطية دون الفيدرالية، أما في الدولة التي تتميز بالتنوع المجتمعي وعدم تجانسها القومي والاثني فان الفيدرالية ستكون الضمان لتحقيق الديمقراطية بل سر نجاحها.

وتنطلق هذه الدراسة في محاولة لبيان العلاقة بين الفيدرالية والديمقراطية من خلال ثلاث محاور:

١- الفيدرالية والدستورية.
٢- الفيدرالية وتأمين الديمقراطية.
٣- الفيدرالية وحكم الأغلبية.

أولا: الفيدرالية والدستورية

كانت الديمقراطية وما تزال معرض تفسيرات واجتهادات عديدة، كما خضع مفهومها للتطور التاريخي، فهي ليست مفهوما جامدا لان التعبير عنها يتخذ إشكالا وصورا متعددة لدى كل شعب أو حضارة أو جماعة سياسية، مما يعني وجود خصوصيات في تصور الحكم الديمقراطي والتعبير عنه، غير إن تلك الخصوصية لا تمنع من وجود فهم إنساني مشترك لها وتطور هذا الفهم عبر التاريخ وأصبح من ثوابت الفكر الإنساني[3]. ولعل من أهم تلك الثوابت أن يقام الحكم على أساس سلطة الشعب يمارسها عبر نواب يختارهم عن طريق انتخابات حرة مما يجعل الحكم يقوم على رضا المحكومين. ويكون الحكم للأغلبية المتأتية عن طريق الانتخابات الحرة والنزيهة والدورية مع احترام حقوق الأقليات المصانة بالقانون والمؤسسات الدستورية والملزمة للسلطة الحاكمة[4]. وان يكون القانون هو السيد في العلاقات

---

[3] رياض عزيز هادي: "الديمقراطية بين العالمية والخصوصية"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العددان، ٨ و ٩، آب ١٩٩٥، ص١٧.

[4] سعيد زيداني: "إطلالة على الديمقراطية الليبرالية" المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ١٣٥، ١٩٩٠، ص١١.

الاجتماعية والكل متساوون أمامه، ولكي يكون القانون كذلك لابد من قيام سلطة قضائية منفصلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية[5]. وان يكون للدولة دستور ترتكز عليه الديمقراطية باعتباره البيان الرسمي الذي يحدد موجبات الحكم الأساسية والقيود المفروضة عليه وبين مؤسسات الحكم وصلاحياتها[6]. كما لا تقوم الديمقراطية إلا بوجود التعددية السياسية التي تحتم وجود أفكار وقيم ومؤسسات متعددة والتنافس المفتوح بينها دون أية قيود سوى القبول بقواعد اللعبة الديمقراطية القائمة على الاحتكام للناخبين عبر صناديق الاقتراع وفتح الإمكانية الحقيقة لاستبدال فئة حاكمة بأخرى بالوسائل السلمية[7].

وبقدر تعلق الأمر بالفيدرالية فإنها تعني في مدلولها الواسع، ظاهرة تحرك الجماعات الإنسانية المميزة نحو المجتمع، بحركة تفضي إلى التوفيق بين اتجاهين متناقضين، بين الحرص على ذاتيتهما وبين السعي إلى تنظيم جماعي يشملهما. وتلجأ الدول ذات التنوع القومي والاثني من اجل تحقيق الاستقرار والثبات والتضامن بين أفراد المجتمع إلى اتخاذ شكل الاتحاد المركزي (الفيدرالي) الذي يتكون من عدد من الأقاليم تندمج معا وتنشأ دولة واحدة تفنى بموجبها الشخصية الدولية للولايات والأقاليم الأعضاء. بكلمة أخرى إن الدولة الفيدرالية تشكل نظاما قانونيا مركبا له خصائصه من الناحيتين الداخلية والخارجية. إذ تتكون الدولة من عدد من الأقاليم تتنازل عن جزء من سيادتها للدولة الاتحادية (المركزية)، وللدولة الاتحادية حكومة تسمى بالحكومة المركزية ولها سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، مع احتفاظ الأقاليم الأعضاء في الاتحاد بحكوماتها المحلية والتي لها أيضا سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويتم توزيع الاختصاصات بين الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية الأعضاء في الاتحاد بواسطة الدستور الاتحادي[8].

ويلتزم الجميع بما يمليه عليهم الدستور وما تسنه السلطات المركزية. ومن الناحية الخارجية تقرر الشخصية الدولية للدولة الاتحادية فقط، وفي الاتحاد الفيدرالي لا تستقر

---

[5] هشام الشاوي: مقدمة في علم السياسة. مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، د.ت، ص ١١٠-١١٣.

[6] إحسان حميد المفرجي وآخرون: النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق. مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠، ص ٢٣٩.

[7] غسان سلامة: "حالة التعددية السياسية في المشرق العربي" ضمن كتاب التعددية السياسية والديمقراطية في الوطن العربي، منتدى الفكر العربي، عمان، ١٩٨٩، ص ٢٩٦.

[8] إحسان حميد المفرجي وآخرون: النظرية العامة في القانون الدستوري. مصدر سابق، ص ١٠٤ وما بعدها.

السيادة في السلطة المركزية ولا في الأقاليم الأعضاء، كما أنها ليست مجــزأة بينهمــا، إذ إن السيادة واحدة ولا يمكن تجزئتها، ولكن ممارسة صلاحيات السلطة يمكن توزيعها على عــدد من الهيئات، فالسيادة تستقر في الدولة[9]. ويحدد الدستور الاتحادي اختــصاصات كــل مــن الهيئات الاتحادية وهيئات الأقاليم. وفي النظام الفيدرالي ليس لسلطات الأقــاليم حــق إبطــال القرارات التي لا تروق لها والتي تتخذها السلطات الفيدرالية المركزية، بل في حالة الخــلاف يتم اللجوء والاحتكام إلى القضاء عبر المحكمة الدستورية العليا والمحكمة الاتحادية العليا.

ويبدو مما تقدم إن الدستورية تشكل احد أهم الركائز التي تقوم عليهــا الفيدراليــة وذلك بقدر ما يقوم الدستور بتحديد صلاحيات كل من المركز والأطراف ، علاوة عن كونــه الضامن للحقوق والحريات العامة وفي هذا الجانــب تلتقــي الفيدراليــة مــع الديمقراطيــة، فالفيدرالية يمكن أن تقدم حلولا للمشاكل التي يثيرها التنوع في المجتمع مع ضــمان وحدتــه، حيث أنها تسمح للجميع بالمشاركة بعملية اتخاذ القرار والتعبير عن طموحاتهم وأهدافهم وهي بذلك تقدم حلا ديمقراطيا للعلاقات الوطنية. وربما تتوضح العلاقة بين الفيدرالية والديمقراطية بشكل أفضل من خلال النماذج الخاصة بالأنظمة الفيدرالية في إدارة الحياة السياسية، والتــي جميعها تقوم على التوزيع الأفقي للسلطة، ونبذ هرمية ذلك التوزيع الذي يعتمد عليه مركزيــة السلطة. وبذلك تغيب علاقة السيد بالمسود نظرا لانعدام السيد الذي يمتلك سلطة إعطاء الكلمة الأخيرة الحاسمة بشكل سلطوي لانعدام هرمية السلطة في النظــام الفيــدرالي، فالمفاوضــات وليس الأمر، الاتفاق وليس الطاعة، هي التي يحتمل أن تسود التفاعلات في المجال السياسي، حيث تميل العلاقات إلى أن تأخذ شكل العلاقات بين متساويين، ولهذا من المحتمل أن تفرض الأشكال التعاقدية في السياسة على الأنماط الهرمية في التفاعل السياسي، مما يوفر ذلك مناخا من الاحترام والثقة بين الفاعلين السياسيين والمؤسسات الدستورية، وبــذلك تبــدو الفيدراليــة مكمل نموذجي تقريبا لمؤسسات الديمقراطية التعددية.

فضلا عن ذلك تبدو أهمية الفيدرالية في حل الصراعات والمساهمة في الانــدماج السياسي، إذ تمكن الفيدرالية باحتمالية كبيرة حل المشاكل القومية والاثنية واللغوية والعرقيــة،

[9] نفس المصدر: ص ١١٠. وما بعدها.

ذلك كون جوهرها يكمن في إضفاء الطابع المؤسسي على العلاقات بين المشاركين في الحياة السياسية، وبذلك توفر العديد من الخيارات لتنظيم السياسة وخلق علاقات ملائمة، وهي بذلك تساعد على تطبيق الديمقراطية تطبيقا واسعا على مساحات واسعة، خصوصا من ناحية المشاركة السياسية حيث تنظم الدولة على وفق وحدات سياسية اصغر مما يساعد على الوضوح في عملها وتعزيز المشاركة لأوسع عدد من أفراد الشعب.

ثانيا: الفيدرالية وتامين الديمقراطية

إن الفيدرالية بامكانها تامين الديمقراطية والحرية، كما بامكانها أن تدفع نحو الوحدة السياسية، من خلال التعدد داخل الوحدة واحترام محيط المركز بقدر احترام المركز ذاته. وبهذا تكون الفيدرالية نقيض المركزية والإشكال الهرمية في الحكم، فهي داعمة ومتفهمة للتنوع والتعددية إذ تعتمد التنسيق الطوعي في عملية صنع القرار بطريقة لا مركزية[10]. وإذا كان من الأسس الهامة والتي يجب توفرها لقيام الديمقراطية هو الاعتراف بالآخر، ليس كوجود مادي بل كمساوي في الحقوق والواجبات، فلا ديمقراطية تقوم على إبعاد الآخر وعدم الاعتراف به كمساوي للانا. ويبدو أن المجتمعات التي تتنوع ديموغرافيا، رغم وحدتها الجغرافية، تشعر بالحاجة إلى تعددية محلية بالحكم إلى جانب الحكم المركزي في عاصمتها. وفي الأنظمة الفيدرالية المطبقة في العديد من دول العالم نلاحظ هناك تنوع كبير في أنماط الظروف الاجتماعية والتي تم استيعابها عبر مؤسسات النظام الفيدرالي، بحيث حاولت كل هذه الأنظمة المزج بين عناصر الحكم الذاتي المستقل للوحدات المكونة للفيدرالية في شؤون معينة وحكم مشترك مهيمن في شؤون أخرى من اجل التوفيق بين الرغبات لكل من التنوع المميز والعمل الموحد. وهذا التنوع في الظروف الاجتماعية أوجد تنوع الفيدراليات المطبقة التي تختلف من تجربة إلى أخرى، بحيث يصح القول انه لا مجال لاستنساخ نظام فيدرالي معين وتطبيقه في دولة أخرى، فكل نظام فيدرالي يجب أن يراعي خصوصية المجتمع وظروف البلد سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وبذلك يمكن القول انه لا

[10] محمد هماوندي: الفيدرالية والديمقراطية للعراق. دار فارس للطباعة، اربيل، ٢٠٠٢. ص ١٧٥.

يوجد شكل نموذجي واحد للنظام الفيدرالي قابل للتطبيق في كل مكان[11]. وهنا تلتقي الفيدرالية مع الديمقراطية، فمثلما يجب أن تراعي الديمقراطية في التطبيق ظروف كل مجتمع وتنوعه ودرجة تطوره كذلك الحال بالنسبة للفيدرالية، غير إن ذلك لا يمنع من وجود فهم عام مشترك لكل من الديمقراطية والفيدرالية رغم خصوصية التطبيق. فمراعاة الخصوصية يجب أن لا تتجاوز الأسس العامة لكل من الفيدرالية والديمقراطية، وإذا كان حكم الشعب وسيادة القانون، وفصل السلطات، ووجود دستور يكفل الحقوق والحريات العامة وإقرار التعددية السياسية هي مفاهيم مشتركة لكل نظام ديمقراطي، فان الاعتراف بالآخر ومراعاة خصوصيته، وتوزيع السلطة أفقيا أي الأخذ باللامركزية السياسية، ووجود دستور يحدد صلاحيات كل من المركز والأطراف هي من المفاهيم المشتركة لكل نظام فيدرالي. وبذلك يكون مثل هذا النظام صمام أمان ضد قيام الدكتاتورية والحكم الفردي طالما تكون اختصاصات السلطة موزعة بين المركز والأقاليم. فالفيدرالية تقوم على الأقل بتفتيت الدكتاتورية واحتكار صنع القرار في الدولة بيد فرد أو أقلية، وهي بذلك تشكل عاملا أساسيا لتحقيق المشاركة السياسية للمواطنين في الدولة، لهذا نجد الفقيه "بيردو" يذهب إلى التأكيد على إن الحرية توجد في معنى الفيدرالية حيث يقول (في اصل فكرة اللامركزية يوجد اعتراف بحرية الهيئة التي تنتفع منها وهي الحرية التي تنص قانونا بمقدور الهيئة على أن تضع بنفسها القواعد التي تسري عليها)[12]. فالهيئات اللامركزية (الأقاليم) سوف تجد نفسها تملك قدرا اكبر من الحرية لوضع القوانين التي تعبر عن حاجاتها المحلية دون أن تكون تلك القوانين مفروضة عليها من الإدارة المركزية.

وبقدر ما تكون المركزية قرين الدكتاتورية نجد هناك من يؤكد على انه من المحال أن تتفق الفيدرالية مع الدكتاتورية وانه لا حياة للفيدرالية إلا في ظل نظام ديمقراطي. فالاتحاد الفيدرالي ينشا أساسا حيث يوزع الدستور الاتحادي وظيفة الحكم بين الحكومة المركزية والأقاليم، وبذلك تتمتع الأقاليم باستقلال دستوري وتنظيم ذاتي، أي الاستقلال في

---

[11] رونالد ل. واتس: الأنظمة الفيدرالية، منتدى الاتحادات الفيدرالية. أوتاوا، كندا، ٢٠٠٦، ص ١٤٨.
[12] نقلا عن محمد هماوندي: المصدر السابق. ص ١٧٣.

وضع القواعد التي تحكمها، كما تتمتع بحماية دستورية بسبب تحديدها بواسطة الدستور الاتحادي[١٣].

وربما يرجع سبب هذا التأكيد على إن الفيدرالية لا تنسجم مع المركزية بل هي نقيضا لها ردا على بعض الآراء التي جعلت من النظام الذي يأخذ من اللامركزية الإدارية نظاما ديمقراطيا في حين انكرت التلازم بين الديمقراطية واللامركزية السياسية (الفيدرالية) من جهة، ومن جهة أخرى يعود هذا التأكيد على التلازم بين الفيدرالية والديمقراطية، لرفض اعتبار بعض الاتحادات التي استندت في تنظيمها للسلطة على المركزية كونها اتحادات فيدرالية، ولعل من أهمها الاتحاد السوفيتي السابق.

ففي معرض مقارنته بين اللامركزية الإدارية، واللامركزية السياسية (الفيدرالية) يشير (محمود البنا) بان نظام الإدارة المحلية هو نظام ديمقراطي يهدف إلى تحقيق ديمقراطية الإدارة بإشراك المواطنين في إدارة الشؤون الخاصة بأقاليمهم، وهذه الإدارة شعبية في أصلها وروحها، على حد قوله، وتتطور في العادة نحو مزيد من الحريات المحلية ووسيلتها في تحقيق ذلك هي الانتخابات. أما نظام اللامركزية السياسية (الفيدرالية) فلا تلازم بينها وبين الديمقراطية، فقد يرجع أصلها إلى عوامل تاريخية أو عوامل القوة والقهر، وكما أنها قد تأخذ بنظام في الحكم وفي الإدارة بعيد عن الديمقراطية، حكم فردي ، أو أسلوب مركزي في الإدارة، إلا انه يعود ليقرر على انه ليس ثمة ما يمنع من أن تأخذ الدولة الفيدرالية بنظام الإدارة اللامركزية، وهذا يكون أكثر اتفاقا مع طبيعة النظام الفيدرالي[١٤].

غير إن مبدأ الديمقراطية وتطبيقه في أي نظام فيدرالي يتجه بطرق مختلفة ليس إلى اختصاصات في الوظيفة الإدارية لوحدها، كما في دولة مركزية موحدة أو في دولة تأخذ بنظام اللامركزية الإقليمية، بل انه يعمل على تحقيق قدر اكبر من الاختصاصات يتعدى الوظيفة الإدارية ويتجه نحو الاختصاصات التشريعية والسياسية، فبمقتضى النظام الفيدرالي تتمتع الأقاليم بإدارة شؤونها العامة والخاصة بإرادتها الحرة، وكذلك الاشتراك في السلطات

---

[13] ثروت بدوي: النظم السياسية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٨٥.

[14] محمود البنا: النظم السياسية. أسس التنظيم السياسي وصوره الرئيسية. دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤-١٩٨٥، ص ١٥٥-١٥٦.

الفيدرالية المركزية[15]. ولهذا هناك من ينفي عن الاتحاد السوفييتي السابق صفة النظام الفيدرالي، وفي أحسن الأحوال يطلقون عليه نظاما خاصا[16]. فالاتحاد السوفيتي السابق كان دولة موحدة متعددة القوميات وذات نظام إداري مركزي، نظرا للوحدة الإيديولوجية والتنظيمية والاقتصادية في كل جمهوريات الاتحاد وأقاليمه، كما إن دستور ١٩٧٧ كان يقرر الرقابة لمجلس الرئاسة ومجلس الوزراء الاتحاديين على قرارات الجمهوريات، كما تتحقق الوحدة بصفة خاصة، بوجود حزب "وحيد" تميز بتنظيمه المركزي وهيمنته على مؤسسات الدولة وسياساتها الداخلية والخارجية، واستئثاره بكل المناصب في الاتحاد والجمهوريات والأقاليم والمناطق القومية[17].

لهذا تعجب الفقيه "بيردو" حول كيفية دمج فكرة الديمقراطية بالمركزية في ظل نظام اتحاد الجمهوريات السوفيتية السابقة، فقد ذكر إن أصعب مادة واعقدها أدخلت إلى الدستور عام ١٩٧٧ هي المادة الثالثة التي تشير (يبنى تنظيم نشاط الدولة السوفيتية وفقا لمبدأ المركزية الديمقراطية....إلزامية قرارات الهيئات الأعلى للهيئات الأدنى وتجمع المركزية الديمقراطية بين القيادة الواحدة والمبادرات والنشاطات الخلاقة والمحلية ومسؤولية كل هيئة من هيئات الدولة وكل إداري عن العمل المعهود به). وأشار في معرض نقده لهذه المادة بقوله (والواقع انه كيف يمكن التوفيق بين هذا النظام وبين الحرية النسبية للمجتمعات المحلية في القاعدة التي بمقتضاها تكون القرارات الصادرة من المجلس الأعلى للسوفيت ملزمة للمجتمعات أي الولايات الفيدرالية، وله أيضا حق إلغاء جميع القرارات الصادرة من تلك الولايات)[18]. كذلك هناك من وجه سهام النقد للفيدرالية التي كانت مطبقة في الاتحاد السوفيتي السابق، وهذا ما نجده موضع إشارة كلا من "فر كسون" و "ماكهنري" بالقول (إن الشكل الاتحادي (الفيدرالي) لا يعني إن روح نظام الحكم الاتحادي هي التي تسود، فالاتحاد السوفيتي، وأي حكم يعتمد على النزعة المسيطرة لكبار رجال الدولة، قد يبدو لها مظهر

15 محمد بكر حسين: الفيدرالية بين النظرية والتطبيق، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٩٤-٦٠٦.
16 إحسان حميد المفرجي وآخرون. مصدر سابق، ص ١٢٥.
17 محمد بكر حسين: مصدر سابق، ص ١٢٤.
18 John H.Ferguson & E.Mchenry.، Elements of American goverment. London. 1985. P 41.

الاتحاد، في حين إن كثيرا من الشواهد تدل على أن نظام الحكم فيهـا كـان دكتاتوريـا)[19].
فالثابت في النظام الفيدرالي أن يحتفظ كل إقليم لنفسه بقدر من الاستقلال الذاتي، وبذلك تكون الفيدرالية قرينة الديمقراطية.

ثالثا: الفيدرالية وحكم الأغلبية

قد يقال إن الديمقراطية كأسلوب للحكم تقوم على تطبيق مبدأ حكم الأغلبية، وهـذا صحيح في الدول التي لا تعاني من التمايز القومي والاثني، غير إن الأمر يختلف تماما فـي الدولة متعددة القوميات والجماعات القومية والاثنية، فتطبيق مبدأ حكم الأغلبية في مثل هـذه الدولة من شانه أن يبعد كل الأقليات باعتبارها (أقلية) عن المشاركة بالحكم، لكونها لا يمكـن أن تحقق أغلبية عددية، وستبقى خاسرة وهذه الخسارة ليست بسبب الدكتاتورية أو حكم الأقلية وغياب إرادة الشعب، بل هذه الخسارة نتيجة تطبيق مبدأ ديمقراطي يؤكد على الالتزام بقاعدة إرادة الشعب وحكم الأكثرية، ولذلك تقدم الفيدرالية في مثل هكذا دولة تتميز بالتعدد القـومي والاثني، الحل للإشكالية الناشئة عن تطبيق مبدأ إرادة الشعب وحكم الأغلبية. ويوضح "واتس" ذلك بقوله إذا فسرت الديمقراطية بطريقة بسيطة على أنها حكم الأغلبية، فانه دون شك يكون أي نظام فيدرالي، إذا قام بتقييد السلطة القضائية للحكومة الفيدرالية ومن خلال إنشاء وحدات مكونة من الحكومة تتمتع بسلطة قضائية على بعض الأمور، يقوم بوضع قيود دستورية على نطاق عملية صنع القرار عن طريق أغلبية عامة داخل الكيان المدني، والواضح ان الأنظمـة الفيدرالية، بما لها من توزيعات دستورية للسلطة، هي صورة من صور الحكـم الدسـتوري المقيد[20]. ومن ناحية أخرى يمكن القول ، بان الأنظمـة الفيدراليـة تعـزز حكـم الأغلبيـة الديمقراطي، بإعطاء الفرصة للمجموعات المكونة للفيدرالية التي تشكل أغلبية فـي مناطقهـا لاتخاذ قرارات حول الأمور ذات الاهتمام الإقليمي بحكم الأغلبية، ومن هـذا الجانـب فـان الفيدرالية تمثل ديمقراطية مع إضافة حيث تنص على حكم الأغلبية فيما يتعلق بالقـضايا ذات الاهتمام المشترك في جميع أنحاء الكيان المدني، علاوة عن حكم الأغلبية داخل أقاليم الاتحاد

---

[19] Ibid. P 41.

[20] رونالد ل. واتس: الأنظمة الفيدرالية. مصدر سابق، ص ١٤٨-١٤٩.

الفيدرالي عندما تتعامل مع أمور لها أهمية خاصة بالإقليم[٢١]. وهذا من شانه أن يعزز مبدأ حكم الأغلبية الذي يشكل إحدى دعائم الديمقراطية، بحيث يمكن القول إن الفيدرالية تقود إلى الديمقراطية.

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول بالتوافق بين قيم الفيدرالية وقيم الديمقراطية، كون الديمقراطية لا تقوم فقط على حكم الأغلبية، ولكنها أيضا تؤكد على الدستورية وعلى حكم القانون واحترام الأقليات وتوزيع السلطة. وبذلك تكون الديمقراطية الشرط المسبق لأي نظام سياسي فيدرالي فعال يعتمد على احترام المعايير الدستورية وحكم القانون واحترام الأقليات وروح التسامح والتوافق، ومن جانب آخر فان الفيدرالية تعزز القيم الديمقراطية عن طريق التأكيد على الشرعية الديمقراطية لكل من الحكومات الفيدرالية وحكومات الأقاليم المكونة للفيدرالية التي تنتخب مباشرة من قبل الشعب وتكون مسؤولة أمامه، وهي بذلك تكبح التفرد بالسلطة من خلال توزيعها بين مراكز متعددة لصنع القرار داخل الكيان السياسي. مع ذلك يجب التأكيد بان العبرة ليست بالهياكل البنائية المجردة، فالفيدرالية لا تنحصر في مؤسسات الدولة ووجودها، كبرلمان اتحادي وآخر إقليمي، ودستور يحدد العلاقة بين المركز والأطراف، ومحكمة دستورية تنظر في الأمور الخلافية، كما ان الديمقراطية ذاتها ليست شكليات دستورية، كما لا تتحقق في مشاركة الأحزاب في التنظيمات السياسية، كالجبهات والتحالفات، ولا بوجود برلمان أو مجلس وطني وإجراء انتخابات دورية، فربما تكون كل هذه مجرد شكليات تزين واجهة الحكم، فالديمقراطية وكذلك الفيدرالية هي موضوع وليس شكل، ممارسة حقيقية وليست مجرد شكليات، فكلاهما يتطلبان وعيا بأهميتهما وقناعة بنجاعتهما في إعلاء قيم الحرية والمشاركة الشعبية في اتخاذ القرار، وبالتالي فان إشاعة الوعي الديمقراطي والفيدرالي وثقافتهما هو صمام أمان لمنع تحريفهما وتزييفهما عن مقاصدهما الحقيقية.

---

21 نفس المصدر، ص ١٤٩.

ثقافة التسامح وجدلية العلاقة بين الأنا والاخر

الاستاذ المساعد الدكتور
حميد نفل النداوي(*)

المقدمة:

تنامت الدعوة الى تعميم ثقافة التسامح واكتسبت زخماً كبيراً بعد اعلان مبادئ التسامح الصادر عن منظمة اليونسكو عام ١٩٩٥ واعلان الامم المتحدة لعام ١٩٩٦ عاماً دولياً للتسامح، منسجمة في ذلك مع القراءة العلمية والموضوعية للتاريخ والتي تشير الى انه من الصعوبة بمكان استتباب الامن والنظام وتعزيز الوئام الاجتماعي والسلم الاهلي وايجاد البيئة المناسبة للتقدم والابداع في غياب التسامح لان البديل عن التسامح هو التعصب والتطرف والعنف.

لذلك فلا غرابة ان يصف الكثير من الفلاسفة والمفكرين مجموعة سياسية بالديمقراطية اذا كانت هذه المجموعة تحترم ثلاثة مبادئ ديمقراطية هي: مبدا التسامح, ومبدا الفصل بين السلطات ومبدا العدالة. وهكذا كان تاريخ الفلسفة يشير دائما الى ان التسامح كان شرطا اساسيا من شروط تطورها وديمومتها لان الفلسفة هي المجال الارحب للتسامح كونها تبحث عن الحقيقة ولاتدعي امتلاكها وهذا اعتراف بالتعدد والاختلاف واحترام الاخر.

ولكن هذه الرؤية لم يتم اعمالها على صعيد العلاقات الدولية بل أن الصراعات والحروب كانت هي السائدة على مر العصور. كما ان مختلف الايديولوجيات التي سيطرت على الساحة السياسية في الوطن العربي خلال القرن الماضي وحتى يومنا هذا من قومية الى اصولية دينية الى اشتراكية فديمقراطية لم يكن للتسامح مكان في فلسفاتها وخطابها وبرامجها.

(*) كلية العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

والموضوع الاساس والشغل الشاغل الذي يجب التركيز عليه هو ما يجري في العراق منذ ٢٠٠٣/٤/٩ ولحد الان والضرر الكبير الذي لحق بهذا البلد نتيجة الصراعات السياسية والطائفية والعرقية علاوة على سياسة الاحتلال الامريكي والتدخل السافر لبعض دول الجوار في الشأن العراقي والذي يتطلب مراجعة فكرية وسياسية يشارك فيها الجميع تسود فيها لغة الحوار على لغة الصراع والتأكيد على حقيقة ان سياسة الغاء الاخر واقصائه لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح .

ومن اجل تسليط الضوء على هذه الافكار فأن الدراسة سوف تتناول الموضوع من خلال المباحث الاتية:-

١. التسامح: المفهوم والمصادر
٢. ثقافة التسامح جدل الفكر وتوظيف السياسة
٣. العملية السياسية في العراق وثقافة التسامح

المبحث الاول:- التسامح : المفهوم والمصادر

لايزال التسامح كمفهوم محل جدل على الاقل بين العرب والغرب[1] والتسامح في اللغة العربية يعني الموافقة والقبول والتساهل ويعني كذلك الجود والكرم والسخاء كما يعني العفو.

وفي لسان العرب نجد الكلمة سمح السماح والسماحة: الجود، وسمح سماحة وسموحة وسماحاً: جاد، ورجل سمح وأمرأة سمحة، والمسامحة: المساهلة وتسامحوا: تساهلوا، وفي الحديث المشهور السماح رباح' اي المساهله في الاشياء تربح أصحابها، وكما قال جرير.

غلبَ المساميح الوليد سماحة   وكفى قريش المعضلات وسادها

وفي الحديث: يقول الله عز وجل: أسمحوا لعبدي كأسماحه الى عبادي الاسماح: لغة في السماح يقال: سمح واسمح اذا جاد واعطى عن كرم وسخاء[2].

[1] ومن حقنا ان نتساءل ماهو ((القاسم المشترك بين كلمة Toleration)) الانكليزية وكلمة التسامح العربية ، الجواب هو ان القاسم المشترك لايزال ضئيلاً جداً أو بالاحرى ان الفوارق بين الكلمتين هي اكثر اثاره للاهتمام من التشابهات بينهما ، انظر سمير الخليل ، التسامح في اللغة العربية في سمير الخليل وأخرون التسامح بين شرق وغرب ترجمة ابراهيم العريس دار الساقي ، بيروت ١٩٩٢ ص٦

[2] محمد بن مكرم بن منظور الافريقي . المصري ، لسان العرب ط١ . ج٢ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥ ص٤٨٩ ، ٤٩٠ .

وبنفس المعنى يذهبَ مختار الصحاح: سمح–السّماح والسّماحة الجود وسمحَ به يسمَح وسماحاً وسماحة أي جاد وسمحَ لو اعطاه، والمسامحه: المساهلة وتسامحوا معناها تساهلوا[3].

وفي ذات الاتجاه يعرض المنجد سمح بفتح العين سَمُحَ – سماحاً وسموحاً وسماحة وسموحة –وسَمحاً وسماحاً المعنى صار من اهل الجود والسماحة وسامَحَه في الامر وبالامر: ساهله، لاينهُ وافقهُ على مطلوبه، تسَمح وتسامحَ تساهل فيه كلها تصبُ في معنى المسامحة[4].

اللفظة–سَمحَ أو أسمَحَ الرباعية والثلاثية وكما وردت في لسان العرب لآبن منظور ومختار الصحاح والمنجد كلها تعني المساهلة سواء كانت هذه الكلمة فعلاً ثلاثياً او رباعياً او مصدراً او أسم مصدر كلها كما اشرنا تعني المعنى نفسه الذي نروم اليه وهو المساهلة.

ولعل كلمة التسامح من الامثلة البارزة التي تدل على التباعد بين أصل الكلمة في اللغة ومدلولها الاصطلاحي الجديد فلفظة التسامح لغوياً تعني السخاء من موقف استعلاء ومن ثم فلا مساواة بين السخي المتكرم والمتكرم عليه ((في التسامح يوجد المتسامح في مستوى أعلى والمتسامح معهُ في مستوى اسفل))[5].

وتملك اللغة الانكليزية كلمات ثلاث ((Toleration)) و((Tolerance)) و((Tolerationism)) وقد حاول بعض الكتاب التمييز بين هذه الكلمات بما يتيح لهم تعيين الاوجه المختلفة من التسامح[6].

غير ان هذا الاختلاف في الدلالة اللغوية لمفهوم التسامح لم يمنع من الوصول الى نوع من التقارب في التعريف الاصطلاحي للتسامح[7] حيث حرص الكثير من الباحثين

---

[3] محمد بن ابي بكر ابن عبد القادر الرازي. مختار الصحاح. دار الكتاب العربي. ص ٣١٢

[4] فؤاد افرام البستاني. المنجد. دار المشرق. بيروت. ١٩٨٦ ص ٣٤٣.

[5] ناجي البكوش ، التسامح عماد حقوق الانسان ، في ناجي البكوش وأخرون ، دراسات في التسامح المجمع التونسي للعلوم والاداب والفنون وبيت الحكمة ، تونس ١٩٩٥ ص١١ .

[6] لمزيد من التفصيل حول الدلالات والمعاني المختلفة لمفهوم التسامح في اللغة الانكليزية انظر بيتر بـ نيكولسون التسامح كمثال اخلاقي في سمير الخليل واخرون التسامح بين شرق وغرب مصدر سابق ص٢٨ – ٢٩ وكذلك انظر الشيخ محمد مجتهد شبستري: أشكالية التسامح في رضوان السيد واخرون التسامح وجذور اللاتسامح – مركز دراسات فلسفة الدين بغداد ٢٠٠٥ ص ٨١ . وانظر كذلك محمد عابد الجابري. قضايا في الفكر المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت.ط ٢ .٢٠٠٣.ص ٢٨.

[7] د. حميد فاضل حسن . مبدأ التسامح وأنساقه الفكرية ودوره في تعزيز العملية السياسية الديمقراطية . العلوم السياسية . جامعة بغداد العدد ٣٣ السنة ١٧ تموز ٢٠٠٦ ص٢٧٤

والكتاب العرب المعاصرين الى عدم الارتهان الى المعاني والدلالات اللغوية وليواكبوا الرؤية الغربية في هذا الجانب التي انصبت على ضرورة تجاوز المعنى اللغوي الاصلي للكلمة والاعتراف بأنها تطورت وأصبحت مفهوماً اصطلاحياً[8] تحمل في احشائها عنصرين أساسين يتفاعلان: الحق والواجب، حق الفرد أو الجماعة في الاختلاف من جهة وواجب الفرد او الجماعة احترام حق الغير في الاختلاف من جهه اخرى[9].

وبهذا الخصوص يرى محمد عابد الجابري ان التسامح يعني ((احترام الحق في الاختلاف والحق في التعبير الديمقراطي))[10] اي ان فكرة التسامح تعني القدرة على تحمل الرأي الاخر والصبر على أشياء لايحبها الانسان ولايرغب فيها بل يعدها احياناً مناقضة لمنظومته الفكرية والاخلاقية[11] والتسامح يعني ايضاً ((ان نحيا نحنُ والاخرون على اختلافنا في عالم واحد يضمنا))[12]. وهو كذلك ((موقف يتجلى في الاستعداد لتقبل وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق بأختلافات السلوك والرأي دون الموافقة عليها))[13].

قصارى القول على حد تعبير بيتر ب – نيكولسون ان ((التسامح هو فضيلة الامساك عن ممارسة المرء سلطته في التدخل بآراء الاخرين وأعمالهم علماً ان هذه الاراء والاعمال تختلف عن اراء الشخص المذكور واعماله في مايظنه مهماً ، الى حد انه لايوافق عليها اخلاقياً))[14].

---

[8] ولكن هذا لم يمنع من تعرض المفهوم الاصطلاحي الغربي لبعض النقد وسوء الفهم او التفسير واحياناً الرفض من البعض سواء في الغرب او العالم الاسلامي فبينما رأى البعض ان هذا المفهوم اساسه تسامح القوي مع الضعيف وبالتالي اعتبرهُ مفهوماً يكرس عدم تكافؤية العلاقة وعدم المساواة بين اطرافها ويثير شعور التكبر او شعور التفضل والتصدق من قبل المسامح والشعور المضاد من قبل المسامح رأي البعض الاخر ان القصد من المفهوم هو الترويج لتسامح الشعوب المستضعفة مع قوى الاستعمار والاستكبار بغرض تدجين تلك الشعوب والحد من مقاومتها لقوى الاستعمار في حين رأى الفريق الثالث ان مفهوم التسامح يكرس الافراط في المساواة بين الصواب والخطأ وبين اصحاب الحق وأصحاب الباطل وبين الشرفاء والمجرمين .
د. عبد الملك منصور حسن المصعبي في مفهوم التسامح افكار أوليه ، جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات ص٣
http / mansour dialogue – org /Arabic / Fikr2 html

[9] ناجي البكوش ، التسامح عماد حقوق الانسان. مصدر سابق.ص ١١

[10] محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر . مصدر سابق. ص٣٠ .

[11] عبد الحسين شعبان. فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي . دار النهار - بيروت ٢٠٠٥ ص٦٢

[12] د . هاني الجزار . في اسباب التعصب . نحو رؤية تكاملية ، عين للبحوث والدراسات الانسانية والاجتماعية مصر ٢٠٠٥ ص٢٣

[13] احمد خورشيد النورجي . مفاهيم في الفلسفة والاجتماع . دار الشؤون الثقافية . بغداد ١٩٩٠ ص٨٢

[14] بيتر ب . نيكولسون التسامح كمثال اخلاقي . مصدر سابق ص ٣٣

ولا يكتمل وضوح مفهوم التسامح الا عندما تكون له ((حدود واضحة يجب أن يتوقف عندها الجميع وان لايتجاوزها عندما يتحول هذا المفهوم الانساني الى محاولات فردية وجماعية عبثية لاتنفع بل تضر، حدود التسامح هي بقاء الدول والمجتمعات متماسكة وآمنة وسليمة من التفكك والانهيار))[١٥].

فالتسامح لايعني بأي حال من الاحوال التنازل عن المعتقد او الخضوع لمبدأ المساومة وانما يعني القبول بالاخر والتعامل معهُ على اساس العدالة والمساواة بصرف النظر عن افكاره وقناعاته الاخرى[١٦].

ظهرت كلمة ((التسامح)) أول ما ظهرت في كتابات الفلاسفة في القرن السابع عشر الميلادي زمن الصراع بين البروتستانت والكنيسة الكاثوليكية حينما نادى اولئك بحرية الاعتقاد وطالبوا الكنيسة البابوية بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله والانسان[١٧] وبالتالي فأن االتسامح وفق التجربة الغربية والفكر الغربي المعاصر هي الاجابة المطلوبة أنذاك .... فألاختلافات قادت في فترة من الفترات الى التعصب والانكفاء والعزلة ودفع المجتمع الغربي ثمن ذلك[١٨] واذا كان التاريخ الحديث قد شهد ولادة مفهوم التسامح فأن التعاليم الدينية والمنطلقات الفكرية والفلسفية قد سبقت ذلك بكثير وربما يصح التاريخ لبداياتها ببداية الرسالات السماوية والتي مثلت الدعوة الى التسامح بتعبيرات وصياغات متعددة ويتوافر التراث الاسلامي الفقهي والفلسفي على كثير من المرتكزات والاسس والاحكام التي من شأن تطويرها الاسهام في بلورة مفهوم افضل واوسع قبولاً للتسامح وفي تأهيل وتكريس ثقافة التسامح[١٩].

---

15 خالد الجنفاوي . حدود التسامح . بوابة العرب 6/18/2007 Khaled aljenfawi ayahoo com

16 محمد محفوظ . في معنى التسامح : التسامح وافاق السلم الاهلي في رضوان السيد واخرون التسامح وجذور اللا تسامح . مركز دراسات فلسفة الدين بغداد ٢٠٠٥ ص١٨٦

17 د . محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر مصدر سابق ص ٢٥

18 محمد محفوظ في معنى التسامح التسامح وافاق السلم الاهلي ، مصدر سابق ص١٨٤ .

19 د عبد الملك منصور حسن المصعبي في مفهوم التسامح افكار اولية .
http / Mansour dialogue . org / Arabic / fikr 2 . html

ويبين القران الكريم الحكمة الالهية في التنوع والاختلاف بين النـــاس (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين)[٢٠] وعلى هذا الاساس يدعو الله سبحانه وتعـالى رسـوله الكريم الى تبني لغة المنطق والعقل والحوار في التعامل مع المشركين وغيرهم(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[٢١] وبخطاب لاضغط فيـه ولا اكـراه (لا اكراه في الدين)[٢٢] والدعوة الى التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)[٢٣].

وفي موقف هابيل من اخيه قابيل عندما هم بقتله دروس في التسامح المـستند الـى مخافة الله (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)[٢٤].

وجسدت السيرة النبوية الشريفة اقتران القول بالعمل والتأكيد على الروابط الانـسانية وكبح جماح القوه ويقول الرسول الاكرم (صلى الله عليه وسلم) (الرفق رأس الحكمة) وهكذا جاءت وثيقة المدينة–الصحيفة–والتي يعدها البعض اول دستور مكتوب فـي العـالم تنـاول موضوع الحقوق والواجبات، حيث تبدأ الصحيفة بتوضيح حقوق كل فئـة بالاسـم وتعتـرف بديانة الاخر وحقه في الاختلاف والتمايز فلكل فريق دينه ولكل جماعـة التزاماتهـا وعليـه تحاول الصحيفة (الدستور) تنظيم العلاقات لكل فئة ضمن اطار القانون المشترك[٢٥].

---

[20] سورة هود . الاية ١١٨
[21] سورة النحل الاية ١٢٥
[22] سورة البقرة – الاية ٢٥٦
[23] سورة فصلت الايه ٣٤
[24] سورة المائدة الايات ٢٧- ٣٠
[25] وليد نويهض قراءة في دستور المدينة في محمد عابد الجابري واخرون . حقوق الانسان في الفكر العربي . دراسات في النصوص . مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ط١ – ٢٠٠٢ ص ١٤٣

ولنا في موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) اثناء فتح مكه مثالاً ودرساً كبيراً في التسامح حيث اجتمع رجال قريش عند المسجد الحرام ينتظرون ما سيقوله الرسول الكريم بحقهم وهم يعلمون ما اقترفوا بحقه وحق المسلمين من اذى ، ولم يمض وقت طويل حتى خاطبهم الرسول الاكرم. ما تظنون اني فاعل بكم) وقالوا اخ كريم وابن اخ كريم ، فكان جواب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وفي ذات الاطارحرص الخلفاء الراشدين على اشاعة قيم العدل والحرية والمساواة وهو ما دعى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى اطلاق مقولته المشهورة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً، او ما قاله الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) مخاطباً عامله في مصر مالك بن الاشتر ((لاتكون عليهم (اي على الناس) سبعاً ضارياً تغتنم اكلهم فأنهم صنفان، اما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق ....))[٢٦].

وتناولت الفلسفة الاسلامية عبر مراحلها المختلفة هذه الموضوعات فأخوان الصفا يشددون على ان ((اختلاف اصل الدين لايعيب الدين في شيء فهنالك مسالة محمودة عند قوم ومذمومة عند قوم اخرين ، وقد ينتج عن الخلاف فوائد منها:-

انه يدفع الى طلب الحجة والى البحث العميق ويكشف العيوب فينبه المعيب ويصلح عيوبه لذا قيل اختلاف العلماء رحمة[٢٧].

اما المعتزلة فكانت حركة تنظير عقلي للدين فأعلموا العقل في النص واخضعوا تفسيرهم للمنطق العقلي، وساقوا اي اختلاف ظاهر بين النص والعقل بأستثناء العبادات لصالح الاخير، فما فعله المعتزله بالنسبة الى الدين الاسلامي يشبه الى حد ما فعله فلاسفة اليونان الاوائل بالنسبة للميثولوجيا اليونانية[٢٨].

في حين تقوم فلسفة ابن عربي على ما يمكن تسميتهُ ما بعد التسامح وابراز القدرة الانسانية على تجاوز مفهوم التسامح مع الاخرين من اجل التواصل والحوار وهذا ما عبر عنه بقوله:

---

[26] عبد الحسين شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي . دار النهار . بيروت ٢٠٠٥ ص ٩٥
[27] شمس الدين الكيلاني : مفاهيم حقوق الانسان في المذاهب الاسلامية في محمد عابد الجابري: حقوق الانسان في الفكر العربي دراسات في النصوص مصدر سابق ص٣٤٣
[28] المصدر نفسه - ص٣٥٢

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعـبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرأن
أدين بدين الحب انى توجهت   ركائبهُ فالحب ديني وايماني

ويعلق منصف المرزوقي على الابيات الثلاثة بالقول: ان ما يدعوننا اليه ابن عربي من موقف ديني وروحاني بحت ليس ان نتسامح مع عقائد الاخرين وانما أن نستملكها وهو الموقف الذي نادى به المشرع العالمي في اعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي عندما اشار الى ذلك بقوله ((تشكل الثقافات بما فيها من تنوع وخصب وبما بينها من تباين وتأثير متبادل جزءً من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً[29].

اما الفلاسفة المسلمون الاخرون فقد اشاروا ايضاً الى الفروق بين الافراد وبين الجماعات فالفارابي يشير بشكل واضح الى اختلاف الانسان عن اخيه الانسان في مقدار حظه من القوه الناطقة[30] والغزالي يتحدث عن اناس لايحبون الا الله تعالى، واناس لايعرفون لذة المعرفة ولاحب الله ويسعون للجاه والرئاسه والشهوات البدنية واناس وسط بين هؤلاء واولئك[31].

ويبلغ التسامح قمته في موقف ابن رشد من اراء المخالفين والخصوم حينما يلوم الغزالي على كونه لايحاول ان يتفهم موقف الخصم بل يحكم بفساده دون اعتبار المقدمات التي ادت اليه فيقول ومن العدل كما يقول الحكيم ارسطو ان يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي به لنفسه، اعني ان يجهد نفسه في طلب الحجج لخصومه كما يجهد نفسه في طلب الحجج لمذهبه وان يقبل لهم من الحجج النوع الذي يقبله لنفسه))[32].

---

[29] نقلا عن هيثم مناع : الانسان الكامل في الثقافة العربية – الاسلامية في : محمد عابد الجابري ، حقوق الانسان في الفكر العربي - مصدر سابق ص ٣٧٦ ٣٧٧-.

[30] محمد علي ابو ريان . تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام ، دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٨٣ ص ٢٧٤-٢٧٥

[31] المصدر نفسه. ص ٥٠٠-٥٠٧.

[32] محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر مصدر سابق ص ٢٣

والمتابع لتطور الفكر السياسي الغربي يستطيع ان يلمس بدايات التعاطي مع هذه المفردة ففي معرض اشادته بالديمقراطية والنظام المطبق في اثينا يشير باريكليس[33] الى ان ((ديمقراطيتنا ترتكز الى مبدأين اساسين:

الاول هو المساواة امام القانون

الثاني حرية التعبير عن الرأي

وبالاضافة الى المساواة امام القانون والى حرية التعبير عن الرأي فأن باريكليس حدد العلاقة الاخوية بين المواطنين كركيزة ثالثة وتتمثل هذه العلاقة بالتسامح وحسن المعاملة وتقديم العون للاخرين))[34].

واحدث سقراط تحوّلاً في وظيفة الفلسفة فبعد ان كانت منصرفة الى البحث في مشكلات الطبيعة طالب سقراط من خلال مقولته ((اعرف نفسك بنفسك واعرف انك لاتعرف)) بتوجيه بحثها نحو الانسان[35] وان غاية الفلسفة في نظر سقراط هي صياغة النفس الانسانية وطبعها على الحق والخير والجمال وتحقيق مجتمع فاضل[36].

وبتواضع كبير يرى سقراط ان معرفة الانسان محدودة وهو بحاجة ماسة الى التعلم والتواضع ففي محاورة الدفاع بعد ان اخبره صديقه شريفون عن قول كاهن معبد دلفي ان سقراط اكثر الناس حكمة قال سقراط انه تعجب وأراد ان يحل هذا اللغز ((لانني عليم ان ليس لدي من الحكمة كثير او قليل))[37]، وفي مكان اخر يقول ولقد جرى الناس على تسميتي بالحكيم اذ خيل لهم انني مافتئت احمل الحكمة التي تعوزهم ولكن الله ايها الاثينيون هو الحكيم الأوحد، ولعله اراد بجوابه ان الحكمة في البشر ضئيلة او معدومة[38].

وكانت فكرة التسامح الحديث قد ارتبطت بالمسألة الدينية عند بداياتها لدى الفيلسوف جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ الذي عالج هذه المسالة في اهم كتاباته (رسالة في التسامح) التي

---

33 زعيم اثيني ٤٩٩ – ٤٢٩ ق . م اصبح رجل اثينا الاول بعد الحرب الميدية وقد اشتهر بأفكاره ومبادئه الديمقراطية في اعطاء الشعب حق الاشتراك في السلطة العامة ومراقبة اعمالها انظر مارسيل بريلو – جورج ليسكيية ، تاريخ الافكار السياسية . الاهلية للنشر والتوزيع والاعلان بيروت ١٩٨٦ ص٢٥

34 المصدر نفسه . ص ٢٥

35 محمد جلوب فرحان . دراسات في فلسفة التربية مطبعة التعليم العالي – الموصل ١٩٨٩ ص ١٧

36 المصدر نفسه ص١٨.

37 حسام الالوسي . الفلسفة اليونانية قبل ارسطو . دار الحكمة للطباعة والنشر بغداد ١٩٩١ص ١٦٤

38 المصدر نفسه ص ١٦٤.

حررها في عام ١٦٨٥ و لم تنشر الا في عام ١٦٨٩, و ينطلق لوك في هذه الرسالة من (تحليل مادي للسلطة السياسية و يبرهن على انها غير قادرة ماديا و نفسيا على اجبار المواطنين على الاخذ بهذه العقيدة او تلك بما انه لا قيمة لاي عقيدة الا اذا تم اعتناقها بحرية ومن هذه المقدمة يستنبط لوك بعد ذلك النتيجة التي فرضت نفسها عليه و هي انه يتعين التمييز باكبر قدر من الوضوح بين الدور الخاص لكل من الدولة والكنيسة)[٣٩].

لان الدولة ينصب هدفها على حماية حقوق الانسان و السهر على مصالحهم, اما الكنيسة فيتمثل هدفها في الحث على العبادة و اقامة الطقوس التي تقود الناس الى الخلاص.

ويترتب على ذلك انه يتعين على الكنسية ان تتقيد بحدود الكنيسة و يحرم عليها ان تمتد الى الشؤون المدنية باختصار يتعين على الكنيسة ان تكون منفصلة و متميزة تماما عن الدولة, ويترتب على هذا الفصل واجبات متبادلة بين الجانبين اي واجب التسامح من جانب الدولة وواجب التحفظ من جانب الكنيسة[٤٠].

لذلك يفرض لوك على الدولة ان تضمن التعبير الحر فوق اراضيها لجميع المعتقدات السياسية والفلسفية والدينية بشرط ان لا تخل تلك المعتقدات بالنظام العام، لأن كل البشر يملكون الحق في الحرية الطبيعية ولكنها حرية مشروطة بالأخلاق والقانون الطبيعي وجوهر القانون الطبيعي هو العقل ("لقد ولدنا أحراراً، تماماً كما ولدنا عاقلين") والذي يجب أن يستخدم بشكل صحيح لرسم آفاق سليمة للبشر.

ويعود الفضل لفولتير (١٦٩٤– ١٧٧٨) في دقة وروعة التعبير عن مفهوم التسامح فقد كان جوابه عن سؤال ماهو التسامح؟ ((انه نتيجة ملازمة لكينونتنا البشرية اننا جميعاً من نتاج الضعف: كلنا هشون وميالون للخطأ لذا دعونا نتسامح بعضنا البعض ونتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل وذلكم هو المبدأ الاول لقانون الطبيعة المبدأ الاول لحقوق الانسان كافة))[٤١].

---

[39] كريستيان دولا كامبلني . الفلسفة السياسية اليوم . ترجمة نبيل سعد عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية . القاهرة . الطبعة الاولى ٢٠٠٣ ص ٥٣

[40] المصدر نفسه. ص ٥٤.

[41] كارل بوبر : التسامح والمسؤولية الفكرية . في سمير الخليل واخرون . التسامح بين شرق وغرب ترجمة ابراهيم العريس . دار الساقي . الطبعة الاولى بيروت ١٩٩٢ ص ٧٦.

وكانت حصيلة وتفاعل المبادىء الانسانية التي اشاعتها الديانات السماوية اضافة الى النتاج الفلسفي والفكري انتشار قيم الحرية والتسامح والدعوة الى اعمالها للوصول بالمجتمع الانساني الى غايته المنشودة.

المبحث الثاني:

ثقافة التسامح: جدل الفكر وتوظيف السياسة

يمكن القول ان اعلان الامم المتحدة حول التسامح اضفى على هذا المفهوم ابعاده الثقافية والسياسية والقانونية حينما اشار الى ان ((التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الانسانية لدينا، ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد انه الوئام في سياق الاختلاف. وهو ليس واجباً اخلاقياً فحسب وانما واجب سياسي وقانوني ايضاً، والتسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام ، ويسهم في احلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب[٤٢] وتمثل هذه الافكار المقدمات الصحيحة التي لايمكن بدونها الحديث عن نتائج وتقدم على صعيد العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين الدول والشعوب او حتى على صعيد البلد الواحد ، ولكن هذه الافكار لم يتم تبنيها والعمل بموجبها فعلى المستوى العالمي اوضحت التجربة الماركسية – اللينينية ونموذجها السوفياتي ان ((الماركسية لم تسقط كمنهجية ولكن سقط مشروعها الراديكالي لتغيير العالم))[٤٣]، والذي دفعه الى اتباع رؤيه تقوم على ان اي نقد يوجه لهذه التجارب هو بمثابة تآمر وخيانه عظمى لايمكن السكوت عليها تحت ذريعة مواجهة النظام الرأسمالي وكان من ابرز نتائج هذا التوجه هو الجمود والانغلاق وعدم الانفتاح على الصعيد الداخلي وهذا ما قاد الى غياب المبدأ الحاكم في الاحزاب الماركسية– اللينينية الا وهو مبدأ ((المركزية الديمقراطية)) وتراجع الحديث عن ديكتاتورية البروليتاريا بأعتبارها الطبقة المؤهله لقيادة التحولات السياسية و الاقتصادية والاجتماعية نحو المجتمع الشيوعي لصالح اللجنه المركزية والامين العام للحزب واقتصر دور المنظمات الحزبية

---

[42] اعلان مبادىء بشأن التسامح . منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ١٦ تشرين الثاني١٩٩٥ .

[43] السيد يسين : من اجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر . حوار اجراه عبد الاله بلقزيز . المستقبل العربي السنة ٢٨ العدد ٣١٩ مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ٩/ ٢٠٠٥ ص٣٢

والجماهيرية على دور((الحزام الناقل)) وهذا ما قاد الى اتساع دور الدولة وحَد من حق النقد والحوار وتشخيص الاخطاء وكان السبب في وأد روح المبادرة والابداع. ولم يكن الحال افضل في العلاقة مع الاحزاب والتيارات السياسية الاخرى فقد جرى التعامل معها بقسوة شديدة واجبر قسم منها على الانضواء في ((جبهات وطنية)) يتحكم فيها الحزب الشيوعي.

وعلى صعيد العلاقات الدولية والتعامل مع الاخر المختلف فكرياً وسياسياً واقتصادياً بدء صراع بأشكال مختلفة للسيطرة على المواقع الاستراتيجية والموارد والاسواق تحت حجج وذرائع لايمكن تصديقها والقبول بها فالاتحاد السوفياتي كان يصور هذا الصراع على انه بين قوى السلم وقوى الحرب، مابين نظام اقتصادي واجتماعي اكثر اتفاقاً وتلاؤماً مع مقتضيات التطور الانساني الهادف هو النظام الاشتراكي وبين نظام اخر يتصادم ومنطق التطور التاريخي[٤٤] نظام تسيره الاحتكارات ويتغذى على الحروب ويستمد قوته من استغلال الاقلية للاغلبية[٤٥] هو النظام الرأسمالي.

اما المعسكر الرأسمالي فكان يرى في الاتحاد السوفياتي ودول اوربا الشرقية انظمة سياسية ديكتاتورية لاتقيم وزناً للديمقراطية وحقوق الانسان من خلال تصوير الولايات المتحدة والغرب كقلعة للحرية.

ومثلت حقبة الحرب الباردة سلسلة متصلة من الصراعات اختلفت في حدتها وادواتها واساليبها من مرحلة الى اخرى وبما يعبر عن شكل الصراع وشموليته بين القوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والذي تمحور حول ثلاثة اشكال رئيسية[٤٦]:

١. صراع فكري بين الرأسمالية والشيوعية بما له من انعكاسات اقتصادية وسياسية.

---

[44] ق . افانا سيف . اسس الفلسفة الماركسية . ترجمة عبد الرزاق الصافي ، دار الفارابي . بيروت دار النهضة بغداد ص ٢٤٩ .

[45] يشير تقريرللامم المتحدة ان ٣٥٨ شخصاً من كبار الاثرياء في العالم يساوي حجم مصادر ثروتهم النقدية حجم المصادر التي يعيش منها ملياران وثلاثمائة مليون شخص من فقراء العالم و بعبارة اخرى ان عشرين في المائة من كبار اغنياء العالم يقتسمون فيما بينهم ثمانين في المائة من الانتاج الداخلي الخام على الصعيد العالمي وان الغنى والثروة ارتفعا بنسبة ستين بالمئة في الولايات المتحدة الامريكية بين عام ١٩٧٥ ـ ١٩٩٥ غير ان المستفيدين من هذا الارتفاع الكبير في الغنى والثروة لايتجاوز عددهم نسبة واحد بالمئة من الشعب الامريكي . للمزيد من التفاصيل حول الموضوع انظر . محمد عابد الجابري مصدر سابق ص ١٤٠.

[46] اماني محمود فهمي : حقوق الانسان في علاقات الشرق والغرب . السياسة الدولية ، العدد ٩٦نيسان ١٩٨٩ ص ٨١

٢. صراع عسكري وبشكل ادق سباق تسلح تقليدي ونـــووي بحيـــث اصـــبح اي تقـــدم يحرزه طرف يمثل خساره للطرف الاخر.
٣. صراع على النفوذ والحلفاء خاصة في العالم الثالث تبلـــور فـــي صـــورة نزاعـــات أقليمية.

وهكذا فأن مصطلح ((الحرب الباردة)) انما يشير في الواقع الى ((الـــصراع علـــى النفوذ الذي اعقب الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد الـــسوفياتي حيث كانت سياسة كلاً من القوتين تسعى الى توسيع دائرة نفوذها وتقليص دائرة نفوذ الخصم وحيثما وجد تداخل في دوائر النفوذ زاد التوتر واشتد الصراع وربما جرت معارك))[٤٧].

وقد نجحت الولايات المتحدة في توظيـــف كافـــة ادواتهـــا الـــسياسية والاقتـــصادية والاعلامية في هذه الحرب وجر الاتحاد السوفياتي الى سباق تسلح وانفاق عسكري لايقـــوي عليه بلغ ذروته في عهد الرئيس الامريكي الاسبق رونالد ريغان الذي اطلق مبادرة الـــدفاع الاستراتيجي ((حرب النجوم)) اضافة الى اسباب داخلية تتعلق بالاتحاد السوفياتي قادت الـــى انهياره وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة والتفرد في قيادة العالم ورفض الاخر واقصائه فـــي ظل ما يسمى ((النظام الدولي الجديد)).

ولم تكن بلدان العالم الثالث والوطن العربي على وجه التحديد خـــارج حلبـــة هـــذا الصراع بل ان هذا الصراع كان في اغلب مراحله بين هذه الشعوب ومع السياسات الغربية التي كانت تقاتل على مختلف الجبهات من اجل هدف واحد هو مـــصالحها وان هنـــاك ثابتـــاً واحداً اساسياً في موقف الغرب والباقي متغيرات، والموقف من العرب او من الاسلام او من الصين او من اليابان اومن ايه دولة اخرى في العالم يتغير دائماً وقد يقفز من النقيض الـــى النقيض اذا اقتضى ذلك منطق ((الثابت)) وليس الثابت في تحركات الغرب شيئاً اخـــر غيـــر المصالح فعندما تمس مصالح الغرب او يكون هناك ما يتهددها تغير الموقف))[٤٨].

---

[47] محمد عبد الله الصايح . تطور ظاهرة الصراع الدولي وافاقها في القرن الحادي والعشرين . رسالة ماجستير غير منشورة كلية العلوم السياسية . جامعة النهرين ٢٠٠٥ ص٤٦
[48] محمد عابد الجابري ، مصدر سابق ص ١٢٧ .

وكان هذا الصراع وما يزال ضد الغرب لا كشعوب وحضارة بـل ضـد سياسـته الاستعمارية وهيمنته الامبريالية اما الحضارة الغربية سواء الجانب الصناعي فيها او الجانب التنظيمي والمعيشي والفكري والعمراني فقد استقبلتها الامم والشعوب المـستعمرة بالاقتبـاس منها والنسج على منوالها وما زالت تفعل[٤٩]. اذ قد يستعين الانسان على ادراك ذاته بأدراكـه خصائص الاخر مثلما حاول هذا التمرين المعرفي المفكر المصري محمد رفاعه الطهطـاوي من خلال اكتشافه الاخر في باريس ومثلما رام ذلك المصلح التونسي خير الدين فـي كتابـه اقوم المسالك، ويسمى الطاهر لبيب هذه الطريقة المعرفية بـ(مطاردة الذات فـي فـضاءات الاخرية)[٥٠].

وبعد حسم الصراع لصالح الولايات المتحدة وانهيار الاتحـاد الـسوفياتي والكتلـة الاشتراكية التي يمثلها بدأ الخطاب السياسي الامريكي يؤكد على ضرورة نشر القيم الغربيـة في العالم والامريكية منهـا علـى وجـه الخـصوص وبهـذا الـصدد تبـرز تنظيـرات جوشوامورافيشك وهو من الباحثين البارزين في السياسة الخارجية الامريكية والمعبر بصدق عن توجهات المحافظين الجدد في ان (تلعب الولايات المتحدة الامريكية دوراً في نشر الفهـم الغربي للديمقراطية وحقوق الانسان من خلال الدبلوماسية الهادئه والمساعدات ومـن خـلال العمل العسكري اذا لزم الامر)[٥١].

وتم التعبير عن هذا الدور "الهيمنة" بعبارت مثل الزعامة والقيادة والريـادة لجعلهـا مستساغة اكثر من قبل العالم وهذا ما اشار اليه الرئيس الامريكي الاسبق ريتشارد نيكـسون ((اننا نعيش في عالم تنفرد فيه الولايات المتحدة كقوة عظمى ..... فالزعامة الامريكية للعالم سوف تبقى عنصراً لاغنى عنه عبر العقود القادمة ويضيف ان العالم يحتاج الى قيادة امريكا

---

[49] المصدر نفسه، ص٩٩.

[50] الطاهر لبيب . صورة الاخر – العربي ناظراً ومنظوراً مقدمة لدراسات وبحوث ندوة مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٩٩ نقلاً عن مصطفى الفيلالي . صورة الاخر . المستقبل العربي العدد ٣١٨ السنة ٢٨ اب ٢٠٠٥ ص ١٣

[51] محمد فهيم يوسف، حقوق الانسان في ضوء التجليات السياسية للعولمه في برهان غليون حقوق الانسان الرؤى العالمية والاسلامية والعربية. مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة كتب المستقبل العربي (٤١) بيروت ٢٠٠٥ ص ٦٣

عسكرياً وسياسياً واقتصادياً واكثر من اي شيء اخر يحتاج العالم الى قيادتنا في مجال الفكر))[52].

وقد دلت المسيرة السياسية للولايات المتحدة على ان معرفة الانسان الامريكي لنفسه وتعظيم دوره وتأهيل ذاته لقيادة العالم كانت حاجباً له عن ادراك الاخر بل حتى الاقرار بأهليته للرقي وهذا يتقاطع مع ثقافة التسامح حسب ما افاد به مفكرون معتدلون امثال نعوم تشومسكي وايما نويل تود[53].

وبناء على ما تقدم يصح الرأي الذي يقول ((ان مركزية نظرة الانسان الامريكي الى ذاته في رسالته التبشيرية وفي منزلته الكونية لايمكن ان تجود بنصيب من التقدير للانسان الاخر وليست تحتمل جانب الصواب في ما يكون لهذا الاخر من توجه فكري او من نزعة خصوصية او زاد ثقافي بل ان هذه المركزية الفكرية تقوم على عقيدة اقصائية لامكان فيها للاختلاف والتنوع[54].

فبينما تجتمع في الـ((أنا)) كل الصفات الايجابية فأن الاخر يجسد كل الصفات السلبية وبهذا المعنى تم تصوير الشرق في الغرب في فترة ولادة القوميات وتعزيزها في العصر الامبريالي ، حيث لزم على المنتصرين الغربيين تبرير سيطرتهم على الاخرين ليس عن طريق مصالحهم الاقتصادية او تفوقهم العسكري ولكن عن طريق تفوقهم العرقي والثقافي ودونية هذا الاخر))[55].

ان عالماً يفتقر الى العدل الى الاعتراف بالاخر وبحقه في امتلاك خصوصية خاصة به وفي تقرير مصيره سواء كان هذا الاخر فرداً او اقلية دينية او عرقية او كان شعوباً او امماً مبني اصلاً على الظلم على اللاتسامح ، وبالتالي فلا معنى لرفع شعار التسامح مالم يكن مقروناً بالعدل الذي ينطلق من حق الغير في الاختلاف والتعبير عن افكاره وسياساته[56]

[52] ريتشارد نيكسون – امريكا والفرصة التاريخية . ترجمة محمد زكريا اسماعيل . بيروت مكتبة بيسان ص ٦٣ . ١٩٩٢ ص ١٩.

[53] مصطفى الفيلالي . نحن والاخر . مصدر سبق ذكره ص ١٣.

[54] المصدر نفسه، ص١٣.

[55] فرنر كلاوس روف . هل اليمقراطية حكر على الغرب في جان فراسوا بايار . الاسلام والفكر السياسي . المركز الثقافي العربي – بيروت لبنان – الدار البيضاء المغرب الطبعة الاولى ٢٠٠٠ ص٢٣ .

[56] محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر ، مصدر سابق ص ٣٢ .

ورغبته في اجراء حوار عقلاني وصادق يهدف الى تحقيق مصالح واهداف الطرفين وليس وفقاً لقواعد يحددها الغرب وفي ظل ظروف تخدم مصالحه السياسية واهدافه من الصدام والحوار معاً[٥٧] وعند الوقوف على طبيعة العلاقة بين الانا والاخر على صعيد الوطن العربي يمكن تأشير اربعة تيارات سياسية تنازعت فيما بينها طيلة القرن الماضي ولحد الان هي ((التيار القومي والتيار الليبرالي والتيار الاسلامي والتيار الماركسي والتي انتجت اربعة خطابات (القومي–الليبرالي–الاسلامي–الماركسي) وكان كل خطاب يقوم على قضية رئيسية يتحرك من خلالها فأشكالية الخطاب القومي قائمة على فكرة الوحدة العربية واشكالية الخطاب الليبرالي قائمة على مسألة الحرية والديمقراطية واشكالية الخطاب الاسلامي قائمة على الهوية واشكالية الخطاب الماركسي قائمة على الاشتراكية[٥٨].

وكان كل تيار سياسي يشدد على منطلقاته الفكرية والرؤية السياسية التي يطرحها ، فالتيار القومي يشدد على الوحدة العربية لان تحقيقها سيفضي الى تحقيق الحرية والاشتراكية . والتيار الليبرالي يرى ان مشاكل الوطن العربي تكمن في غياب الحرية والديمقراطية وللتيار الاسلامي منحى اخر حينما يؤكد ان الحفاظ على الهوية هو المفتاح لحل المشاكل الاخرى والتيار الماركسي الذي يشدد على هدف الاشتراكية.

وفي المحصلة النهائية لم يتحقق شيء على ارض الواقع ولا زالت المشكلات على حالها واصبحنا بعيدين عن الوحدة العربية وبات الحفاظ على الهوية مهمة شاقة وعسيرة وتبخر حلم الاشتراكية ولم تتحقق الديمقراطية وفي ظل هذه الازمات نحن في حاجة ماسة الى مستوى جديد وعال من الجدل وخطاب شامل جامع يعلو على الخطابات الفرعية والى رؤية ومشروع يشتمل على العناصر الاتية[٥٩]:

١. تحقيق الحريات الاساسية للانسان مستقاة من النموذج الليبرالي.
٢. تحقيق العدالة الاجتماعية مستقاة من النموذج الاشتراكي.
٣. تحقيق الاصالة الحضارية مستقاة من النموذج الاسلامي.

[57] جميل مطر . حوار الحضارات السياسي اولاً . المستقبل العربي السنة ٢٨ العدد ٣٢٥ اذار٢٠٠٦ ص ٥٧ .
[58] السيد يسين . من اجل تحليل ثقافي لظواهر العالم المعاصر . مصدر سابق ص ٤١ .
[59] المصدر نفسه ص ٤٢

ومثل هكذا مشروع يتطلب مشاركة واسعة من قبل النخب السياسية والحزبية في السلطة وخارجها ورجال الفكر والثقافة والاعلام ومؤسسات المجتمع المدني لأن ((التحدي الاساسي الذي يواجه العالم العربي يتعلق بقدرتنا على اللحاق بالركب الحضاري وهنا يتطلب الامر تقديراً سليماً لحاجاتنا الملحة ومتطلباتنا الاساسية بشأن التغيير والتقدم، عبر التطور والوسطية والاعتدال والبحث عن المشترك الانسانسي والاعتراف بالاخر والتسامح في التعامل معه وهو ما نطلبه لانفسنا من الاخر ايضاً[60].

((المبحث الثالث))

العملية السياسية في العراق وثقافة التسامح

اذا كانت السياسة وفقاً للمفهوم اليوناني ((فن الاتحاد بين الناس من اجل توجيه الحياة الاجتماعية والحفاظ عليها))[61] فأن الظرف الحالي الذي يمر به العراق يعزز هذه المقوله ويدعمها لانها منسجمة ومتناغمة مع الحقيقة الابرز بين الحقائق التي تمخض عنها الجدل الفكري والصراع السياسي والعنف بأشكاله المختلفة القائلة بأن فكرة الغاء الاخر واقصائه لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح.

لقد شهد العراق تحولات سياسية للفترة الممتدة من ١٤ تموز ١٩٥٨– ٩ نيسان٢٠٠٣ وعلى الرغم ما صاحب هذه التحولات من عنف سياسي وضعف المشاركة السياسية وغياب ثقافة التسامح فأن الدولة ومؤسساتها ظلت قائمة ولم يحصل ماحصل في عام ٢٠٠٣ بعد الاحتلال الامريكي للعراق وتخطيط الادارة الامريكية لتقويض ركائز الدولة العراقية وحدوث فراغ سياسي وامني واجتماعي خطير لم يسبق له مثيل، وهذا ما طرح اشكالية اعادة بناء الدولة العراقية من جديد وضرورة ارساء قيم الديمقراطية وحقوق الانسان والتسامح ولم يكن لهذه التطورات نصيبها من النجاح نتيجة عوامل داخلية واقليمية ودولية تأتي في مقدمتها العوامل الداخلية المتمثلة في طبيعة النخب السياسية والحزبية والعلاقات القائمة بينها ورؤيتها للحل المنشود، فبعد تجربة قاسية مريرة شهدتها السنوات الماضية بدأت هذه النخب تتحدث

---

[60] د . عبد الحسين شعبان. فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي . مصدر سابق ص ١٦٢.

[61] مارسيل بريلو – جورج لبسكييه. تاريخ الافكار السياسية. مصدر سابق ص ٥٧.

عن ضرورة طرح مشروع وطني يكون بعيداً عن المحاصصة الطائفية والعرقيــة يمكــن ان يساهم في ايجاد الحلول للمشاكل التي تطفوا على الساحة العراقية.

كان الخطأ الاول الذي ارتكبته هذه النخب هو الاسراع في تشكيل السلطة السياسية وليس بناء الدولة ومؤسساتها لتكون الحاضنة للمشروع الوطني الذي طال انتظاره.

اما الخطأ الثاني فكان تشكيل السلطة السياسية علــى اســاس طــائفي وعرقــي واصبحت عائقاً امام بناء الدولة بعدما تغلغلت هذه المحاصــصة الــى مفاصــل عــدة فــي المؤسسات الحكومية والخطأ الثالث وهو اشدها خطراً وفتكاً هو الصراع على السلطة وانعدام الثقة بين السياسيين العراقيين حيث مكنت الاخرين من التدخل بشكل سافر في الشأن العراقي سواء كان ذلك الاخر محتلاً او دول جوار بما يؤمن مــصالحهم ولايــصب فــي المــصلحة الوطنية.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال المؤتمرات التــي عقــدتها دول الجــوار للعــراق بالاضافة الى الطرف الامريكي حيث ما فتأت هذه الدول تعلن عن دعمها للعملية الــسياسية وحرصها على وحدة وسلامة واستقرار العراق ولكن واقع الحال يشيرعكس ذلك لان الحقيقة التي بات يدركها الجميع أن الثالوث البغيض: الاحــتلال والارهــاب وبعــض دول الجــوار تشاركوا" وعملوا سوية على تصديع نسيج المجتمع العراقي وخلق حاله من الافتــراق بلغــت ذروتها في بعض الاحيان الى حد الاحتراب بين ابناء الشعب وتعمق هذا الــشرخ فــي ظــل الصراع على السلطة ونزعات الاستئثار والمحاصصة والفساد المالي والاداري"[٦٢].

وهذه المسأله تضع صانع القرار السياسي في العراق أمام حقيقة ان حل المشاكل التي نعاني منها تقع على كاهل ابناءه ولاضير ان نتلقى بعض الافكار البناءة والدعم من هــذا الطرف او ذاك ولكن لايمكن بأي حال من الاحوال ان يحل ويتحدث الاخر نيابة عنــا لآن هذه مفارقة لايمكن قبولها بعد ان كشفت الاحداث والوقائع التقاء منطق الاحتلال وبعض دول الجوار على اللعب على ورقة خطيرة هي ورقة الطائفية والعرقية وهم بذلك ارادوا أن يقولوا

[62] أحمد الناجي . المصالحة خيار واعد على صدارة المهمات الوطنية في عراق الصراع والمصالحة . كتاب الحوار المتمدن ، دار الشروق للطباعة . الطبعة العربية الاولى . بغداد ٢٠٠٧ ص ١٢٩

العراق فيه العرب والاكراد والتركمان وبقية الاقليات وفيه الشيعة والسنة والمسيحين وما نصنعهُ هو تمثيل الواقع العراقي بكل مكوناته!

ولم يدرك هؤلاء او هم ارادو ذلك ان يرسموا للعراق صورة قاتمة وغير واضحة المعالم والالوان ولاتعبر عن تاريخه ودوره الحضاري، ان هذه التعددية وهذا التنوع التي ينظر اليها البعض على انها نقطة ضعف وعدم استقرار فأنها في الحقيقة والواقع مصدر قوة للدولة والمجتمع اذا ما تم التعامل معها برؤية صحيحة تتسم بوضوح الاهداف والوسائل وتضع المصلحة الوطنية فوق اي اعتبار اخر ولنا في التجربة الماليزية مثال ساطع يمكن الاستشهاد به ((فماليزيا عاشر اسرع اقتصاد نمواً في العالم خلال الفترة ١٩٧٠-١٩٩٠ مثال على دولة متنوعة اثنياً وناجحة اقتصادياً، اذ ان ٦٢٪ من السكان ملاويون و٣٠٪ صينيون و٨٪ هنود))[63] وعلى الرغم من هذا التنوع الاثني فالانموذج الماليزي القائم على قبول الاخر والتواصل معه انتج استقراراً سياسياً واجتماعياً[64] قاد البلاد الى نجاحات عديدة .

وفي خضم هذه التجاذبات والصراعات جاءت فكرة المصالحة الوطنية وهي فكرة جميلة سبقتنا اليها الكثير من الدول والشعوب[65] حيث يدعوا برنامج المصالحة الوطنية من بين جملة أمور الى نبذ العنف بجميع اشكاله والالتزام بحل الخلافات بوسائل سياسية وقانونية ويحبذ القيام بعملية سياسية شاملة ترمي الى بناء الثقه وطمأنة من يشعرون بالخوف والاقصاء (لآن جوهر المصالحة يقوم على استحضار العقل الغائب واستدعاء الحكمة المغيبة ومنطقها يبدأ من مثابة التسامح والحوار مع الاخر والتعايش معه والاعتراف به واطارها العدل والسلم الاجتماعي والتآخي والتساكن والالفة ونبذ الانتقام ومجمل هذه القيم النبيلة نابعة من روح الدين الاسلامي والديانات السماوية الاخرى ومتماهية مع نداءات الضمير الانساني والفكر الحر الخلاق[66].

---

63 تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤ الحرية الثقافية في عالمنا المتنوع . عرض مصطفى محمود عبد السلام المستقبل العربي السنه ٢٧ العدد ٣١١ ١/٢٠٠٥ ص ١٧٣

64 احمد محمد مطر . الرأي العام العراقي – الى اين . اوراق عراقية ، مركز الفجر للدراسات العراقية العدد ٣ تموز ٢٠٠٥ ص ٢٢

65 للاطلاع على بعض التجارب في المصالحة الوطنية انظر . احمد الناجي المصالحة خيار واعد على صدارة المهمات الوطنية. مصدر سابق. ص١٣٠ .

66 المصدر نفسه. ص ١٣١

والقيام بهكذا مهمة وكما جاءت في وثيقة العهد الدولي ((مسؤولية الحكومة تجاه مواطنيها بغية ارساء مؤسسات وممارسات تتسم بالشفافية يخضع من خلالها موظفوا الدولة للمحاسبة عن افعالهم والاعتراف بأن امن وازدهار وسعادة الشعب العراقي يتوقف على التزام الحكومة العراقية بمواصلة الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الاساسية[٦٧].

وهكذا باتت الدعوة الى المصالحة الوطنية الحديث الشاغل للكثير من السياسيين والاعلاميين وعموم المواطنين سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي او الاقليمي او الدولي حتى لايكاد خطاب من خطب الرئيس الامريكي جورج دبليو بوش يخلو من موضوع المصالحة الوطنية وضرورة الربط بين التقدم الامني الحاصل على الارض وتعثر العملية السياسية!

واذا كان الجميع مهتماً الى هذا الحد بموضوع المصالحة الوطنية فأن المصالحة ليست شعاراً يرفع وانما يجب ان تكون ((استراتيجية العمل للمرحلة القادمة))[٦٨] كما يرى السيد نوري المالكي رئيس الوزراء العراقي, اي ان المسألة لاترتبط بطرح الفكرة وتسويقها بل ان المهم والصحيح هو تهيئة مستلزمات نجاحها واول هذه المستلزمات هي رؤية الاطراف المختلفة لفكرة المصالحة الوطنية وكيفية تحقيقها والنتائج المرجوة منها .

ونقطة الشروع في هذا المسعى هوما اطلق عليه الفلاسفة والعلماء ((النسبية)) نسبية الحقيقة والمعرفة وان نقبل بمبدأ ((قابلية الوقوع في الخطأ)) وان نحذو حذو فولتير في اخذه على محمل الجدية مسألتين: قابلية البشر للوقوع في الخطأ والتسامح[٦٩] ويمكن التعبير عن ذلك في الصيغة الاتية ((قد أكون انا على خطأ وقد تكون انت على صواب. وقد يكون هذا مدخلاً كافياً للوصول الى تسامح متبادل والى مجتمع صالح حسب رؤية كارل بوبر والذي يضع هذه الصيغة في ثلاث مبادىء او ثلاثة اجزاء[٧٠]:

(١) قد اكون انا على خطأ وقد تكون انت على صواب.

(٢) دعنا نتفاهم حول الامور بشكل عقلاني.

---

67 صوت العراق 2007/4/17. www.sotaliraq.com

68 جريدة الصباح العدد ١١٣١ ٥ حزيران ٢٠٠٧

69 كارل بوبر . التسامح والمسؤولية الفكرية . مصدر سابق.ص ٨٦ .

70 المصدر نفسه، ص٩١.

(٣) قد يكون من شأننا ان ندنو من الحقيقة حتى ولو لم نصل الى اتفاق.

النقطة الرئيسية هنا هي فكرة الاقتراب من الحقيقة حتى وأن لم نتفق لآنه من الاهمية بمكان أن نتمكن من التعلم بعضنا من البعض لنرى بالتالي اننا كنا مخطئين وأنه لمن المهم الا نطلب اكثر مما ينبغي من نقاش عقلاني.

ولكن لم يتحقق هذا النوع من التفاهم كما يطلب كارل بوبر للوصول الى مقاربة فكرية وسياسية تساعد على الحل، واثبتت تجارب انظمة الحكم المتعاقبة على العراق منذ عام ١٩٥٨ ولحد الان ان القاسم المشترك الاعظم الذي يجمع بينها هو غياب ثقافة التسامح والاعتراف بالاخر وممكن الخطورة في هذا السلوك "ان التنشئة الاجتماعية والسياسية انتجت سلوكاً اجتماعياً وسياسيا جديداً تولد بعد سقوط نظام صدام حسين لايختلف عن السلوك الاجتماعي والسياسي القديم الذي ساد اثناء حكم حزب البعث والمتمثل بعدم القبول والاعتراف بحق الاخر في الاختلاف"[٧١].

واتساقا مع هذه الافكارتبدوالساحة العراقية في امس الحاجة الى جدل فكري وسياسي يهدف للوصول الى مشتركات ((مقاربات)) من شأنها ان تجسر الفجوة بين الاطراف المختلفة وتؤسس للغة الحوار العقلاني البناء الذي هو غائب عن الساحة العراقية والتوافق على ان ((امثل سبيل لتصويب مسار الحياة السياسية الوطنية هو اعادة تأسيس السياسة من مدخل الاعتراف المتبادل والبحث عن جوامع ومشتركات من شأنها تفريغ الازمة من عوامل التفجر وترشيد الصراع السياسي ليصبح اكثر قابلية للضبط والمعالجة المرنة عند الازمات))[٧٢].

ويمكن القول من خلال ما تقدم ان على كافة القوى السياسية والاجتماعية والدينية ان تنطلق من حقيقة ان الاختلاف هو القاعدة وان التماثل هو الاستثناء وان صعوبة الوضع في العراق وتعقيداته لاتعني بأي حال من الاحوال استحالة الحل بل ان العكس هو الصحيح

---

[71] رعد سالم حافظ : هل يمكن اقامة ديمقراطية في العراق حوليات الاداب والعلوم الاجتماعية الرسالة ٢٥٤ الحولية ٢٧ الكويت ٢٠٠٦ ص ٢٤

[72] عبد الاله بلقزيز . جدليات الصراع والتوافق في المغرب نحو اعادة كتاب تاريخنا السياسي المعاصر . المستقبل العربي . السنة ٢٨ العدد ٣١٧ اب ٢٠٠٥ ص ١٣٤ .

فحينما تكون ((التحديات كبيرة فأن الاستجابة يجب ان تكون بمستوى هذه التحديات)) كما يرى الفيلسوف ارنولد توينبي[٧٣].

وهذا يتطلب أن تستند الفلسفة السياسية وبرنامج العمل على النقاط الاتية:-

١. التأكيد على قيمة الانسان العليا وهذا ما دعت اليه الديانات السماوية، والايات كثيرة في القرآن الكريم في هذا الصدد كما في قوله تعالى ((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا))[٧٤] كما ان الوظيفة الاجتماعية للقانون تهدف للحفاظ على حياة الانسان وحقه في حياة حرة كريمة من خلال تنظيم العلاقة بين المواطنين من جهة وعلاقتهم بالسلطة السياسية من جهه اخرى .

٢. اشاعة الثقافة التي تحل النزعة النسبية في وعي السياسة والمجال السياسي محل النزعة الشمولية وتحل التوافق والتراضي والتعاقد والتنازل المتبادل محل قواعد التسلط والاحتكار والالغاء فتفتح المجال السياسي بذلك امام المشاركة الطبيعية للجميع وتفتح معه السلطة امام ارادة التداول السلمي عليها[٧٥].

٣. ان الهدف النهائي من اي نظام سياسي هو تحقيق العدالة ((فما كان مطلوباً في جمهورية افلاطون وما هو مطلوب في الفكر السياسي المعاصر هو في نهاية المطاف العدالة))[٧٦] وترسيخ قيم المساواة الانسانية بين فئات المجتمع وافراده واعتبارها اسمى من الاختلافات العقائدية او العرقية او الدينية او الجغرافية الجهوية او غير ذلك وما يرتبط بذلك من التسامح وقبول الاخر والتعايش والايمان بالحوار كسبيل لحل الاختلافات وهذا لن يتحقق الا عندما تتمكن الدولة من بسط سلطتها

---

73 د. احمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٩٥ ص ٢٧١.

74 سورة الاسراء الاية ٧٠

75 عبد الاله بلقزيز . الانتقال الديمقراطي في الوطن العربي العوائق والممكنات في علي خليفة الكواري واخرون المسألة الديمقراطية في الوطن العربي سلسلة كتب المستقبل العربي ١٩٠ بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٠ ص ١٣٧

76 محمد عابد الجابري . قضايا في الفكر المعاصر – مصدر سابق ص ٧٢

المادية والقانونية لتكون بديلاً عن كل المظاهر غير القانونية ولان الدولة الدستورية القوية و العادلة هي غاية ووسيلة في الوقت ذاته.

٤. تبني المشروع الوطني من قبل الاحزاب السياسية ((وبأن تكون احزاباً وطنية بمعنى انفتاحها على مختلف المواطنين والابتعاد عن الولاء الفئوي الضيق وتوسيع دائرة الانتماء لهذا الحزب او ذاك بحيث لايكون سنياً او شيعياً او كردياً وان تكون هذه الاحزاب ديمقراطية وتطبق مبدأ ((الديمقراطية المركزية)) في علاقاتها مع اعضائها و مع الاحزاب الاخرى وان تكون احزاباً مدنية بمعنى عدم حملها للسلاح بصورة مباشرة او غير مباشرة[٧٧]. وان دور الاحزاب السياسية والنخب الوطنية وقوى المجتمع يتلخص بأنجاح مشروع الدولة الوطنية فهي الضمانة لانجاح مشاريع التعايش والسبيل لوقف مسلسل العنف الطائفي[٧٨].

٥. العمل على تفعيل المادة ((١٤٢)) من الدستور بخصوص اجراء التعديلات المطلوبة والتي تشمل كلاً من الديباجة وهوية العراق وقانون توزيع الثروات النفطية والعلاقة بين الحكومة المركزية وحكومات الاقاليم، وقضية كركوك والتأكيد على ان التعديلات هي قضية دستورية من جانب وتعزيز لمشروع المصالحة الوطنية من جانب اخر.

٦. ضرورة اتخاذ الاجراءات القانونية الفعالة لظاهرة الفساد المالي والاداري والتي بدون استئصالها. لايمكن الحديث عن اعادة الاعمار واحداث تنمية اقتصادية وتوفير فرص للعاطلين عن العمل وتقديم الخدمات الاساسية للمواطنين.

---

[77] محمد عبد الجبار الشبوط ، دور الاحزاب السياسية في تحقيق المصالحة الوطنية ، الاسلام الديمقراطي العدد ١٧ السنه الثالثة كانون الاول ٢٠٠٦ ص١٧

[78] حسين درويش العادلي – فشل مشروع الدولة . الاسلام والديمقراطية . العدد ١٨ السنة الثالثة ايلول ٢٠٠٧ ص ٧٩

الخاتمة

لقد اتضح لنا ماتقدم في هذه الدراسة مايأتي :-

١. **اذا كان التاريخ الحديث قد** شهد ولادة مفهوم التسامح **فأن الديانات السماوية والمدارس الفكرية والفلسفية قد** دعت الى التسامح بتعبيرات **وصياغات متعددة قبل ذلك بكثير.**

٢. **ان التسامح يعني حق الفرد** او الجماعة في الاختلاف **من جهه وواجب الفرد او الجماعة احترام حق الغير في الاختلاف** من جهه اخرى، **والاقرار بـ((شرعية الاختلاف)). لأن البديل عن التسامح هو التعصب** والتطرف والعنف.

٣. **ان الصراع الذي كان قائماً** طيلة الحرب الباردة بين **الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يهدف الى الهيمنة** والنفوذ والمصالح وليس من اجل **الديمقراطية وحقوق الانسان كما ترى الولايات المتحدة** والسلام العالمي كما كان يعلن الاتحاد **السوفياتي.**

٤. **نجحت الولايات المتحدة** بالهيمنة والتفرد في **قيادة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ورفض الاخر واقصائه في** ظل ما يسمى ((النظام **العالمي الجديد)) تحت ذريعة نشر الديمقراطية ومحاربة** الارهاب.

٥. **عند الوقوف على** طبيعة العلاقة بين الانا والاخر **على صعيد الوطن العربي يمكن القول ان مختلف الايديولوجيات** التي سيطرت على الساحة **السياسية في الوطن العربي خلال القرن الماضي وحتى يومنا** هذا كانت بعيدة **كل البعد عن ثقافة التسامح فكرا وسلوكا.**

٦. **تتحمل الولايات المتحدة** المسؤولية القانونية والاخلاقية **جراء سياساتها في العراق التي قادت الى زيادة دائرة العنف** والارهاب بسبب الفراغ **السياسي والامني الذي حدث نتيجة تقويض ركائز الدولة العراقية** والذي وجدت فيه بعض دول الجوار **فرصتها الذهبية لتحقيق اهدافها في العراق.**

٧. **ان العراق بحاجة الى ثقافة** سياسية تغلب لغة الحوار **على لغة الصراع وبأنها السبيل الوحيد لحل الخلافات** والمشاكل وان سياسة الاقصاء **لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح.**

الحوار وقبول الاخر في التراث الاسلامي

الدكتور
ياسين حسين ألويسي(*)

المقدمة:

ان من اهم متطلبات المرحة التي نعيشها اليوم هي مسألة تعزيز ثقافة الحوار وقبول الاخر لان العراق لا ينهض الا بقوة ابنائه وان هذه القوة لا تكون الا بالتحاور والاجتماع على ثوابت مشتركة لتكون قاعدة للانطلاق نحو رؤية مشتركة وتقديم الاهم على المهم فوحدة العراقيين من الامور المهمة فمن اهم المهمات هو توجيه الشارع العراقي الى نبذ الفرقة واشاعة الالفة تلك الالفة التي يفتقر اليها حتى بعض الرموز الدينية الان في حين ان التراث الاسلامي تراث زاخر وغني بثقافة الحوار وقبول الاخر والشواهد على ذلك كثيرة جداً فالاسلام أمرنا بان نتحاور مع بعضنا من اجل الوصول الى الحقيقة، فهذه المحاورة اقل ما فيها انها تظهر للطرف المحاور بعض الخفايا التي يجهلها ي الطرف الاخر، وقد جعل الشارع جل شأنه تنظيماً معيناً لهذه المحاورة فقال تعالى ((أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين)) النحل/١٢٥. والجدال بغير الحسنى محرم حتى مع اهل الكتاب بل والكفار ايضاً فقد ذكر ابو محمد الحسن بن علي العسكري (عليه السلام): عندما ذكر عند الصادق (عليه السلام) الجدال في الدين وان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" والائمة عليهم السلام قد نهوا عنه، فقال الصادق (عليه السلام) لم ينه عنه مطلقاً، ولكن نهى عن الجدال بغير التي هي احسن، اما تسمعون الله تعالى يقول ((ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن)) فصت/٣٤، وحتى الذين يدعون الى عبادة غير الله يجب محاورتهم بالحسنى وعدم

(*) جامعة ذي قار

الاساءة لهم في الحوار قال تعالى ((ولا تسبوا الذين يدعون مــن دون الله فيــسبوا الله عدواناً بغير علم)) الانعام/١٠٨، لقد ولدت في بغداد الكثير مــن الافكــار الــصالحة والمنحرفة على حد سواء فكانت بغداد الحمى الذي تدور فيه وفي مجالسه كل الافكار العقائدية والفلسفية بل ومختلف العلوم والمعارف، ولم تعرف هذه المدينــة العظيمــة ضيق الافق والتزمت والتعصب للافكار ولم يصل الامر مهما اشتد الخلاف الى التفكير لان ذلك من الامور الخطيرة بعكس ما نحن فيه اليوم، فقد كان الباقلاني وهو من كبار أئمة اهل السنة يتردد كثيراً على مجلس الشيخ المفيد وهو من اعــلام أئمــة الــشيعة الامامية ومن تثنيه له الوسادة في وقته ويتحاورون بمحبة ولطف ويتمازحون فيما بينهم في وقت يختلفون فيه ويتناظرون في اصعب المسائل العقائدية، وكذلك كان الجرجاني يأخذ بعض علومه على يد الشيخ الطوسي، والشافعي كانت له علاقة وثيقة مع بــشر المريسي فكان اذا قدم الى بغداد نزل عند بشر، والامثلة كثيرة جداً ولا يخفــى علــى الجميع ان ابا حنيفة مات في السجن بسبب ملازمته للامام زيد بن علي السجاد (عليــه السلام). فلماذا لا نستمد من اسلافنا هذه الثقافة التي دعا اليها الله ورســوله والائمــة (عليهم السلام جميعاً)، انه اللقاء والحوار الصادق هو السبيل الامثل للخروج مما نحن فيه وان لا ندع فرصة لمنيصطاد بالماء العكر ان يعكر صفو اخوتنــا وان لا نــسيس الدين للوصول الى اغراض ومكاسب شخصية وانية لان النتيجة الحتمية هو ان هــذا الشعب واحد وانه في النهاية لا يصح الا الصحيح. وقد عرجت في هذا البحث علــى ثقافة الحوار في القران الكريم، وفي السنة النبوية، واقوال الائمــة (علــيهم الــسلام) والشواهد التاريخية في ذلك.

المبحث الاول

الحوار والالفاظ ذات الصلة به في القران الكريم:

الحوار هو اهم ما نعتز به في تراثنا الاسلامي ولعل من المهم هنا ان نورد بعض التعريفات المهمة لتبيان مدلول هذا المصطلح فمنها: ان الحوار(هو عملية تعاط بين الجانبين ليستفيد كل جانب مما عند الاخر)[١].

اما مطاع صفدي فيعرف الحوار بأنه (تأسيس لمعنى الاختلاف الذي ينتج معنى خارج المعنى المعهود ومن دون كل المواريث المذهبية والمنهجية والمفهومية)[٢].

ويذهب الدكتور وجيه قانصوه الى ان (الحوار يعني اكتشاف الاخر داخل الذات، ويعني ايضاً وبالمرتبة نفسها، اكتشاف الذات في نظر الاخر، اي التعرف على الانا الموضوعية التي يراها الاخرون مقابل الانا الذاتية التي نراها نحن)[٣].

ونحن اذ نتحدث عن الحوار باعتباره قيمة اخلاقية ترتقي بالنفس الى اعلى مراتب التفاهم بين البشرية وهي ترد الى ذهن الانسان مباشرة معان راقية من القيم والمفاهيم الانسانية فالحوار اهم وسيلة للتعرف على الاخر وبهذا المعنى (يكون الاخر امتداد للذات ومجالاً خصباً للتعرف على عوالم مختلفة كان من اممكن ان تكون عوالم الذات نفسها لولا مصادفة الزمان وندرة المكان. الحوار بهذا المعنى يولد من جهة عودة دائمة الى الذات لنعيد النظر في كل ما نفهمه ونخطط له فلا نغرق في منتجاتها بقدر ما نرفع الغطاء عن الات انتاجها فلا تتحول الذات بذلك الى مذهب او تصبر مطلقاً او تتنصب تمثالاً في متحف التاريخ)[٤]، وقد دل القران الكريم على اهمية الحوار واختار الفاظاً معينة تعارف عليها المسلمون والدعاة منهم على وجه الخصوص ومن الالفاظ القرانية التي تفيد معنى الدليل واقامة لحجة في الجدال والنقاش هذه الالفاظ/

---

[1] التعريف مقتبس من كلمة الدكتور محمد علي اذرشب، الملقاة على هامش مؤتمر "كيف نواصل مشروع حوار الحضارات المنعقدة في دمشق ١٩-٢١/١/٢٠٠٢، ضمن كتاب الثقافة الاسلامية، ج٢، ص١٢.

[2] مطاع صفدي: نقد العقل الغربي، مركز الانماء القومي، بيروت، ١٩٩٠، ص١٩٧-٢٠٢.

[3] د. وجيه قانصوه، حوار الحضارات والتاسيس للمختلف، كتاب الثقافة الاسلامية، ج٢، ص١٨٦.

[4] المرجع نفسه، ص١٨٦.

البرهان، البيان، الحجة، الدليل، والسلطان. وقد اختلف تكرار هذه الالفاظ في القـران الكريم، فجاء لفظ سلطان اكثرها تكراراً وكان غالباً يأتي مقترناً بوصـف -المبـين- وكان أقل هذه الالفاظ وروداً لفظ -الدليل- الذي ورد مرة واحدة في قوله تعالى ((ثـم جعلنا الشمس عليه دليلاً))[5].

اولاً: البرهان: لقد ورد لفظ البرهان بعدة مواضع من القران الكريم فمنها قوله تعـالى ((قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين)[6]، فأراد تعالى بالبرهان، الحجـة الفاصـلة البينة، ويبرهن بمعنى "يبين وجمعه ببراهين".

ثانياً: البيان: ورد لفظ البيان في القران الكريم للدلالة على ما يتبين به الشيء ويتضح ففي قوله تعالى ((وهو في الخصام غير مبين))[7]، اي غير واضح. ومنـه قولـه تعالى ((الا ان يأتين بفاحشة مبينة))[8]، اي ظاهرة وواضحة.

ثالثاً: الحجة: وقد وردت بمعنى الدليل والبرهان ومنه قوله تعالى ((وحاجه قومه قـال اتحاجونني في الله وقد هدان))[9]، وايضاً وردت في قوله تعالى ((والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غـضب ولهـم عذاب شديد))[10]، اي الذين يوردون حجج غير منطقية ويبرهنون ببراهين واهية لا ترقى الى مستوى الاقناع.

رابعاً: الدليل: وهو ما يستدل به لاثبات أمر يعنيه قال تعالى ((ثم جعلنا الشمس عليـه دليلا))[11]، اي جعلنا ما يستدل به عليه الشمس اي على الظل من كونه متحركاً او ثابتاً من مكان الى اخر.

---

[5] سورة الفرقان، الاية ٤٥.
[6] سورة البقرة، الاية ١١١.
[7] سورة الزخرف، الاية ١٨.
[8] سورة الطلاق، الاية١.
[9] سورة الانعام، الاية ٨٠.
[10] سورة الشورى، الاية ١٦.
[11] سورة الفرقان، الاية ٤٥.

خامساً: السلطان: لقد ورد لفظ السلطان في القران الكريم بصيغتين معـــروفتين عنــد العرب الاولى اذا ذكر السلطان دل على القوة في الدليل ومنه قوله تعالى ((ولقــد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين))[12]، واما من انثه ذهب الى معنى الحجة ومنه قوله تعالى((ذهب عني سلطانيه))[13]، اي بطلت حجتي وذهبت عني.

وهذه الالفاظ كلها مهمة في الحوار لانها تؤدي الى ما يتوخاه المحاور من محاورته ومن هذه الامور الكشف عن ما في خفايا المحاور وايضاً ألقاء الحجة عليــه وابطال دعواه مع قبوله رغم الاختلاف الناشئ والاعتراف به واحترامه وعدم ازدرائه والتقليل من شأنه وقد اشار القران الكريم في اسلوب المحاورة هذا بقوله ((واذا تتلــى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للذين امنوا اي الفريقين خير مقاماً واحسن نديا))[14]، فأن سأل المحاور عن مكانته قيل له انه ذي مقام عال ومكانة بارزة لكــي لا ينقلــب الحوار الى مجادلة لا طائل منها وفي كل هذه الالفاظ نجد النصوص الاسلامية تركــز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدث علمائنا القدامى عن اداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكروه جميعاً في منطقة الشروط الضرورية.

---

[12] سورة هود، الاية ٩٦.
[13] سورة الحاقة، الاية ٢٩.
[14] سورة مريم، الاية ٧٣.

المبحث الثاني

الحوار واحترام الاخر في السنة النبوية:

لا شك ان النبي" صلى الله عليه وسلم" هو خير من يحاور وهو خير من علمنا لغة الحوار وأسلوبه واحترام المحاور والسنة النبوية تفيض بالامثلة على ذلك فقد كان "صلى الله عليه وسلم" ينتقي الفاظه ولا يزدري محاوره وان أساء في الفاظه فعن جابر ب عبد الله قال: (بينما رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقسم بالجعرانة اذ قال له رجل اعدل فقال له: لقد شقيت ان لم اعدل) فلم يغضب النبي من قول الرجل وعلى الرغم من كون النبي "صلى الله عليه وسلم" نبياً من الانبياء يتلقى الوحي من السماء، غير ان المشاعر الانسانية المختلفة تتناوبه كغيره من البشر فتمر به حالات من الفرح والسرور، والحزن والضيق، والرضا والسكينة، والغضب والغيض. وهنا تبرز قيمة العنصر الاخلاقي في حياة النبي" لى الله عليه وسلم" في وضع الانفعالات المتباينة في اطارها الشرعي حيث هذبها وصانها عن الافراط والمغالاة، والتفريط والمجازفات، بل اضاف لها بعداً جديداً حينما ربطها بقضية الثواب والعقاب وكا شعاره " صلى الله عليه وسلم" (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)[15]، فالاخلاق اساساً مهماً في الحوار فمن اخلاق الحوار التي وصى بها رسول الله "صلى الله عليه وسلم":

١. مناداة المحاور بأحسن اسماءه، والنهي عن التنابز بالالقاب.
٢. انتقاء الالفاظ المستخدمة وبعدها عن الازدراء.
٣. نبرة الصوت والبعد عن التشدق ورفع الصوت في الحوار.
٤. حسن الاستماع.
٥. اللطف في العبارة.
٦. النزول عند رأي الاخر ان كان حقاً.
٧. الحلم على المحاور.

---

[15] رواه البيهقي.

٨. عدم اكراه المحاور.
٩. محبة الخير للمحاور.
١٠. عدم الغرور اثناء الحوار.
١١. احترام المستوى الذي عليه المحاور.

وسوف نسوق بعض الامثلة التي تمثلت بها اخلاق النبي "صلى الله عليه وسلم" في محاورة الاخر. فمنها انه كان ينادي محاوريه باحب الاسماء اليهم ففي الخبر انه "صلى الله عليه وسلم" كان ينادي عبد الله بن سلول وهو رأس النفاق بقوله: "يا ابا الحباب" ومنه انه "صلى الله عليه وسلم" نادى عتبة بن ربيعة "يا ابا الوليد" في حين كان عتبة يعرض عليه التخلي عن الدين مقابل بعض العروض التي كان يعرضها عليه وهذا الخبر مشهور ايضاً[16]. وروى البخاري انه عليه السلام قال: (ان من احبكم الي واقربكم مني مجلساً يوم القيامة احسنكم اخلاقاً وان ابغضكم الي وابعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فم المتفيهقون قال: المتكبرون)[17]، وكان عليه السلام الطف الناس في العبارة وكان ينتظر محدثه حتى ينتهي ثم يبدأ بالكلام ففي قصة عتبة ان النبي عليه السلام تركه حتى انهى حديثه وكل ما عرض على النبي "صلى الله عليه وسلم" من مال وجاه وغير ذلك من الامور وبعدما انهى حديثه اجابه النبي عليه السلام بالرفض والحديث مشهور" والله لو جعلوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته اما ان يظهره الله على يدي او اهلك دونه" وكان عليه السلام ختار عبارات تؤثر في فس المستمع ففي الخبر (ان يهودي جاء يسأل النبي عليه السلام فقال له عليه السلامأينفعك ان حدثتك؟ قال: اسمع بأذني فنكت عليه السلام بعود

[16] ينظر ابن المقفع الادب الكبير والادب الصغير، تحقيق: العالم فوال، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٤٥، وايضاً السيرة النبوية لابن هشام.
[17] متفق عليه واللفظ للبخاري.

معه فقال :سل[18] فأخذ اليهودي يسأل ورسول الله يجيب بكل ما حلم واحترام للمحاور وقد روى البخاري انه عليه الصلاة والسلام (خرج ذات يوم على بعض اصحابه وهم يتنازعون في القدر، فغضب حتى احمر وجهه كأنما فقئ في وجنتيه الرمان فقال: أبهذا أمرتم؟ ام بهذا أرسلت اليكم؟ انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا)[19]، وغضب عليه الصلاة والسلام من تكلف الناس في السؤال عن الامور الدقيقة فيكون سؤالهم سبباً في التشديد عليهم، وكذلك سؤالهم عما لا يفيد. وقد روى البخاري ايضاً من حديث ابي موسى الاشعري انه قال: سئل النبي" صلى الله عليه وسلم" عن اشياء كرهها، فلما اكثر عليه غضب، ثم قال للناس(سلوني عما شئتم)[20]، ومعنى ذلك ان النبي عليه الصلاة والسلام لم يغضب من السؤال وانما غضب وانزعج من نوع السؤال الذي لا جدوى منه ولا فائدة. وكان عليه الصلاة والسلام ينزل عند رأي المحاور اذا وجده على صواب فقد اخذ عليه الصلاة والسلام برأي الحباب في غزوة بدر، وأخذ برأي الشباب في غزوة احد عندما اختلف المسلمون هل يخرجون خارج المدينة للقاء العدو؟ والاحاديث في ذلك كثيرة. وكان عليه الصلاة والسلام مع حبه الخير للاخرين ولمن يدعوهم الا انه لم يكن يجبرهم على اي امر جبراً حتى انه لم يكرههم على الدخول في الاسلام وخير مثال على ذلك دعوته لعمه ابا طالب وغيره ممن كان يحرص على دخولهم الاسلام فانه لما حضرت ابا طالب الوفاة دخل عليه النبي "صلى الله عليه وسلم" وعنده ابو جهل وعبد الله بن ابي امية فقال: يا عم قل لا اله الا الله كلمة احاج لك بها عند الله... الخ وكذلك في دعوته لعمر بن الخطاب حين دعاه للاسلام. فكان يدعو عليه الصلاة والسلام من يدعو من دون اكراه او الزام، ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام في الحوار انه عندما اتاه رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له

---

[18] ينظر ابن كثير البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ج١، ص٢٢.

[19] رواه البخاري.

[20] رواه البخاري.

(هون عليك فاني لست بملك، انما انا ابن امرأة تأكل القديد)[٢١]، وفي احترامه عليه الصلاة والسلام لمستوى المحاور ما ورد في الخبر انه عليه الصلاة والسلام قال: (أمرنا ان نخاطب الناس بما يعقلون)[٢٢]. ومن مظاهر اهتمامه عليه الصلاة والسلام في الحوار: ارساله الوفود والرسل الى ملوك الارض يدعوهم للمحاورة، وايضاً محاورته عليه الصلاة والسلام مع اهل الكتاب، ومحاورته مع المشركين في صلح الحديبية ومنها كتبه ورسائله وغير ذلك مما يؤكد اهمية الحوار في السنة النبوية الشريفة.

---

[21] رواه البخاري.
[22] رواه البخاري.

المبحث الثالث

اهمية الحوار وقبول الاخر في اقوال الائمة والشواهد التاريخية:

لا شك ان اهمية الحوار ثابتة في اراء الائمة كما ثبتت في القــران الكــريم والسنة النبوية المطهرة وسنأخذ من ابرز الائمة في هذا المجال الامام جعفر بن محمد الصادق. وهو الامام السادس من ائمة اهل البيت عليهم السلام. ويعتبر الامام جعفــر عليه السلام من أهم أسس للحوار في التراث الاسلامي لا شك وأنه أتخذ سبيلين للحوار الاول/ داخلي وهو الذي سنفصل القول فيه، والثاني/ خــارجي وهــو المتمثــل فــي مناظراته مع أصحاب الاديان والملل غير الاسلامية ولا بد لنــا قبــل الولــوج فــي محاوراته عليه السلام من التعريف بشخصيته وصفاته التي لا يختلف عليها أحد فقــد كان كما ذكر محمد أبو زهرة انه (تتبين قوة شخصية الامام، من خلال نسبه الشريف فقد انتهى نسبه الى أبوين كريمين في الاسلام فانتهى نسبه من جهة ابيه الى سيف الله المسلول وفارس الاسلام، علي بن ابي طالب(عليه السلام) وانتهى نسبه من جهة أمــه الى صديق الامة ووزير النبي ابي بكر وهو فوق كل هذا نال أكبر شرف في الاسلام بعد العمل الصالح وهو أنه من عترة النبي الطاهرة... وقد اتصف الامام الصادق التقي بنبل المقصد وسمو الغاية والتجرد في طلب الحقيقة من كل هــوى، او عــرض مــن اعراض الدنيا، فما طلب امراً دنيوياً وما طلب امراً تشتابه الــشبهات او تحــف بــه الشبهات، بل طلب الحقائق النيرة الواضحة وطلب الحق لذات الحق لا يبغي به بديلاً، لا تلبس عليه الامور، واذا ورد أمر فيه شبهة هداه اخلاصه الى لبه ونفذت بــصيرته الى حقيقته بد ان يزيل عنه غواشي الشبهات، واذا عرض أمر فيه شــهوة او اثــارة مطمع بدد لظلمات بعقله الكامل وهو في هذا متصف بما ورد في حديث مرسل عــن النبي "صلى الله عليه وسلم" اذ قال:(ان الله يحب ذا النصر النافذ عند ورود الشبهات،

ويحب ذا العقل الكامل عند حلول الشهوات)[٢٣]، وسوف نقتصر على اقوال هذا الامام الجليل ومحاوراته ونصحه في طريقة الحوار وتقبل الاخر واراءه.

لقد كان الامام الصادق عليه السلام يتمتع بمواصفات عالية في الحوار، والى جانب ذلك كان من اصحاب الكشف الذين كشف الله تعالى لهم حقائق وخبايا الامور ومصداق ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ((وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد))[٢٤]، ومن غير الامام الصادق له كل هذه الكرامة فكان ابرز الناس في عصره بكل جوانب المعرفة. (فلقد كان من الناحية الفكرية والثقافية عصر الامام الصادق عصر النشاط الفكري والثقافي، وقد حدثت في ذلك العصر حركة علمية منقطعة النظير في المجتمع الاسلامي ونشأة العلوم المتعددة سواء العلوم الاسلامية مثل علوم قراءة القران والتفسير والحديث والفقه والكلام او العلوم الانسانية العامة، مثل علوم الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات ولدرجة انه كل من كان له بضاعة فكرية وعلمية كان يعرضها على الامام ان يجيب عليه ويستجيب له. وان نشاطات الامام الصادق لم تنحصر في المجالات العلمية بكل ما لها من سعة وعمق بل كان له نشاطات سياسية ايضاً غير ان هذا الجانب من نشاطاته ظل خافياً على كثير من المحدثين والكتاب، وبدافع بث فكرة الامامة ارسل الامام الصادق من يمثله الى سائر ارجاء البلاد ومنهم رجل كوفي بعثه الامام نيابة عنه الى خراسان يدعوهم لامامته ففرقة اطاعة واجابت وفرقة جحدت وأنكرت وفرقة ورعت ووقفت خوفاً من الفتنة، ثم خرج من كل فرقة رجل يمثل فرقته للقاء الامام الصادق وكان ممثل الفرقة الثالثة قد قام بعمل قبيح مع احدى جواري بعض من معه دون ان يعلم به احد، ولم دخلوا على الامام كان المتكلم هو ذلك الرجل فقال: اصلحك الله قدمعلينا رجل من اهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايتك فأجاب قوم وأنكر قوم وورع ووقفوا. قال الامام: "فمن اي

---

23 محمد ابو زهرة: الامام الصادق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٣، ص٦٠-٦١.

24 سورة ق، الاية ٢٢.

الثلاث انت؟" قال: انا من الفرقة التي ورعت ووقفت قال الامام: فاين كان ورعك ليلة قيامك بذلك العمل الشائن؟)[25]، فهذا دليل على ان الامام صاحب كشف بالاضافة الى اسلوبه كمحاور فما احوجنا الى مثل هكذا اناس، ومن اقواله عليه السلام انه قال: (ان قدرت على ان لا تخرج من بيتك فافعل فان عليك في خروجك ان لا تغتاب ولا تكذب ولا تعسر ولا ترائي ولا تتصنع ولا تراهن ثم قال: نعم صومعة المسلم بيته يكف فيه بصره ولسانه ونفسه وفرجه)[26]، ومن اقواله ايضاً: قال لحمران: (يا حمران انظر الى من هو دونك ولا تنظر الى من هو فوقك في المقدرة فان ذلك اقنع لك بما قسم لك واحرص ان تستوجب الزيادة منربك واعلم ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين وأعلم انه لا ورع اولى من تجنب محارم الله والكف عن أذى المؤمنين واغتيابهم ولا عيش اهنأ من حسن الخلق ولا مال انفع من القنوع باليسير المجزي ولا جهل اضر من العجب)[27]، فأين نحن من اقوال الامام هذه هو يدعو الى عدم اغتياب المؤمنين فكيف باغتيالهم.

ومن اقواله عليه السلام ايضاً حيث قيل له " على ماذا بنيت امرك؟ فقال: (على اربعة اشياء، علمت ان عملي لا يعمله غيري فاجتهدت، وعلمت ان الله عز وجل مطلع علي فاستحييت، وعلمت ان رزقي لا يأكله غيري فاطمأننت، وعلمت ان اخر أمري الموت فاستعددت)[28]، وقال عليه السلام(من انصف الناس في نفسه رضي به حكماً لغيره، وقال: لا تسخطوا الله برضا احداً من خلقه ولا تتقربوا الى الناس بتباعد من الله، وقال: أحب أخواني الي من أهدى الي عيوبي)[29]، وأي أخ يهدي هذه العيوب غير المحاور الذي يكشف حقيقة الذات بمحاورة الاخر، وقال ايضاً: (الجهاد

---

[25] ينظر الدكتور علي عبد الله الدفاع روائع الحضارة الاسلامية، ضمن مواقع الحوار على شبكة الانترنت ص٤.
[26] المرجع السابق، ص٣.
[27] المرجع نفسه.
[28] المرجع نفسه، هذا القول ثابت للحسن البصري ايضاً.
[29] المرجع نفسه.

أفضل الاشياء بعد الفرائض)[٣٠]، وأي جهاد أفضل في وقتنا هذا غير الذي حدثنا به عليه الصلاة والسلام من ان (سيد الشهداء حمزة ورجل قال كلمة حق عند سلطان جائر)[٣١]، فيجب ان نقول الحق وان كرهه العدو الذي لا يريد لنا الا الهوان.

ومن الشواهد التاريخية في حوار الائمة وتراث الامة التالي:

لقد كان للامام جعفر مناظرات مع العلماء وغيرهم في الدين والعلوم الانسانية المختلفة وقد اتبع الامام الصادق منهجاً منطقياً تسلسلياً في المناظرة والنقاش وهو اسلوب علمي يبرز مكانته العلمية وقدرته على استحضار كافة جوانب الموضوع وحضور البديهية في الرد، (فقد كان الامام مالك بن انس اذا حدث عنه قال: حدثني الثقة بعينه وما رأت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر افضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً)[٣٢]، ومن مناظراته الامام الصادق عليه السلام ما رواه ابن شبرمة قال: (دخلت انا وابو حنيفة على جعفر بن محمد عليه السلام فقال لابي حنيفة: اتق الله ولا تقس في الدين برأيك، فان اول من قاس ابليس-الي ان قال- ويحك، ايهما اعظم قتل النفس او الزنا؟ قال: قتل النفس. قال: فان الله عز وجل قد قبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا الا اربعة! ثم ايهما اعظم، الصلاة ام الصوم؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة، فكيف يقوم لك القياس، فاتق الله ولا تقس)[٣٣].

---

[30] المرجع نفسه.

[31] رواه البخاري.

[32] الونعيم الاصفهاني حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج٣، مناقب الامام جعفر.

[33] محمد بن الحسن بن علي، المعروف بالحر العاملي (ت: ١١٠٤ هجرية) بمشهد الامام الرضا (عليه السلام) والمدفون بها، وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة) طبعة: مؤسسة ال البيت، سنة: ١٤٠٩ هجرية، قم/ايران، ج٢٧، ص٤٦.

الخاتمة:

ولقد توصلت من خلال بحثي هذا الى التالي:

١. ان الحوار هو السبيل الامثل لحلحلة جميع المشاكل العالقة في الفكر وفي الممارسات.

٢. يعتبر الحوار من الاساليب الحضارية المتقدمة لمعالجة المشاكل الانسانية.

٣. ان الدين الاسلامي بمصدره الرئيسة يدعو الى الحوار فالقران والسنة يؤكدان ذلك.

٤. ان الحوار الداخلي هو الخطوة الاولى لتكوين رؤية مشتركة ينطلق منها لمحاورة الاخر الخارجي.

٥. ان يكون الحوار بمحبة وصدق وان يبتغي به وجه الله تعالى ونية الوصول الى الحقيقة.

٦. اننا اليوم احوج من اي وقت كان الى الحوار وان يتقبل كل منا الاخر بالثوابت المشتركة للجميع وهمها المواطنة والايمان والانسانية.

٧. عدم ادلجة الدين والوقوف عند رؤية متشددة تستغل عطف الجماهير للوصول الى مكاسب سياسية بدعوى حماية مصالحهم الحفاظ على حقوقهم وهويتهم.

٨. ندعوا جميع وسائل الاعلام الى توجيه العامة ونشر ثقافة الحوار من خلال كشف القناع عن المخفي من تراث امتنا في مجال ثقافة الحوار وقبول الاخر.

واخيراً نسأل الله العلي القدير ان يوحد صفوفنا لتجاوز ازمتنا لاسيما ونحن نعيش اليوم اسوأ احتلال شهدته الانسانية.

الهوية-وازمة الانتماء

المدرس المساعد
علاء جبار احمد(*)

المقدمة:

في التاريخ الإنساني تعرضت هوية الانتماء لجملة من المتغيرات حتى استقرت على ما هو عليه الآن. ويبدو للباحثين ان هذا الاستقرار هو الآخر معرض لمتغيرات قد لا تنتج الجوانب الإنسانية الإيجابية لمضامين الانتماء وقد ترجعه الى حالات الاغتراب والضياع ليعيد من جديد ترتيب قواعد وأسس مادية ومعنوية وموضوعية لهوية انتماء جديدة.

هذا البحث يعني بدراسة متواضعة حول إشكالية موضوع الهوية ومسألة الانتماء وتفاعلاتها. وعندما نتناول هذا الموضع بالتحليل والتاريخ فأننا بذلك نؤمن بأهمية الموضوع الذي يدخل في خضم الموجة العاتية للحضارة الغربية التي أخذت وعلى نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ بالترويج لمبدأ الصراع الحضاري بدلا من الصراع الأيديولوجي الذي طغى في فترة ما من هذا الزمن.

وينطلق البحث في دراسة إشكالية الهوية ومن ثم أزمة الانتماء مع تصاعد الهيمنة الفكرية والمادية للغرب.

المبحث الأول :المعنى البدائي للهوية

إن الهوية تعني وحدة الانتماء، إلا أن هذا لا يعني التجانس، بل الوحدة في المتنوع وكل ما يؤيد إلى التقارب عند نقاط مشتركة[1].

وتتعلق الهوية بقضية تنمية الشعور بامتلاك الجماعة خصائص ذاتية مشتركة تميزهم عن الجماعات الأخرى، فهي ترتبط بالقدرة على خلق الشعور بالانتماء المشترك بين أفراد

(*) مدرس العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

[1] الدكتور صلاح قنصوة، الغزو الثقافي وحوار الحضارات، المنار السنة الثالثة، العدد ٣١، تموز ١٩٨٧م، ص١٣١.

الجماعة الوطنية الواحدة عن طريق تعزيز الإحساس بالولاء نحو الدولة الوطنية بمعزل عن انتماءاتهم الأثنية الفرعية المحلية وبالتالي امتلاكهم هوية خاصة بهم[٢].

وعادة ما تتشعب الهوية إلى ثلاثة مستويات[٣]:-

١. المستوى الفردي: ويعني شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة أو إطار إنساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات.
٢. المستوى الجمعي: ويعني تجسد الهوية في شكل تنظيمات وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري.
٣. المستوى المؤسساتي: وهو تبلور هذه الهوية في مؤسسات وأبنية وأشكال قانونية على يد الحكومات والأنظمة وهو ما يطلق عليه (مأسسة الهوية) وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لمأسسة الهوية هو تأصيل الهوية والسعي لتعبير أفضل عنها فإنها قد تؤدي إلى ضعف أصالتها وخمودها في النفوس، ذلك أن كل مؤسسة للهوية تخدم واحداً من جوانب الهوية على حساب جانب آخر.

ولقد عرف الأنسان الانتماء من خلال خلق هوية معبرة عن ارتباطات موضوعية أو وهمية تجلت في تميزه عن انتماء الأفراد للجماعات الأخرى لمراحل تطورية تاريخية اتسمت بصفات ومميزات لكل واحدة منها:

المرحلة البدائية:

هوية القرابة الدموية Consanguinly

كل علاقة اجتماعية تعتمد على نسب منحدر من جد مشترك هي علاقة قرابية دموية طالما أنها تتجسد بالروابط التي تربط أعضاء الفخذ والعشيرة الواحدة، وقد يعتبر الأفراد اللذين تتبناهم العشيرة (أي الأفراد اللذين يكونون الروابط الدموية الشكلية غير الأصلية) أعضاء في القرابة الدموية، ويقول العالم الأنثروبولوجي البريطاني ((راد كلف بروان)) من الضروري التمييز بين علاقات القرابة والمصاهرة الدموية الناشئة عن الزواج

---

[2] علي عباس مراد، التنمية السياسية وأزمة المشاركة، محاولة في تحديد المفهوم، (مجموعة باحثين وآخرون، مشكلات وتجارب التنمية في العالم الثالث)، بغداد، داشر الحكمة ١٩٩٠م، ص١٢٣.
[3] للمزيد أنظر عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٥٧، ١٩٨٣م، ص٧ وما بعدها: قارن مع محمد عابد الجابري، العرب والعولمة المصدر السابق نفسه، ص٢٩٨ وص٢٩٩.

والمصاهرة[4] من اجل ترسيخ الانتماء والمحافظة على هوية الأفراد حيث يشار إليهم على انهم من أفراد هذه العشيرة أو تلك الجماعة، ولم يرتقي حينها الانتماء إلى اسم الأرض إلى الاتحاد الجديد للجماعات الدموية ((العشائر والأفخاذ)) صوب القومية، لأن الجماعة القومية الأخرى بدأت من الأسرة والعشيرة والقبيلة التي هي مجموعة عشائر، كل تعتمد في التمييز والانتماء على رابطة الدم، وانطبق هذا المفهوم على معظم شعوب العالم القديم في آسيا وأفريقيا وأوربا لمرحلة بدائية للتعبير عن الهوية والانتماء[5].

الطوطمية: Totemisme

تطلق كلمة Totem التي نسب إليها ((الطوطمية)) على كل اصل حيواني او نباتي تتخذ عشيرة ما رمزاً لَها ولقباً لجميع أفرادها، وتعتقد إنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ترتقي الى منزلة التقديس، فأذا كان الذئب مثلاً " طوطماً" لعشيرة ما فمعنى ذلك ان العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزاً لها يميزها عما عداها من العشائر ولقباً يحمله جميع أفرادها للدلالة على انتمائهم إليه، وتعتقد انها وفصيلة الذئاب من فصيلة واحدة وهي علاقة مقدسة لأفراد الجماعة والعشيرة وتقع جميع عقائدها وطقوسها ومميزات سلوكها الدينية والثقافية التي تعبر عن الانتماء والهوية على أتساس هذا التقديس. ويندر ان يكون "الطوطم" من الجماد أو الطبيعة، إذ غالباً ما يكون من الحيوانات المعبرة عن رموز مؤثرة في الجماعة[6].

والطوطمية مرحلة أولى من مراحل الديانات البدائية وانتشرت بشكل خاص في أمريكا الشمالية وبالذات عند الهنود الحمر. وقد ظهر وجودها في استراليا أيضا وفي مناطق أفريقيا، والمهم هنا انها كانت ديانة بدائية ولكنها ركزت على هوية الفرد وانتمائه وطبيعة سلطة الجماعة من خلال عقائد هذا الانتماء في تنظيم أنفسهم والانغلاق على جماعتهم.

المدلول الأجتماعي والأقتصادي لهوية الانتماء البدائي:

أن ميزة البدائي في الافتقار الى الحضارة وفي حقبة ما قبل البداوة والمجتمع الريفي والقروي والمجتمع البدائي Primitive Society كان قاسياً في تحدي الطبيعة مع

---

[4] انظر : بروفسور دينكن ميشيل ـ معجم علم الأجتماع ـ ترجمة احسان محمد الحسن ـ دار الرشيد بغداد ص ٨٠ ـ ٨١

[5] د. جورج قرم ، تعدد الأديان وانظمة الحكم ـ دار النهار بيروت ١٩٧٩ .

[6] ابراهيم مدكور ـ معجم العلوم الأجتماعية ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

ضعف إمكانات الجماعة الدموية والطوطمية، وسمته كانت الترحال للهروب من هذا التحدي فلا مجال للارتباط الدائم مع الأرض حتى يرتب ذلك ميزة او خاصية معبرة في هوية الانتماء. حتى العمل وتقسيم العمل والارتزاق كان يعتمد على الترحال في الصيد والقنص او البحث عن الطعام من النبات الطبيعي، وترابط هذا مع عدم وجود تراث مكتوب ليشكل انطلاقة فكرية ثقافية تدخل في تعبيرات الانتماء والهوية المميزة للجماعة التي أشار اليها مع الباحثون الأنثروبولوجيون بأسم جماعة صغيرة تقطن في ارض ذات مساحة صغيرة أيضا، وعلاقات العمل والتنظيم الأسري محدودة بينهم لم ترتقي بعد الى استقرار الأوضاع السكانية والاقتصادية والثقافية بالشكل الذي يجعل من هذه الأوضاع عوامل مؤثرة في صياغة هوية جديدة. حتى في الشكل السياسي فكانوا جميعاً يجتمعون ويتخذون القرار الجماعي المتعلق في حياتهم اليومية، وبسبب عجزهم الواضح في إيجاد الحلول المنطقية لمشاكلهم، كانوا يوعزون الغاز حلها الى شعائرهم وطقوسهم الخرافية. فالنسق القرابي Kinship System لم ينتقل بعد الى تقسيم العمل والملكية وما ترتب من ذلك من تفاوت في الثروة والنفوذ والجاه ثم التأثير. ولم تنتقل الزعامة الى السلطة المهيمنة لجماعة على حساب جماعة أخرى[٧] من اجل المصالح، ولم ينتقل الوضع البسيط المعتمد على التقاليد والشعائر الى التقنين والتعاقد والتحالف او تنظيم الحروب والصراعات من اجل المصالح والنفوذ وبسط الهيمنة على المناطق المجاورة او البعيدة عن منطقة نفوذ الجماعة.

التصنيف الاجتماعي:

لم تظهر ملامح التصنيف الاجتماعي في هذه المجتمعات بالشكل الذي ظهر في مراحل التطور الحضاري للمجتمعات بعدها، فلا وجود لتصنيف ديني أو تصنيف طبقي أو تصنيف عرقي او تصنيف سياسي حتى يدخل في التأثير على ملامح هوية الانتماء ، فكل ما كان موجوداً هو التصنيف الأسري (رجل، امرأة، طفل، شيخ) وكلهم منصهر ون في بودقة الانتماء الدموي أو الطوطمي.

[7] الدكتور محمد عبده محجوب ـ مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية ـ جامعة الكويت ـ دار القلم ـ بيروت ص ١٨ .

حقوق الانتماء:

كان الانتماء البدائي يرتب حقوقاً وواجبات للفرد داخل الجماعة تتمثل في الحماية المشتركة والعيش المشترك وتقاسم الغنائم والمشاكل والمآسي معاً. فالفرد موجود بوجوده داخل الجماعة، وهو لا شيء خارجها، فعندما ينتقل إلى جماعة أخرى بأي طريقة كانت فلا حقوق له ويكون مصيره مرهون بإرادة تلك الجماعة وطقوسها وعاداتها، تقتله، تستغله للعمل، تجعل منه كبش فداء او ضحية لطقوسهم الدينية. والمهم انه خارج جماعته يفقد هوية الانتماء. وهذا يفسر التمحور الشديد للفرد مع الجماعة البدائية. وحيث أن الجماعة القرابية متداخلة للجوانب القرابية بالجوانب السياسية والاقتصادية، فالحقوق الفردية والواجبات متداخلة مع بعضها أيضا. فالفرد هو الجماعة والجماعة هي الفرد، وبذلك أصبحت الهوية واحدة.

هوية الحب المشترك والتعصب المشترك:

لم تعرف الجماعة البدائية الكراهية والصراع بين أفرادها لانه منحسر فقط ضد الجماعات البدائية الأخرى، والعنف ظهر ضد الجماعات الأخرى أيضا، مما رتب الحب المشترك والتعاون المشترك بين أفراد الجماعة . وهذا رتب نظرة التعصب إلى الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، ونظرة أخرى يتعصب بها ضد الجماعات الغريبة عنه . وهذا ما أكده العالم الاجتماعي ((كارل مانهايم)) عندما أكد على المراحل التاريخية لتطور فكر الأنسان ومعارفه . فعلاقة الأنسان البدائي بالبيئة علاقة صارمة. وما كانت اكتشافاته إلا عن طريق الخطأ والمصادفة ((النار، الزراعة، الري... الخ))[8]، العلاقة الوحيدة التي اكتشفها بنفسه وبمحض تفكيره هي علاقة الحب والدم مع محيطه الأسري ومن منطلق العقل كانت تعتبر الخيار الأول في الهوية والانتماء.

---

[8] الدكتور محمد اسماعيل ـ علم الأجتماع الثقافي ـ منشأة المعارف الأسكندرية ـ كلية الآداب ص ١٢٥ .

المبحث الثاني: هوية المجتمع الوظيفية:

لقد ظهر المجتمع الإنساني نتيجة لتفاعل الأنسان مع بيئته ونوعه واستجابة لعوامل طبيعية ((ايكولوجية)) ونفسية ((منبهات واستجابات)) وظروف تتصل بالحياة ((تحديات صعبة تتطلب التكاتف)) ولا بد أن تكون لهذا المجتمع وظيفة أساسية وهي حاجة اهتدى إليها الفرد والجماعة، وكانت مدخلاً لانبثاق النظم الاجتماعية ومنها النظام السياسي، من اجل المساعدة على البقاء والاستمرار وتنظيم إشباع حاجاتهم وتحقيق الأفضل ثم الأفضل. وكان هذا هو الشعور الأول بالانتماء لهوية المجتمع. ولكن هذه الوظيفة التي أفرزت نوعاً جديداً من الانتماء لا تتحقق تلقائياً كما كان التجمع نفسه تلقائياً، فلا بد لتحقيق ذلك من وضع قواعد يتم على ضوئها تنظيم عملية المعيشة المشتركة بواسطة النظم أو التنظيم الاجتماعي كما عرفه "مارشال جونز" ((النسق الذي ترتبط بواسطته أجزاء المجتمع بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع ككل من ناحية أخرى بطريقة مقصودة وإرادية))[٩].

دين الجماعة وهوية الانتماء:

لقد أصاب منظومة القيم والأخلاق والعادات انتهاكات عديدة تضر بمصلحة الفرد والجماعة المادية والمعنوية، وتراكمت هذه الانتهاكات في المراحل البدائية للتجمعات الإنسانية بعد ظهور الفوارق نتيجة ظهور الملكية والتمايز في امتلاك الثروة ومظاهر التسيد والسلطة، وكانت العلاقات الاقتصادية قائمة على استغلال القوي للضعيف وسيطرت القوي على الضعيف فسحبت هذه المعادلة منظومة العادات في التعبير عن هذه المظاهر، وكان أمام الفرد أما الاعتراف بالواقع الصعب المرير والبقاء في دائرة الانتماء وأن رفضها، أو الهروب الى جماعة أخرى لمعالجة الاغتراب الداخلي والنفسي عنده، ولهذا جاءت المسألة الدينية كحلاً لأزمة الاغتراب والهوية لهذه التجمعات.

فالنظرة الى الانتماء لمجتمع تسوده العجالة والمساواة والعيش الكريم أمنية لامجال لتحقيقها في عالم الواقع البدائي. فأعتبرها الدين قانون محوري أساسي للتجمع تحت سلطان قوي يكفل النزوع إلى الخير ويبعد الشر وتكون له المهابة الكاملة في النفوس، وهذه حقيقة لا

[٩] عمر عودة الخطيب ـ المسألة الأجتماعية ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٦ ص ٢٣ .

يقوى أن يكابر فيها باحث في أمور الأنسان والحياة وقد اعترف علماء الاجتماع بأن الدين ظاهرة عامة في جميع المجتمعات بلا استثناء وفي جميع العصور ولعب دوراً في تحديد هوية الانتماء بين الفرد والجماعات والجماعة والجماعات الأخرى وقد افرز العامل الديني جملة من القوانين في مسائل الهوية والانتماء:

١. الأديان الخرافية والوثنية لم ترتقي إلى المستوى المعبر عن جميع الأفراد في مسائل الهوية والانتماء لعجزها عن الوصول إلى الحلول المثلى لمشاكلها ولاقتصارها عن تعبير عن مصالح الفئة المسيطرة وعجزها عن تخطي الحدود الزمانية والمكانية ومتغيراتها، فكانت تعبر عن انتماء ظرفي ووقتي، بل واعتبرت أحيانا في مجموعة العادات والتقاليد.

٢. الأديان السماوية الشمولية استطاعت بفعل خصائصها وقدرتها الفكرية العقلية والوجدانية والغيبية أن تقدم حلول لمشاكل الفرد والجماعة وتساهم في رفد حاجاته التنظيمية بأطر نظرية انعكست في قدرته على القيام بـ:

- التنظيم الأسري
- التنظيم السياسي
- التنظيم الاقتصادي
- التنظيم القضائي
- التنظيم الفكري
- التنظيم الأخلاقي

وقد استطاعت الأديان السماوية المعروفة ((الكتابية)) أن ترتقي بحياة المجتمع نحو التنظيم والاستقرار والتقدم أن هي التزمت بوحدة الفكر والصالح العام، وما ان دخلت فيها الآراء المتنافرة وتقوضت الوحدة الفكرية التي أنتجت تفتت الأفعال والقدرات برزت مظاهر عدم الإشارة الدينية إلى هوية الانتماء. فعندما يقال لهذه المجموعة أو تلك بالمسيحية أو المسلمة أو اليهودية، أصبحت يشار إليها بالمجموعة العرقية أو القومية.

الأديان القومية:

اذا كانت الإمبراطوريات الأثنية قد سعت إلى السيطرة على الشعوب المختلفة التابعة لها بتوفيقية دينية متسامحة تحتمل التعدد وتقدم مصلحة الدول العليا بعد أن ظهر النظام السياسي وترسخ على مصلحة العقيدة، فأن الديانة القومية التي انحسرت مع تجمع جماعات لها مشتركات عرقية ودموية في شعب معين. ويذكر الباحثون من الديانات القومية: الدين اليهودي والزرادشتية الإيرانية والشنتوية اليابانية، ويؤكد أر نولد توينبي على ان ازدهار المزدكية كديانة قومية يعود إلى رد فعل للهيلنية مثلها مثل اليهودية المكابية.

وعلى أية حال تتصف الديانة القومية بـ:

- الاتحاد مع الدولة (نظام اجتماعي مرتبط بالنظام السياسي).
- تبرير الحروب من اجل المنافع والانتشار والسيطرة على أراضي وخيرات الآخرين بالحروب الدينية أي هوية انتماء مزدوجة للمحارب، دينية وقومية، كما كانت الحروب الساسانية مع الروم.
- هوية نظام الدولة فوق هوية نظام العقيدة وان كان هنالك تفاعل مستمر[10].
- خروج جماعات الطائفات الأقلية عن الهوية الجماعية الغالبة وتعامل كأنها ((طابور خامس)) ومحط شك وريبة كما حصل مع الطائفة المسيحية في المجتمع الفارسي، والطائفة اليهودية في دول الكنائس الأوربية قبل عصر التنوير[11].
- وقد يحصل توافق بين الديانات القومية للأكثرية والأقلية وتصبح هنالك هويتان للانتماء .

القومية وهوية الانتماء :

أن احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد المسلمين بقيادة الدولة العثمانية مثل نهاية الإمبراطورية المسيحية الشرقية، وقد ترافق هذا التوسع المذهل الذي امتد للعصر الذهبي الإسلامي من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادي بازدهار فكري كانت تقوده بغداد لترسيخ هوية الانتماء الإسلامي مقابل تصدع هوية الانتماء المسيحي نحو

[10] انظر محمد الجندي – حول الأنتاج والوعي والتركيب الأجتماعي – بيروت – ص ٢٠٨ وما بعدها .
[11] الدكتور فاضل زكي – الفكر السياسي العربي الأسلامي – وزارة الأعلام – بغداد ١٩٧٦ ص ٩٢ .

القومية. وبعد ان تصدع البيت الإسلامي في الشرق وشمال أفريقيا هو الآخر توجه بشعوبه صوب الهوية القومية وأن تداخلت الهوية الدينية والقومية في حالات عديدة.

فتحت الدولة القومية State nation الباب مفتوحاً لهوية الانتماء القومية بعد أن سئم الأفراد الاغتراب إزاء الحروب الدينية وتمرد الجماعات القومية على هيمنة الكنيسة الإيطالية عليهم وعلى كنائس المذاهب والطوائف المتناحرة في إيطاليا وألمانيا وبريطانيا وعموم أوربا الشرقية والغربية، فأصبحت قضية الغايات الفردية والخلاص الفردي والجماعي محور الانتماء للدولة القومية الحديثة، ولكنها أدخلت الأفراد في أخلاق الغاية أي التمحورحول نسق العرق والقومية لجني المصالح الأكبر من الأعراق والقوميات الأخرى في حلقات من الصراع انعكس على إعادة تنظيم النظم الاجتماعية والسياسية وملامح هوية الانتماء[١٢] بعد أن جاءت أولويات السياسة على حساب أولويات الأخلاق والعادات والقيم.

وقد اتسمت الهوية القومية بـ:

- تقليد المنهجية الأثنية في تحديد ملامح الهوية.
- تقليد المصالح المشتركة للجماعات الأثنية.
- تقليد العادات المشتركة وتمجيد الرموز والدلالات للجماعة الأثنية.
- تشجيع سياسات التفوق والسيطرة والهيمنة لتمجيد الهوية الأثنية.
- تشجيع تبادل العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية لقيادات البرجوازية، تلك الطبقة الناهضة على حساب ركام الكنيسة وطبقة الإقطاع، مع الرؤية الجديدة لتمجيد الهوية القومية[١٣].
- شجعت هوية الانتماء القومي في حالات التطرف للهويّات التعصبية والعنصرية التي آلت إلى الصراعات الاجتماعية على حساب تماسك المجتمع الواحد المتعدد الأعراق والأثنيات والطوائف.

---

[12] انظر جان جاك شافليه ـ تاريخ الفكر السياسي ـ ترجمة محمد عرب ـ المؤسسة الجامعية للنشر والدراسات ـ بيروت ـ ١٩٨٥ ـ ص ٢٣٧ .

[13] انظر آرفنيج زايتلن ـ النهاية المعاصرة في علم الأجتماع ـ ترجمة محمود عودة ـ منشورات ذات السلاسل ـ الكويت ١٩٨٩ص ٣٠٥ .

هوية اللغة:

أن قانون انتشار اللغة وتشعبها إلى لهجات قد أثر في معاني تمييز هويات الشعوب والأفراد، ولهذا السبب قل تأثير اللغة كخاصية مميزة لهوية الشعوب. فاللغة الهندية الأوربية الأولى قد تفرعت إلى لغات كثيرة ومثل هذا حدث للغة السامية الحامية الأولى. وقد شهدت عصورنا التاريخية كثيراً من آثار هذا القانون. فاللغة اللاتينية التي سادت أوربا في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى قد تشعبت إلى عدد كبير من اللغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا.. رغم بقاء اللغة اللاتينية كلغة أدب وكتابة هذه الشعوب، ولكنها تنحت عن ذلك لتترك التاريخ وحده معبراً عن رمز اللغة في خصائص تحديد هوية الانتماء لهذه الشعوب. والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون، فالأسبانية أمريكا اللاتينية لهجات كثيرة، وإنكليزية إنكلترا تختلف عن إنكليزية الولايات المتحدة الأمريكية والألمانية ليست هي كما في سويسرا[١٤] وعربية المشرق العربي ليست هي كما في المغرب العربي بسبب طغيان الظروف الزمانية والمكانية والمحيطة على خصوصية النطق واللهجة الموحدة اكثر من ضواغط الالتزام بالنطق واللهجة الموحدة. وبذلك اعتبرت اللغة عامل من العوامل المتغيرة في تحديد الهوية والانتماء خاصة بعد تصاعد حالات سرقة هويات الانتماء عن طريق اللغة او إتقان لغة جماعة أخرى قد سهل انتقال الفرد وتكيفه مع البيئة الجديدة والحصول على هويتهم[١٥].

هـــوية الطبقة :

أن النمط الجديد من المجتمعات الذي تكون ما بعد الصناعة افرز صراعاً حاداً بين رأس المال والعمل، نتج عنه صراعاً بين أصحاب رأس المال والعمال بالشكل الذي رتب تصنيفاً اجتماعياً حاداً انتشر عالمياً بين طبقات العمال الواسعة وطبقات أرباب العمل المحدودة[١٦]، وانعكس ذلك في تبني الطبقة العاملة نظرية شاملة أيديولوجية وسياسية أطلق

---

[14] علي عبد الواحد وافي ــ نشأة اللغة عند الأنسان والطفل ــ القاهرة ١٩٦٢ ، كذلك انظر د. ابراهيم مذكور ــ معجم العلوم الأجتماعية ــ مصدر سبق ذكره ص ١١٢ .

[15] جون جوزيف ــ اللغة والهوية ــ ترجمة د. عبد النور خراقي ــ عالم المعرفة ــ العدد ٣٤٢ لسنة ٢٠٠٧ ص ٢١ .

[16] انظر د. عادل مختار الهواري ــ علم الأجتماع .. منظور اجتماعي نقدي ــ الشركة العامة للتجهيز والتوزيع ــ فاس ــ ١٩٧٩ ص ٩٦ .

عليها ((النظرية الماركسية)) رتبت انتماءات طبقية اتسعت مع اتساع نفوذ وتــأثير الأنظمــة السياسية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتي السابق للفتــرة مــن ((١٩٢٠ – ١٩٩٠)) وهــي الفترة التي فشلت الطبقية العمالية بتجذير هوية الانتماء الطبقي على حساب هويــة الانتمــاء الدولوي القانوني أثر الزلزال السوفيتي وتفككه إلى كيانات قومية والانهيار الدراماتيكي لكتلة الدول الشيوعية وتفكك بعضها إلى سلالات وأثنيات.

الهوية الدولوية القانونية:

أثرت قوانين العلاقات الدولية وتفاعلاتها بموجــب مــا يــسمى بالقــانون الــدولي والمعاهدات والاتفاقات الدولية التي تنظم انتقال وعمل ومحاكمة الأفراد فيمــا بــين الــدول، والاعتماد المتبادل للوثائق المصدقة من قبل الدول على هويات وجوازات وشهادات وامــوال الأفراد الصادرة من قبل الدول المعنية في تحديد هويات انتمائهم والاعتــراف بخــصوصية القوانين المحلية للدول وأثرها الاعتباري والقانوني والسيادي في هذه العلاقات والتفــاعلات ، رتب كل ذلك بقاء الأثر الفاعل لهوية الانتماء الدولوية للفرد على حساب انحــسار هويــات الانتماء العرقية والمذهبية والمهنية والطبقية.

المبحث الثالث: أزمة الانتماء المعاصر

لقد عبرت مرحلة الحرب الباردة عن هويات مركبة اتسمت بالمظاهر:

- الهوية القومية القانونية لمواطني دول المعسكر الشيوعي الذائبة في هوية المعــسكر الثقافية والسياسية والتي عرفت بهوية مواطني الدول الاشتراكية المعادية للرأسمالية.
- الهوية القومية القانونية لمواطني دول المعسكر الرأسمالي الذائبة في هوية المعــسكر الثقافية والسياسية والتي عرفت بهوية مواطني الدول الديمقراطية الرأسمالية الحــرة المعادية للشيوعية الطبقية.
- الهوية القومية القانونية المحلية لمواطني دول العالم الثالث والتي لم تعرف الاستقرار في مضامينها الثقافية والسياسية والحائرة بين الانتماء القومي والعرقي والمــذهبي أو

المتعلقة بحبال الإمدادات الشيوعية أو الرأسمالية وخاصة المضامين السياسية والاقتصادية.

وبعد نهاية الحرب الباردة وانهيار المعسكر الشيوعي وتداعيات الثقافة الشيوعية والشمولية والطبقية والسياسية المعادية للرأسمالية مع تفرد التحالف الرأسمالي وثقافة الديمقراطية الرأسمالية والمجتمع الحر، ظهرت أصوات عديدة لتعميم الهوية الثقافية السياسية الاقتصادية للمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم كهوية إنسانية لثقافة انتصرت على الثقافة الشيوعية، وستساهم في نهاية تاريخ الصراعات المستمرة في العلاقات الدولية[١٧]. وقد رتب ذلك إعطاء المسوغ القانوني والأخلاقي لتعميم ذلك على شعوب العالم وتوظيف منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية والأحلاف والقواعد العسكرية التي كانت أدوات للصراع الدولي بين القطبين إلى أدوات لفرض هوية إنسانية شاملة ذات مميزات وخصائص رأسمالية أمريكية أوربية، وانعكس ذلك في توظيف ما طرحه "فوكاياما" في انتصار اللبرالية بصورة نهاية لهذا الغرض. ومنذ ذلك اصبح العالم في حالة غليان فكري وأيديولوجي في السنوات التي تلت الزلزال السوفيتي فعمت ظاهرة الأعلام المقلوبة[١٨] والبحث عن رموز جديدة لثقافات جديدة ولهويات جديدة، الأمر الذي دفع "صموئيل هنتغتون" ليصرخ في كتابه "صدام الحضارات" ويحذر من انبثاق تفعيل فعال لهويات حضارات تاريخية ساكنة كالحضارة الصينية والإسلامية الأمر الذي يتطلب بسرعة فرض الهوية الثقافية للحضارة الغربية لما لها من انعكاسات على تمحور الهويات القومية ومضامينها السياسية حولها[١٩] من خلال:

أ. **المضامين الاجتماعية السيكولوجية:** لقد أشار "تاجفيل Taifel عام ١٩٧٩م بوضوح إلى أن نظرية الهوية لها ثلاث جوانب:

١. التحليل السيكولوجي للعمليات المعرفية- الدافعية . وهنا لابد من تعميم عملية التربية الغربية لاكتساب المعرفة والعملية الإعلامية المرافقة لها .

---

17 منذر سليمان – دولة الأمن القومي – المستقبل العربي – العدد ٣٢٥ – ص ٢٥ .

18 صموئيل هنتغتون – صدام الحضارات واعادة بناء النظام العالمي – دار الجماهيرية – بنغازي – ١٩٩٩ ص ٦٩ .

19 صموئيل هنتغتون – المصدر السابق نفسه ص ٧٠ و ص ٧١ .

٢. تطبيق العمليات المعرفية على العلاقات بين الجماعات والأفراد وهذا يتطلب تعميم أنماط التفاعل في عمليات الاتصال الفردي=في المجتمعات الدولية بما يتناغم مع الأسلوب الغربي.

٣. فرض استمرار هذه الأنماط على العلاقات الاجتماعية وبذلك تنتقل الهوية الشخصية للخصائص الفردية في الدول البعيدة عن الحضارة والثقافة الغربية إلى الهوية المستندة على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات[٢٠] فنجد تعميم لنمط الاستهلاك، لنمط التداوي، لنمط التعليم، لنمط الاقتصاد، لنمط السكن والتنقل، لنمط الادخار، لنمط التأليف والبحث، لنمط الأمن، لنمط القضاء، لنمط النظام السياسي. وبذلك تشكل المتغيرات في الأنظمة الاجتماعية الأسرية والصحية والتعليمية والقضائية والأمنية والسياسية عملية إزاحة الثقافة القومية أو الوطنية أو القانونية القديمة صوب الثقافة الغربية وأنظمتها الفرعية في نظامها الاجتماعي العام.

ب . مضمون اللغة:

أن تعميم تداول المخاطبات والمراسلات المرئية والسمعية والمكتوبة بين العالم باللغة الإنكليزية للثقافة الغربية يلعب دوراً مهماً في تصدع الهويات القديمة نحو الهوية الغربية– الأمريكية بعد أن شكلت دراسات عديدة للتاريخ الإنساني الحضاري الدور المهم للغة في تحديد خصائص الهويات الوطنية للاثنيات والسلالات والأعراق لذلك جاءت الإزاحة للمعاني والمصطلحات الوطنية لتحل محلها المعاني والمصطلحات الإنكليزية لتصب في هذا الهدف[٢١].

ج. مضامين المنظمة الدولية :

ان الدفع لاحتواء المنظمة الدولية كواجهة لتمرير((الهوية الغربية– الأمريكية)) على العالم جاء تحت معطيات تفرد الغرب على فاعلية المنظمة الدولية "الأمم المتحدة" وأحداث متغيرات فيها وفي مضامين عمل مؤسساتها بما يضمن خدمة هذا الهدف من خلال:

---

20 انظر د. احمد زايد ــ سايكولوجية العلاقات بين الجماعات ــ عالم المعرفة ــ العدد ٣٢٦ لسنة ٢٠٠٦ ص ٢٧ ومابعدها .

21 جون جوزيف ــ اللغة والهوية ــ ترجمة د. عبد النور خرافي ــ مصدر سبق ذكره ص ١٨ ــ ١٩ .

- تعزيز دور مجلس الأمن بعد إضافة أعضاء جدد لا يخرج مرشحيه عن ((ألمانيا واليابان)) بعد أحداث وقائع جديدة على الساحة الدولية لنشاطهما السياسي والأمني والاقتصادي بما يضمن هيمنة الأكثرية السائدة للغرب على حساب انحسار النفوذ الروسي–الصيني .
- تنامي المناداة " بالمواطنة العالمية " من خلال الدعم لاقتراح إنشاء الجمعية البرلمانية للأمم المتحدة (UNPA) تحت شعار تجاوز تنافر بيروقراطيات البرلمانات الوطنية وتحت شعارات تجاوز سلبيات التصويت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة التي تعطي الحق المادي للتصويت بين الدول الصغيرة في كثافة السكان مع الدول الكبيرة في كثافة السكان[٢٢] وفي هدف آخر هو الالتفاف على الاتحاد البرلماني الدولي الذي ركز على الجانب الوطني في العضوية بعيداً عن طروحات الهوية العالمية ذات الخصائص الغربية– الأمريكية .

د . المضامين السياسية:

الهوية السياسية للأفراد والجماعات في الإطار الدولوي لم تشق طريقها في بناء هوية وطنية متمثلة في إقامة الدولة الحديثة لبناء وتشكيل مجتمعاتها . وجاءت هذه الدول في معظمها تقليداً لدول القوة الاستعمارية السابقة وبالتالي فأن البحث عن إقامة دولة ما هو إلا رد فعل للاستعمار، ذلك أن أهم الحقائق السياسية في القرن العشرين هي انتهاء فترة الحكم الاستعماري وظهور دولة مستقلة ترنو إلى التحديث في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، فخلق ذلك تذبذباً في قوة الانتماء لهذه الهوية الدولوية المستورة. وفي العالم الأوربي أصبحت الدولة أقوى جهاز وافضل أداة لقيادة المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. فقوة الدولة أصبحت ضرورة لحاجة الحزب السياسي لتمرير مصالحه الاقتصادية والإعلامية والانتخابية مع التأكيد لبقائها بعيداً عن التدخل الفاعل اللانشطة الاقتصادية الداعمة لهذا الحزب او ذاك وحتى في مضامين السياسة الخارجية أضحت الدولة تسير حسب رغبات

[22] الموسوعة الحرة ـ ويكيبيديا / في ٢٠٠٧/١١/١٨ /file/h . شبكة الأنترنت .

الأحزاب والقوى الفاعلة مما رتب أيضا في تذبذب قوة ملامح الدولة في هوية الانتماء التي أضحت تساير التوجه السياسي لهذا الحزب أو ذاك.

ومع بداية السبعينات من القرن الماضي يتبين من خلال تحليلات الماركسيين بأن مؤسسة الدول أخذت تترسخ بدلاً من أن تضعف كما هو مخطط لها نظرياً في الفكر الماركسي الأمر الذي أدى إلى تنافر الفكر المعبر عنه في هوية الانتماء الشيوعي في المجتمعات الشيوعية وواقع هيمنة الدولة على هذه الهوية وهذا رتب أيضا تذبذباً في قوة الانتماء إلى هوية محددة عرقية كانت أو قانونية أو دينية[٢٣].

السيد والتابع Client Patron Reliton

أحد أشكال الجدل الطويل في الأدبيات المتعلقة بسياسة بعض الشرائح والأحزاب والجماعات هي علاقات السيد بالتابع، ورغم ما قيل عنها من أنها علاقات مؤقتة بيد أن التحليل السياسي اظهر بقاء بعض الأحزاب والجماعات والشرائح مرتبطين بمناهج وسياسات وتوجيهات قوى خارجية. فمن يتابع بعض الجماعات الغنية المتنفذة في الهند يجد أن سلوكها وارادتها وخياراتها تتجه دائماً إلى الدولة التي استعمرت الهند قروناً، وخلفت مرتكزات ثقافية واناسية مرتبطة بإنكلترا، والحالة نفسها مع جماعات من جنوب أفريقيا وجماعات أخرى من أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية التي اعتبرت أمريكا الجنوبية صديقة خلفية لها لعقود طويلة أو مع أسبانيا الموائمة لها من ناحية اللغة ومعظم العادات والتقاليد . وكذلك الحال نفسه بين فرنسا وشرائح اجتماعية متنوعة وعديدة في مجتمعات دول أفريقيا وخاصة أفريقيا الشمالية أو الدول الناطقة بالفرنسية . ونجد الحال نفسه في استراليا والولايات المتحدة الأمريكية[٢٤].

السياسة الدولية:

اتسمت خصائص العلاقات الدولية أثر اختلال التوازن الدولي بتراجع القطب السوفيتي إلى القوة التقليدية لدول كبرى كروسيا وانصراف الصين الى ترتيب وضعها

---

[23] د. عبد العال دبلة ـ الدولة ـ رؤية سوسولوجية ـ دار الفجر ـ القاهرة ـ ٢٠٠٤ ـص ١٠ .

[24] انظر اندرو فنكل ونوكهت سيرمان ـ تركيا المجتمع والدولة ـ ترجمة د. حمدي حميد الدوري ـ بيت الحكمة ـ بغداد ٢٠٠٢ م ص ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

الاقتصادي بنظام اشتراكية السوق، بتفرد القوة والمصلحة في سير وتفاعل هذه العلاقات، وفرضت توجهات السياسة الأمريكية الكونية، بصماتها غلى فاعليات معظم الدول في عملية التفاعل هذه، الأمر الذي رتب انقسام العالم الى:

١. متحالف مع القوى التي تقودها الولايات المتحدة.
٢. عدو لهذا التحالف يتكون من الدول التي تعارض التوجهات التي تقودها الولايات المتحدة.

ومع الاستخدام السياسي للاستراتيجيات الأمريكية- الأوربية ووسائطها خلال العقد المنصرم تعزز هذا الفرز إلى:

١. دول متحالفة مع الولايات المتحدة وأوربا ضد الإرهاب الدولي المحدد وفق المنظور الغربي.
٢. دول وجماعات ومنظمات متهمة بالإرهاب أو مساندة الإرهاب ، أي ظهور طروحات جديدة للأمن العالمي.

فأصبحت شعوب كلا الطرفين تعاني من أزمة الإرهاب ومن هو ضد الإرهاب وما هو الإرهاب أصلا وماهي المقاومة الشرعية وما هو المفهوم العملي للسيادة.. كل ذلك اربك العديد من الشعوب في متاهات الانتماء إلى الديمقراطية وتبني حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب والتحالف مع من أو ضد من. الأمر الذي رتب إضافيا غمامياً على مفاهيم الانتماء وخصائص الهوية المحددة له[٢٥].

العولمة السياسية:

في عام ١٩٩٥ م خرجت منظمة التجارة العالمية إلى ارض الواقع لتكون أول منظمة دولية تعني بالمسائل المتعلقة بالسياسات التجارية للدول. وقد أدى هذا التطور إلى تزايد الشعور بالحاجة لمزيد من التعاون والتكامل فيما بين الدول وظهرت ترتيبات تكاملية جديدة الأنماط والأبعاد والتوجهات على اعتبار أن الاتفاقية هي الإطار القانوني لتحرير التجارة العالمية، ولا يوازيها سوى المجموعة الأوربية التي نجحت في تشكيل التكتل التجاري

---

[25] انظر محمود محمد ياسين ــ الجهود الدولية والتشريعية ــ لمكافحة الارهاب وحرب العالم الجديد ــ دار الرضوان ــ حلب ٢٠٠٥ م ص ٢٧ .

ثم السياسي ثم الاتحادي حتى وصل إلى اتفاقية دستورية استغنت بموجبها شعوب الدول الأوربية عن الهويات الوطنية لمصلحة الهوية الجامعة رغم بقاء بعض التداخل لطبيعة الفروق الزمنية التي تكونت فيها الهوية لحقبة طويلة. والهوية الجديدة الناشئة حديثاً. فظهرت التكتلات الاقتصادية المؤثرة سياسياً في:

١. مجموعة النمور الآسيوية ((كوريا الجنوبية، ماليزيا، إندونيسيا، تايوان، تايلاند)) من اجل التعاون الاقتصادي المالي والتجاري الذي انعكس على التعاون السياسي واثر على تقارب الهويات المجتمعية وكأنها أصبحت اكبر مع الاحتفاظ بالخصوصية المحلية.

٢. منظمة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية ((الولايات المتحدة، كندا، المكسيك)). فقد شعرت هذه الدول بأن التعاون التجاري الصناعي المالي قد ساهم في ترابط مجتمعي تجاوز الحدود القانونية الدولية لدولهم مما أثر كذلك على سمات وخصائص الهوية الإنمائية ، كما حدث في معاهدة ماسترخت عام ١٩٩١للمجموعة الأوربية التي مهدت الانتقال من حالة السوق المشتركة إلى حالة الاتحاد بعد التوصل للعملة الموحدة السارية منذ عام ١٩٩٩ وتطورت الإقليمية التجارية إلى تكتلات دولية بلغت اكثر من (١٠٠) تجمع ، منها (٢٩) تجمعاً ظهر عام ١٩٩٢ ، وميزة هذه التجمعات أنها تجاوزت صيغة الحدود المتاخمة لضرورات التعاون إلى الإقليمية والعالمية[٢٦]، كله ساهمت في تذويب العديد من الخصائص والمميزات للهويات الوطنية مثل العادات والمصالح واللغة والشعور القومي والسيادة.. وقد تزامن هذا مع طروحات نظرية نهاية التاريخ End of History التي تزعم أن انهيار الاتحاد السوفيتي وانتصار الرأسمالية قد أسفرت عن انتهاء التاريخ لتحل محله العالمية بمفاهيمها وتفسيراتها المختلفة واتباع فلسفة ومنهج في التنمية وادارة الدولة والمجتمع، يرتب مدلولات جديدة للمواطنة العالمية على حساب الهوية الوطنية.

---

[26] اسامة المجذوب ـ العولمة والإقليمية ـ الدار المصرية اللبنانية ـ ١٩٩٩ ص ٢٧ .

الخاتمة

قد لا يخطر ببال البعض أهمية وجود خصائص ومميزات لانتماء الفرد لمجتمع بعينه ولدولة محددة المواصفات بموجب خصوصيتها الموضوعية. او قد يخطر ببال البعض أن تحديد هوية الانتماء ضرورة لمتطلبات تطبيقات القانون المحلي أو القانون الدولي. حيث أن مسألة تحديد الخصائص والمميزات والاحتفاظ بها وتمجيدها يرتقي فوق كل ذلك لما يحمله من أهمية اعتبارية ومادية تتعلق بالغايات العليا والأهداف العليا لأي مجموعة سياسية داخلة في المجتمع السياسي التواق دوماً لتحقيق القانون الأزلي للشعوب الإنسانية في تجذير الاستقرار نحو التقدم والتطور بعد إكمال جميع أنظمته الاجتماعية الفرعية لتحقيق الغايات العليا وفي كل ذلك تلعب هوية الانتماء دور المحرك المستقطب لجهود الأفراد والجماعات.

آفاق تعزيز العلاقة بين المجتمع المدني والديمقراطية في العراق

المدرس المساعد
سعد حميد ابراهيم السعدي(*)

المقدمة:

بعد التغيير السياسي الذي حدث في العراق في ٢٠٠٣/٤/٩ والذي بدأ يعبر عن ذاته بمخرجات كان في مقدمتها احتلال العراق وفق قانون مجلس الأمن ١٤٨٣ انهمرت علينا مفاهيم لم نكن متحسبين لتداولها بسبب الكبت الذي تعرض له العراقيين ابتداءاً من أول نشوء الدولة العراقية عام ١٩٢١ ولحد ألان وهذة حقيقة موضوعية لا نختلف عليها .

ولذلك كان لمفهوم المجتمع المدني صدى كبير داخل مؤسسات المجتمع العراقي وكافة أوساطه الاجتماعية ثم إن هذا المفهوم ارتبط بمفاهيم أخرى تمثل احد المطالب المهمة للمجتمع العراقي والحكومة العراقية ألا وهو مفهوم الديموقراطية والحريات العامة .

ومن هنا انطلقت فرضية البحث بأن هناك علاقة طردية بين التجربة الديموقراطية والمجتمع المدني فكلما كان هناك دور فاعل ومشارك للمجتمع المدني في العملية الديموقراطية كلما انعكس ذلك ايجابيا على التجربة الديموقراطية مما يجعلها تجربة ناجحة والعكس صحيح.

العلاقة بين المجتمع المدني والديموقراطية

من المتعارف عليه إن الديموقراطية والمجتمع المدني يشتركان في علاقة تكاملية ذلك إن الديموقراطية هي السبيل لانتعاش مؤسسات المجتمع المدني مثلما المجتمع المدني هو الركيزة الأساسية لترسيخ التجربة الديموقراطية .

إذن هناك علاقة حتمية وجدلية بين المجتمع المدني والتطور الديموقراطي ولا سيما في مجال تبني مؤسسات المجتمع لعلاقات نقوم على تقديس حق الاختلاف في الآراء

(*) مدرس العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

والمصالح المادية والمعنوية في داخل مؤسساتها وفيما يخص علاقاتها مع بعضها البعض ومع الدولة كذلك . ويصح القول إن الديموقراطية هي الوجه السياسي للمجتمع المدني فهي صيغة سلمية لإدارة الاختلاف والتنافس والصراع ووفقا لقواعد المتفق عليها مسبقا من لدن كل الإطراف[1]. والى جانب ذلك فان مؤسسات المجتمع المدني هي مدارس للتنشئة السياسية على الديموقراطية سواء كانت جمعية خيرية أو نادي رياضي أو رابطة ثقافية أو حزبا سياسيا أو نقابة عمالية فانها تدرب أعضائها على الممارسات الخاصة بالديموقراطية في المجتمع الأكبر مثل الالتزام بشرط العضوية وحققوها وواجباتها والمشاركة في النشاط العام والتعبيير عن الرأي والاستماع للرأي الأخر وعضوية اللجان , والتصويت على القرارات والمشاركة في الانتخابات والقبول بالنتائج .

سواء كانت في مصلحة العضو أو لم تكن[2] وبالإضافة إلى ذلك فان مؤسسات ومنظمات المجتمع المدني هي في واقع الحال جماعات مصالح . تنمي وتدافع عن هذة المصالح في مواجهة المنافسين والخصوم من جماعات ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى وعلى مواجهة الدولة أيضاً ملتزمة بالأسلوب السلمي لإدارة الصراع والاختلاف .

وبهذا المعنى تغدو جزء لايتجزء من البناء الديموقراطي العام إن وجد فعلا وجزءا لايتجزء من الشروط اللازمة لوجود مثل هذا النظام أو أصلاحة أو التمهيد لنشأته إن لم يكن موجود بالفعل.

إن مأسسة المشاركة السياسية هي المتغير الجوهري الذي يمكن على أساسه تحديد النظام الديموقراطي وتميزه عن غيرة من الأنظمة ومن دونه يمكن أن يختلط مع غيره من الأنظمة وبخاصة تلك الأنظمة التي تبدو ديموقراطية في شكلها ومظهرها الخارجي وغير ديموقراطية في مضمونها وطبيعة ممارستها وهي النموذج الشائع في اغلب الدول النامية[3].

---

[1] احمد شكري حمود الصبيحي ، مشكلات المجتمع المدني ومستقبله في الوطن العربي ، اطرحة دكتوراه غير منشورة ، مقدمة إلى كلية العلوم السياسية / جامعة بغداد / ١٩٩٨ ، ص ٤٥ .

[2] عبد الغفار شكر ومحمد مورو ، المجتمع الأهلي ودورة في بناء الديمقراطية ، دار الفكر ، سوريا ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٦ .

[3] جاسم القطامي ، تعقيب على ورقة باقر النجار (المجتمع المدني في الخليج العربي والجزيرة العربية) في ندوة المجتمع العربي في الوطن العربي ودورة في تحقيق الديموقراطية . ص ٦٠٠ .

أن عملية بناء المؤسسات السياسية ترتبط بطبيعة الهدف المطلوب تحقيقة من وراء بنائها فالمؤسسات ليست لها قيمة بحد ذاتها وإنما تأتي قيمتها من الوظيفة الموكل لها إنجازها إذ لا توجد ثمة علاقة بين مسالة توظيف .

الظروف الملائمة لنظام ديمقراطي من عدمه وعملية بناء المؤسسات فلكل من الأنظمة الديموقراطية وغير الديموقراطية ومؤسساتها وقدراتها التي تستخدمها لتحقيق الأهداف التي تضعها النخب الحاكمة فهناك مؤسسات تعزز التطور الديموقراطي وتسمح بالمشاركة السياسية وهناك مؤسسات تعزز قدرات الضبط الاجتماعي والتوجيه السياسي ولإقناع وربما الإكراه الإيديولوجي وحشد المواطنين وتعبئتهم من دون مشاركة حقيقية من جانبهم فيكون التساؤل عن طبيعة الإيديولوجية التي تلتزم بها النخب الحاكمة والثقافة السياسية السائدة في المجتمع طبيعيا بصدد البحث عن الهدف الذي تبنى من اجله المؤسسات[٤]. وفي هذا المجال نحاول أن نبرز عدة نقاط محددة تدور حول جوهرها الديموقراطية وروحها[٥]:

١. الديموقراطية تعني احترام حقوق الإنسان التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي اقرتة الامم المتحدة كحق التعليم والعمل والصحة و الرعاية الاجتماعية .
٢. الديموقراطية تعني التعددية السياسية فسيطرة الرأي الأوحد أصبحت تنطوي على خطور التجمد وقتل الإبداع ولم تعد مقبولة في ظروف الحياة الحديثة التي بلغت حد من التعقيد والتشابك . لذا فان تعدد الآراء والاتجاهات والتصورات وتوفير المناخ الصحي بتفاعلاتها هو الضمان الأكبر للتجدد والصواب .
٣. الديموقراطية تعني أمكان تداول السلطة شرعيا وسلميا فلا معنى للتعددية من دون توفر آليات تسير شؤون المجتمع بحيث يحضى الاتجاه الذي يحوز الأغلبية بالسلطة بتنفيذ برنامج اكتسب التأييد والموافقة العامة فاستمرار السلطة بلا تغيير في أيدي طرف واحد مفسدة .

---

[4] نقلا عن احمد شحاذة محمد الكبيسي ، إشكالية المجتمع المدني في دول الخليج العربي ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى كلية العلوم السياسية / جامعة بغداد ، ٢٠٠١ ص ١٥٦ ــ ١٥٧ .

[5] نقلا عن المصدر السابق ص ١٥٦ ــ ١٥٧ .

ومن أهم مميزات الديموقراطية بالتالي توفير آليات التداول السلمي للسلطة بلا انقلابات أو تصفيات . وهناك بعض العوامل التي تساعد على خلق البيئة المناسبة لظهور الديموقراطية وتعزيز مؤسسات الحكم الديموقراطي : ومنها[6]:-

١. وضع دستور ديموقراطي للدولة .
٢. أن تكون الدولة قانونية بمعنى احترام سيادة القانون والمساواة القانونية
٣. احترام حقوق الإنسان ونشر التعليم واحترام حرية التعليم .
٤. السماح بالتنظيمات الاجتماعية والمهنية والسياسية .
٥. الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية وممارسة الرقابة على أجهزة الحكم .
٦. إقرار التعددية السياسية على أسس غير قبلية أو مذهبية .
٧. تامين الحاجات الأساسية لجميع المواطنين .
٨. خلق روح المواطنة والانتماء إلى الدولة .
٩. نشر الثقافة السياسية لترسيخ المفاهيم الديموقراطية .

على إن مفهوم الممارسة الديموقراطية لا يقتصر على علاقة الحاكم بالمحكوم بل يغطي سلوك المجتمع والمواطنين من خلال التنظيمات والتجمعات بالتالي ممارسة القوى السياسية لأدوارها وفي مقدمتها الأحزاب والمنظمات والنقابات والجمعيات العلمية والأهلية .

إذن فلا وجود للديموقراطية الحقيقية إلا بوجود مؤسسات المجتمع المدني فكلما قويت مؤسسات المجتمع المدني وازدادت فاعليتها وتواتر نشاطها ضعفت قدرة الدولة على التعسف إزاء حقوق المواطنين وحرياته , وكلما ضعفت مؤسسات المجتمع المدني وخفت فاعليتها وتوقف نشاطها ازداد تعسف سلطة الدولة إزاء المواطنين وتضخم دور القوة في العلاقة بين المواطنين والدولة على حساب حقوقهم وحرياتهم[7].

وهكذا تعمل مؤسسات المجتمع المدني كقنوات للمشاركة السياسية في عملية اتخاذ القرارات السياسية مما يجعل منها ضرورة لاغني عنها بالنسبة للديموقراطية فإذا كان النظام

---

[6] نقلا عن المصدر السابق ص١٥٨ .

[7] برهان غليون ، بناء المجتمع المدني العربي : دورة العوامل الداخلية والخارجية ، في ندوة المجتمع المدني في الوطن العربي ودورة في تحقيق الديموقراطية ص ٦٩٧ .

السلطوي يميل لان يستولي على دور مؤسسات المجتمع المدني وأشغال محلها بنفسة في عملية صنع واتخاذ القرارات السياسية كمفتاح للهيمنة على المجتمع ضمن غير المتصور قيام نظام ديموقراطي من دون مؤسسات المجتمع المدني بدورها الفاعل ولايمكن لأركان العملية الديموقراطية إن تتكامل من دونها وبالمقابل لن يكون من الممكن لمؤسسات المجتمع المدني إن تنمو وتتطور وان تحصل على دورها الفعلي إلا في ظل نظام ديمقراطي .

ويمر العراق حاليا بعمليتي بناء المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في نفس الوقت والصلة بين العمليتين قوية بل أنهما اقرب إلى إن تكونا عملية واحدة من حيث الجوهر , ففي الوقت الذي تنمو فيه التكوينات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة وتتبلور فأنها تخلق معها تنظيمات مجتمعها المدنيَ التي تسعى بدورها الى توسيع دعائم المشاركة في الحكم[8].

وهكذا فان الدور الهام للمجتمع المدني في تعزيز التطور الديمقراطي وتوفير الشروط الضرورية لتعميق الممارسة الديمقراطية وتأكيد قيمها الأساسية ينبع من طبيعة.

المجتمع المدني وما تقوم به من دور ووظائف في المجتمع لتصبح بذلك بمثابة البنية التحتية للديموقراطية كنظام للحياة وأسلوب لتسيير المجتمع وهي من ثم أفضل إطار للقيام بدورها كمدارس للتنشئة الديموقراطية والتدريب العملي على الممارسة الديموقراطية[9].

ولايمكن تحقيق الديمقراطية السياسية في أي مجتمع مالم تصبح منظمات المجتمع المدني ديموقراطية بالفعل باعتبارها البنية التحتية للديموقراطية في المجتمع بما تتضمنة من نقابات وتعاونيات وجمعيات أهلية وروابط ومنظمات نسائية وشبابية .. الخ .

حيث توفر هذة المؤسسات في حياتها الداخلية فرصة كبيرة لتربية ملايين المواطنين ديموقراطيا وتدريبهم عمليا لاكتساب الخبرة اللازمة للممارسة الديموقراطية في المجتمع الأكبر[10]. وهذا ما يحتاجه العراق حاليا بعد عقود من الاستبداد وغياب وتغييب الديموقراطية ومؤسسات المجتمع المدني والذي نتج عنه ضعف المشاركة السياسية وعدم

---

[8] حسين علوان البيج ، الديموقراطية وإشكالية التعاقب على السلطة في المسالة الديموقراطية في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ٣ ، ٢٠٠٣ ، ص١٦١ .

[9] عبد الغفار شكر ومحمد مورو ، مصدر سابق ص ٨٥ .

[10] المصدر السابق ص ٥٩ .

ارتقاء الوعي الشعبي لدى المواطن العراقي بالديموقراطية والتعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة ... الخ .

ذلك إن الديمقراطية لا ينتجها إلا التطبيق الفعلي لها بمعنى ان التطبيق الفعلي لها بمعنى ان الديموقراطية هي الطريق الى الديموقراطية[11].

وبهذا الشكل ترسو صيغة علاقة طر دية بين الديموقراطية والمجتمع المدني مؤداها متى ماترسخت أسس الديموقراطية تدعمت مؤسسات المجتمع المدني , ومتى ما انحسرت الديموقراطية تراجعت مؤسسات المجتمع المدني أحدى علائم الديمقراطية البارزة فحسب وإنما هي تشكل الدعائم الأساسية الديمقراطية ا يضاً فلا ممارسة ديموقراطية حقيقية بغير مجتمع مدني فاعل ونشيط بل ان الديموقراطية تتعزز بوجود مؤسسات المجتمع المدني ففي سياق الدفاع عن مصالح القوى التي تمثلها تصون الديموقراطية وتعمل على ترسيخها[12].

وعليه يمكن لمؤسسات المجتمع المدني إن تلعب دورا أساسيا في البناء الديمقراطي في العراق وذلك من خلال الاداور الأساسية آلاتية :

١- تعد مؤسسات المجتمع المدني مدارس للتنشئة السياسية على الديمقراطية .
٢- إلى جانب السلطات القضائية والدستورية تقوم مؤسسات المجتمع المدني بتحديد وضبط واحتواء بعض التجاوزات التي يمكن ان تبرز من العملية الديموقراطية .
٣- تلعب مؤسسات المجتمع المدني دورا بارزا في أغناء العملية الديمقراطية وتحافظ على تنوعها وتحد من نفوذ الحركات المتطرفة وتأثيرها التي تستغل مشاعر السكان البسطاء وخصوصا المشاعر العرقية والدينية لأهداف انتخابية .

---

[11] حارث محمد ، التعددية الثقافية والسياسية في العراق ومستقبل التحول الديموقراطي ، مجلة مركز العراق للأبحاث ، العدد الثاني ، بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص ١٦ .

[12] حسين علوان البيج ، مصدر سابق ، ص ١٦١ .

الخاتمة

١. يعرف المجمتع المدني بأنه مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملىء المجال العام بين الأسرة والدولة لتحقيق مصالح أفرادها ملتزمة في ذلك بقيم ومعايير الاحترام والتراضي والتسامح والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف .

٢. تعرف الديموقراطية بأنها نظام حكم ومنهج سلمي لإدارة أوجه الاختلاف في الرأي والتعارض في المصالح ويتم ذلك من خلال إقرار وحماية وضمان ممارسة حق المشاركة السياسية الفعالة من قبل الكثرة في عملية اتخاذ القرارات الجماعية الملزمة للجماعة السياسية بما في ذلك تداول السلطة وفق شرعية دستورَ ديموقراطي .

٣. بعد سقوط النظام السياسي في العراق ٩ / ٤ / ٢٠٠٣ واجه مفهوم المجتمع المدني صدى كبير داخل مؤسسات المجتمع العراقي وكافة أوساطه الاجتماعية حيث ارتبط هذا المفهوم بمفاهيم أخرى تمثل أحدى المطاليب المهمة للمجتمع العراقي والحكومة العراقية الاوهو مفهوم الديموقراطية والحريات العامة .

٤. هناك بعض المعوقات التي تقف إمام عملية التحول الديموقراطي في العراق لعل أهمها :

أ. ارتفاع نسبة ألامية التي تعد اكبر عائق لبناء المجتمع الديموقراطي .

ب. مشكلة التعصب القبلي والطائفي والديني وسيادة الانتماءات الفرعية وتغليبها على حساب الانتماءات الوطنية .

ج. تردي الأوضاع الاقتصادية بفعل انتشار البطالة وتردي الأوضاع المعيشية لعدد كبير من المواطنين العراقيين .

د. معوقات أمنية كذلك هناك معوقات تقف إمام منظمات المجتمع المدني وأهمها معوقات فنية ومادية .

النظام الفيدرالي في العراق (واقع وطموح)

الدكتور
علي حسين جلود(*)

الدكتور
ماجد عيال وهيب(**)

مستخلص:

هذا البحث عنوانه" النظام الفيدرالي في العـراق واقـع وطمـوح" تنـاول مفهـوم الفيدرالية، ونبذة تاريخية عن ملامح الحكم الفيدرالي وما هي وجهـة نظـر القـانون حولـه والدوافع لتطبيقه وهل الفيدرالية وحدة ام تقسيم!، وما موقف القوى السياسية مـن الفيدراليـة! مع طرح سؤال مهم : هل الفيدرالية مناسبة لوضع العراق الراهن؟ ثم الخاتمة.

وبعد بيان مفهوم الفيدرالية وتوضيحها لقارئ ليكون على بينة منها طرحنـا النظـام المناسب لوضع العراق الحالي وهو نظام الحكم اللامركزي ونعني بـه زيـادة الـصلاحيات المخصصة للحكومات المحلية بحيث يكون نظام الحكم أقرب الى النظـام الفيـدرالي لـسعة الصلاحيات الممنوحة من قبل حكومة المركز ومن الممكن ان تتطور اللامركزيـة لتـصبح نظاماً فيدرالياً في المستقبل بحسب ما يتناسب مع وضع العراق المـستقبلي بعـد ان يترسـخ مفهوم الفيدرالية ويتضح في أذهان الشعب ليكون مقبولاً لدى عامة الشعب او غالبيته.

(*) جامعة ذي قار
(**) جامعة ذي قار

المقدمة:

ان حضارة وادي الرافدين تفردت باول ظهور لنظام دولة المدينة على انه اول شكل من اشكال الحكم في التاريخ البشري[١].

وقد تميزت الحضارة السومرية منذ نشوئها في عصر فجر السلالات بالعلاقة مع خصائصها السياسية بظهورها على اساس عدة دول مدنية مستقلة لكل منها حدودها واسوارها واسرتها الحاكمة والهها الحامي ونظمها وقوانينها[٢].

والفيدرالية دولة تنشأ من اتحاد دول صغيرة او ضعيفة، لتصبح هناك دولة متحدة فيدرالياً، بحيث ان كل دولة في الاتحاد تتنازل عن سيادتها الخارجية، وبعض اوجه السيادة الداخلية لصالح الدولة الاتحادية، مع بقاء كل دولة محتفظة باستقلالها الداخلي، دستوراً وحكومة.

والغاية من الفيدرالية هو تأسيس دولة كبيرة قوية، ذاتعرى وثيقة لا انفصام لها غرضها الدفاع عن كيان الدول الداخلة في الاتحاد وانطلاقاً من رؤى الاكاديميين العراقيين في بناء العراق الجديد، قمنا بكتابة هذا البحث المعنون "النظام الفيدرالي في العراق واقع وطموح" وقسمناه على العناوين الاتية: مفهوم الفيدرالية، ملامح الحكم الفيدرالي-نبذة تاريخية، الفيدرالية من وجهة نظر القانون، الدوافع لتطبيق الفيدرالية، الفيدرالية وحدة لا تقسيم، موقف القوى السياسية من الفيدرالية، الية النظام الفيدرالي المناسب للعراق، الخاتمة.

أملاً منا في وضع رؤية صحيحة وأساس مفهوم لتطبيق النظام الفيدرالي في العراق الجديد والسعي الى انضاجه خدمة للعراق الموحد.

---

[1] ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، طه باقر: ٣٢٥/١.
[2] ينظر: حضارة وادي الرافدين، د. عبد الوهاب حميد رشيد: ١٠٣.

مفهوم الفيدرالية

تعني الفيدرالية بصورة عامة نشوء دولة الفيدرالية من اتحاد دولتين او اكثر بحيث تنزل كل من الدول الداخلة في الاتحاد الفيدرالي عن (بعض) جوانب سيادتها الداخلية و(كل) سيادتها الخارجية لصالح الكيان الاتحادي (الفيدرالي)، ولذا عدت السلطة في الانظمة الفيدرالية مقسمة بين دول او اقاليم الاتحاد، في حين انها موزعة بين الاقاليم أو الوحدات الادارية في الانظمة اللامركزية، اذ ان الدولة اللامركزية دولة واحدة لكنها مؤسسة تأسيساً ديمقراطياً بحيث تتوزع السلطة بين المركز والاقليم او الوحدات الادارية، في حين نجد في الاتحاد الفيدرالي او الدول الاتحادية الفيدرالية عدداً من الدول اتحدت على اساس من الفيدرالية[3].

وفي المعجم السياسي عرفت الفيدرالية بانها دولة توحد فيها حكومة مركزية ومجموعة حكومات اقليمية، حيث ان كلاً من هذين المستويين من الحكم مستقل في مجاله عادة على وفق دستور مكتوب يحميه ويورد هذا الدستور اختصاصات مستويي الحكم ويضع عادة ترتيبات لتخصيص الصلاحيات المتبقية وتنسيق تداخل الاختصاصات، فضلاً عن منح المسؤولية القضائي الى محكمة دستورية او مؤسسة اخرى لاتخاذ قرارات ملزمة، حيث تنشأ الصراعات المتعلقة بتفسير التحديد الدستوري للصلاحيات.

ان المجلس التشريعي الوطني في الدولة الاتحادية يضم عادة مجلساً ثانياً تمثل فيه على نحو مباشر وعلى نحو متساو غالباً، الاقاليم المكونة منها الدولة الاتحادية، وتسمى الاقاليم كانتونات او جمهوريات او ولايات...الخ ولكل من مستويي الحكم صلاحيات فرض الضرائب وصلاحيات فرض القانون.

وقد تختلف درجة او اسلوب النزعة الاتحادية اختلافاً كبيراً بين الدول الاتحادية، وتعد سويسرا والولايات المتحدة-عادة- اقطاراً تتمثل فيها النزعة الاتحادية على النحو الاكثر قوة، واستراليا والبرازيل، وكندا والمانيا والهند امثلة اخرى مهمة للدولة الاتحادية وتمتلك

[3] ينظر: اللامركزية والفيدرالية، نبيل عبد الرحمن حياوي، ٥١.

بعض الدول دساتير اتحادية لكنها لاسباب مختلفة مثل" الدور السياسي الغالب لحزب عقائدي الاساس كما في الاتحاد السوفياتي" لا يمكن ان تعد دولاً اتحادية في التطبيق.

يتطور الشكل الاتحادي للدولة لعدة اسباب منها الحاجة الى دمج مجتمعات عرقية او لغوية او دينية او تجمعات اخرى يمكن تحديدها اقليمياً "الهند وسويسرا على سبيل المثال" او تجنب تعميم مفرط للقوة السياسية (المانيا الاتحادية) على سبيل المثال[٤].

ملامح الحكم الفيدرالي- نبذة تاريخية

ان النظام الفيدرالي الحديث الذي يتطلع اليه العراق الجديد، والمعمول به في دول كثيرة غربية وشرقية متقدمة، والذي أثبت نجاحه في بلدان كسويسرا، وكندا، والهند والولايات المتحدة الامريكية، والامارات العربية حتى المانيا ذات العرق الواحد والدين الواحد وايطاليا وكذلك لم يكن بعيداً عن التجربة الاسلامية في الحكم، فقد عرف المسلمون نظام الولايات الذي كان يمنح في ظله الوالي صلاحيات واسعة ومستقلة عن المركز كما كان معمولاً به في ظل الدولة العربية الاسلامية لاسيما عندما توسعت واصبحت مترامية الاطراف، واصبحت ادارة تلك الاقاليم البعيدة تشكل عبئاً على المركز على الاصعدة كافة خاصة بعد حركة الفتوحات الاسلامية وتوسع رقعة الدولة.

ان ما تقدم برز بشكل واضح في الخلافة الراشدية والدولة الاموية والعباسية وكلنا يعلم ان البصرة والكوفة كان يطلق عليهما (العراقين) وفي ذلك دلالة على استقلالية هذين المصرين وان في اطار عنوانهما العراقي الموحد.

وفي العصر الحديث كان العراق-كما هو معروف- جزءاً من المنطقة العربية الخاضعة للدولة العثمانية والتي هي الاخرى كانت واسعة الانتشار وامتد حكمها الى اراض واسعة مترامية الاطراف في القارات الثلاث: اوروبا واسيا وافريقيا مما زاد من اعباء الحكم على السلطات انذاك وعليه ظهرت حكومات محلية كانت تخضع رسمياً للسلطان العثماني

[4] المعجم السياسي الحديث، احمد عطية الله السعيد.

وتتمتع بصلاحيات شبه مستقلة، كما في المنطقة العربية في العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب العربي الكبير.

وكان العراق مقسماً الى ثلاث ولايات، هي بغداد، والموصل، والبصرة تتمتع بحكم ذاتي داخل اطار الدولة العثمانية العام وحين استقل العراق على اثر الحرب العالمية الاولى وخسارة الدولة العثمانية، وخضوعه الى الاحتلال البريطاني ومن ثم الانتداب ثم الحكم الوطني في العهد الملكي تغير تقسيم الولايات واصبح تقسيم الولاية على الوية ومحافظات.

الفيدرالية من وجهة نظر القانون

الفيدرالية كمسألة قانونية تقع في ضمن اختصاص القانون الدستوري فهو الذي يدرسها ويحدد اصولها ويرسم العلاقة بين سلطاتها المركزية (الاتحادية) وسلطات الاقاليم والولايات.

ان نظام الفيدرالية هو نظام استثنائي في نظام الدول ويلجأ اليه نظراً لوجود ظروف سياسية واجتماعية، وتعد اولايات المتحدة المثال الابرز والاقدم للنظام الفيدرالي.

ان دراسة التاريخ السياسي للولايات المتحدة هو الذي يكشف عن العلاقة الجدلية بين تركيز الاختصاص ما بين السلطة الاتحادية وسلطة الاقاليم، فكلما قويت سلطة الاقاليم وتعددت اختصاصاتها ضعفت السلطة المرزية (الاتحادية) وقلت اختصاصاتها والعكس صحيح.

والاصل في كل الانظمة القانونية التي تحكم الدول ان هناك ثلاث سلطات فقط تشكل الحكومة كركن من اركان الدولة الثلاثة فضلاً عن الشعب والاقليم، ولكن ما يحدث في النظام الفيدرالي ان هذه السلطات الثلاث بمجموعها تزدوج فتكون هناك سلطتان تشريعيتن الاولى: سلطة شريعية اتحادية تمثل شعب كل دولة وتكون الثانية: سلطة تشريعية خاصة بالاقاليم تمثل الشعب الخاص بالاقليم وتكون طريقة الاقتراع السري المباشر هي الطريقة التي يتشكل من خلالها المجلسان ويتولى دستور الدولة توزع الاختصاصات بينهما وكذلك الحال مع

السلطة التنفيذية التي تتكون من مجلس وزراء ورئيس وزراء وهي السلطة التنفيذية الاتحادية، وهناك ايضاً سلطة تنفيذية محلية او اقليمية والحالة نفسها مع السلطة القضائية.

غير انه ينبغي الاشارة الى ان السلطات الثلاث في الحكومتين المحلية، والاقليمية لا يحق لها تجاوز القوانين التي حدها المجلس التشريعي الاتحادي طبقاً للدستور الاتحادي وهذا المجلس عندما يشرع قانوناً يشرعه على اساس انه قاعدة عامة محددة تحكم الاقاليم كافة على حد سواء ولا ينبغي لهذا المجلس منح اقليم سلطة دون اقليم اخر[5].

دوافع تطبيق الفيدرالية

منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة والعراقيون يحكمون بسلطة مركزة تدير شؤون المحافظات وتقرر مصائرها على نحو طالما غاب في ظله العدل ومورس من خلاله العدوان فمن يرى اليوم مدناً كالبصرة وميسان والناصرية والديوانية والسماوة وما تعانيه من فقر وتخلف واهمال سيدرك هذه الحقيقة.

من هنا أسس العراقيون في العراق الجديد دستوراً ضمنوه نظاماً فيدرالياً يترك امر اختياره الى سكان الاقاليم ان شاء طالب به وان لم يشأ فله ذلك.

وبخصوص مشروع اقليم الوسط والجنوب فهناك اكثر من عامل جوهري يبرر المطالبة به، فعدا الخصوصية الثقافية والاجتماعية لسكانه ظل هذا الاقليم يعاني من القهر والتهميش طوال عمر الدولة العراقية الحديثة، وهو اليوم احوج ما يكون الى الاحياء والنهوض سواء على مستوى البنية التحتية او على مستوى توفير الخدمات واقامة العمران، او على صعيد اشراك السكان في الحكم والادارة، وصنع القرار ناهيك عن حاجة ما يتمتع به من مقومات وثروات الى النهوض والتطور، فمن المعروف ان هذا الاقليم يحتوي ثروات

---

[5] ينظر: النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، د. رعد الجدة:٢٥.

عظيمة: نفطية وزراعية وأثرية وسياحية أهملت اهمالاً كبيراً من لدن النظم المركزة السابقة كما تعرضت الى اضرار بليغة:

١. النفطية: نجد ان المصافي والانابيب ظلت خارج نطاق الاقليم على خلاف المقتضى الاقتصادي.
٢. الزراعية: لن تهمل الزراعة في محافظات الوسط والجنوب فحسب بل منع فلاحو النجف وكربلاء والديوانية والسماوة من زراعة الرز، وهو من أفخر انواع الرز في العالم، وكان كل من يخالف ذلك القرار يعرض حقله للحرق ونفسه للاعدام.
٣. الاثار: ظلت الاثار لا تعني عند السلطة شيئً على الرغم من ان مدينة الناصرية وحدها تحوي اكثر مَن ٨٠٠ موقعاً وهو ما يفوق عدد المواقع الموجودة في كل من الاردن والكويت والسعودية[٦]، والكل يعلم ان البابا يوحنا بولص الثاني في منتصف التسعينات اراد ان يزور مدينة الناصرية وتحديداً "أور" التي تشرفت بمولد ابي الانبياء ابراهيم الخليل" عليه السلام" الا ان الزيارة لم تتم ولم نعلم الاسباب، ولو تمت الزيارة لتحولت "اور" الى مدينة مقدسة لدى العديد من اتباع الاديان.
٤. السياحة الدينية: لم تهمل السياحة الدينية في كربلاء والنجف والكوفة فحسب بل حوصرت عبر منع الزيارة الى العتبات المقدسة على مدى عقود وبشتى الطرق على الرغم من انها على الصعيد النفعي يمكن ان تدر على اهل المنطقة وعموم البلاد المليارات من الدولارات.
٥. السياحة في الاهوار: تعرضت الاهوار -كما هو معروف- الى التجفيف وهي من اندر الاماكن الطبيعية التي يمكن تطورها وتنميتها وبناء المرافق السياحية فيها وجعلها موقعاً جاذباً لكثير من سواح العالم، الا انها جففت (في عام ١٩٩٢ وعدت مناطق عسكرية، استقر فيها الجيش واعتبر كل شخص متعاون او يتكتم على الاحزاب المعارضة خائناً وخارجاً عن القانون وبذلك استخدم النظام عملة تجفيف الاهوار بشكلها الواسع)[٧].

---

[6] ينظر: الفيدرالية ومستقبل العراق، علي عبد الامير واخرون، ٨١، ٧٦، ٨٣، ١٩٤.
[7] هور الحمار، دراسة سوسيو-انثروبولوجية ميدانية من ١٩٩٢-٢٠٠٦م، عدي بجاي شبيب، ٨٥ رسالة مجاستير.

مما تقدم يمكن ان ندعي ان غياب الادارة الاقليمية المحلية كان احد اهم اسباب ذلك الاهمال الكبير.

الفيدرالية وحدة لا تقسيم

ان مشروع الفيدرالية هو من المسائل التي تثير المخاوف عند البعض لانه ينظر اليه على انه مقدمة للانفصال، والانفصال عند هؤلاء معناه حرمانهم من خيرات الوسط والجنوب وليس المسألة تعني حرصهم على الوحدة الوطنية كما يبدو من ظاهر الامر. وتأسيساً على ذلك فان الفيدرالية ليست مدخلاً للتقسيم، بل هي صيغة ادارية ومشروعاً تنموياً وحضارياً، وقد اقرها الدستور بما لا يتعارض مع الوحدة الترابية او الوطنية، فضلاً عن ذلك فان هناك بعض النقاط تؤيد ما ندعيه نوردها كالاتي[8]:

١. نصت الوثيقة الدستورية على وحدة العراق، وفي هذا ضمانة تشريعية تمنع تحول الفيدرالية الى حالة من الانفصال.
٢. ان ثمة حقيقة اجتماعية هي ان سكان الجنوب والفرات الاوسط لهم امتدادات واسعة ومكثفة في بغداد فضلاً عن امتداداتهم التي تصل كركوك والموصل وهذا الامر بطبيعته يشكل احدى الضمانات الطبيعية التي يمكن ان تحول دون التفكك.
٣. ان المركزية الدكتاتورية بممارستها الظالمة والتمييزية هي التي كانت تمثل الخطر الحقيقي على الوحدة، ولا خوف من فيدرالية تعيد للمواطن حريته وحقوقه وكرامته ويدفع عنه الظلم والتمييز.
٤. لو ان المعترضين على الفيدرالية بحجة الحرص على الوحدة كان لهم سجل مناهض للتمييز الذي كان سائداً في الماضي على مختلف المستويات ومثيراً للانقسام لهان الامر.

[8] انظر: من الهجرة الى الدولة، د. علي القريشي، ١٨٨-١٩٠.

٥. ان الفيدرالية سوف تنهي كل المشاكل التي ولدتها الانظمة الجائرة وممارستها الطائفية، وان استمرار المنازعات والتطرف سيؤدي الى تقسيم العراق وعليه فالخطر يكمن في النظم المركزية لا في النظام الفيدرالي.

موقف القوى السياسية في العراق من الفيدرالية

يعد سقوط النظام البائد في العراق منعطفاً تحول من خلاله العراق من النظام الدكتاتوري الى نظام ديمقراطي يقوم على اساس الاقتراع السري والنظام التعددي بعد ان كان النظام السابق ينتهج سياسة الحزب الواحد وفي خضم هذه الاحداث تعددت رؤية القوى السياسية للنظام الاتحادي الفيدرالي، فالقوى السياسية السنية التي كانت تحكم من خلال النظام المركزي تمسكت بالنظام المركزي رافضة مشروع الفيدرالية محتجة بان الفيدرالية بذرة لتقسيم وتمزيق البلد الواحد، وما تمسكهم هذا الا لكونهم اقلية والنظام المركزي يثبت وجودهم اذا ما طبق في العراق مجدداً فضلاً عن تخوفهم من ذهاب ثروات البلد في الوسط والجنوب الى اهلهما والشمال الى اهله الاكراد في حين ان تقسيم الثروات تساوى فيه الجميع بحكم الدستور ويكاد يتفق الاكراد مع الشيعة على عدم جدوى النظام المركزي ويجب تطبيق الفيدرالية بوصفها حقاً يكلفه الدستور ايضاً، وهناك فئة من الشيعة ترى ان يكون الحكم حكماً لا مركزياً كبذرة اولى ومن ثم عند نمو هذه البذرة وازدهارها على كافة الصعد تطور الى نظام فيدرالي.

وحين احتجت الاحزاب الشيعية على ما ذهبت اليه الاحزاب السنية من رفضها للمشروع الفيدرالي بحجة التقسيم بالنظام الفيدرالي المطبق في شمال العراق لدى الاكراد وبخاصة التجربة من كونها لا تمثل تقسيماً للبلد الواحد فضلاً عن تشابه الظروف التي تعرض لها الشيعة على يد النظام البائد مع ما تعرض له الاكراد ايضاً من خلال القهر والاضطهاد والظلم والحيف والتهميش رد قادة الاحزاب السنية على ذلك بقولهم:" ان الذي حصل للاكراد على مدى عشرات السنين يستحق النظر الى واقعهم ومستقبلهم بطريقة مختلفة تناقض الافكار في الوسط والجنوب، هذه ليست ازدواجية في النظرة الى الفيدرالية، وموافقتنا

على فيدرالية كردستان ورفضنا لفيدرالية الوسط والجنوب سببها ان الاكراد تحملوا على مدى عشرات السنين كل هذا العناء ولابد لهم من التعويض، ربما تترك لهم الحرية في تقييم اوضاعهم الحالية ومستقبلهم وان يعطوا حصة من الميزانية العراقية ليعوضوا ما ضاع والعمل على استثمار وتطور وتنمية محافظاتهم، ولا ننسى ان الاكراد لديهم خصوصية فيما يتعلق بطباعهم ومناطقهم وثقافتهم وظروف حياتهم بالرغم من انهم جزء من الشعب العراقي[٩].

ومع ان السنة كانوا يرفضون فيدرالية الشمال جملة وتفصيلاً الا انهم اقتنعوا بها مؤخراً لانهم رؤوها امراً واقعاً يفرضه الواقع بشدة، ورب سائل يسأل ويقول: ان ما جرى للاكراد وعليهم بفعل النظام السابق جرى للشيعة في الوسط والجنوب، فلم لا تكون فيدرالية الوسط والجنوب امراً يفرضه الواقع ايضاً، ولا سيما ان مقومات النظام الفيدرالي ودواعيه وموجباته متوافرة وهي ما يدعو الى ان يكون النظام الفيدرالي نظام الحكم في العراق ولو على الدى المستقبلي.

هل الفيدرالية مناسبة لوضع العراق الراهن؟

عرفنا مما تقدم ان الفيدرالية هي اتحاد مجموعة من الدول في دولة واحدة مع تنازل هذه الدول عن صلاحيتها وسيادتها وحدودها لصالح الحكومة المركز. ولما كان العراق دولة واحدة وغير مقسم ابتعد تطبيق الفيدرالية في الوقت الراهن فضلاً عن ان الفيدرالية تؤدي الى تقسيم البلد في الوقت الراهن اذا ما طبقت، فهي في كل الاحوال بذرة التقسيم، والحقيقة ان اقليماً يمتد من جنوب بغداد الى الفاو لهو دولة وهذه الدولة تحتاج الى امكانيات ادارية غير متوافرة حالياً، وتحتاج الى ميزانية ضخمة ايضاً لرسم حدود الفيدرالية بأتم صورة بما تحتاجه من تمثيل دبلوماسي وما تتطلبه الدولة من قضايا رسمية. ولا ننسى ان في وسط العراق وجنوبه خلافات بين الاحزاب السياسية قد تهيمن على الساحة فتكون الفيدرالية

[9] الاسبوعية (مجلة)، العدد١، كانون الاول ٢٠٠٧م، من حديث للدكتور طارق الهاشمي.

معلعلة وغيرصحية وينمو التفكك واللااستقرار، وتشيع الفوضى في اقليم جنوبي بغداد اذا مـا طبق.

واذا انتظمت كل محافظة في اقليم فهذا ايضاً يحتاج الى كفاءات ادارية، اذ يـصبح كل اقليم (محافظة) دولة وهذا يتطلب وزارات ودوائر بمختلف اختصاصها مما يرهق الاقليم وشتت ثروة البلد ويهدرها، عندئذ تكثر الاخطاء والهفوات عند اصحاب القرار ولا نغفـل ان المحافظات اليوم تعيش تحت وطأة التخلف الاداري وهو المسبب الكبير في فشل الادارة فيها ومن ثم فشل كثير من المشاريع وغياب المشاريع التنموية الستراتيجية.

اننا نقول بأمانة ان الوضع الذي يحتاجه العراق حالياً هو اللامركزية القريبـة مـن الفيدرالية، التي تتمتع فيها المَحافظات بصلاحيات واسعة لاننا حـديثو عهـد بالديمقراطيـة والفيدرالية تتطلب نضجاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً فضلاً عن ان اللامركزية بمرور الوقت تكشف لنا حاجة العراق للفيدرالية مستقبلاً فاذا ما توافرت الخبرة الادارية واسـتقر الوضـع الامني وتوافرت الميزانية اللازمة، ووعى المجتمع معنى الفيدرالية عندئذ يمكن ان نلجأ الـى تشكيل اقليم كأن يكون كل اقليم من ثلاث محافظات وشيئاً فشيئاً يسير العراق نحو الاسـتقرار وتسير معه الفيدرالية فاذا ما نجحت هذه التجربة يمكن ان توحد هذه الاقاليم في اقليم واحد اذا ما أرتأى الشعب في هذه الاقاليم، وكل ذلك مرهون بما تقدمه اللامركزيـة اولاً والفيدراليـة التي تأتي بعدها ومن ثم الاقليم الموحد، فاللامركزية هي الحل الامثل والناجح والمناسب لمـا عليه العراق في الوقت الراهن وليس الفيدرالية.

الخاتمة:

فيما تقدم تبين لنا ان حضارة وادي الرافدين احرزت قصب السبق فيما بين الحضارات القديمة، فكانت رائدة بحق في المجالات كافة، الامر الذي يدعو الانسان العربي بعامة والعراقي بخاصة الى الاقتداء بها دون الاتكاء عليها، فله ان يؤسس وان يعمد الى ادارة شؤونه في الحياة ادارة تستند الى ماض رصين وتنطلق الى مستقبل مشرق ومن ذلك شكل النظام الذي يتخذه الانسان لنفسه ولغيره، مادام الانسان خليفة الله سبحانه وتعالى في الارض والفيدرالية شكل من اشكال الانظمة والادارة توحد الدول لتجعلها قوية بعد ضعف ومتحدة بعد تقسيم شريطة ان تتعاون الاطراف كلها باتجاه هدف واحد هو المصلحة العامة للعراق. ومما يشد المواطن نحو الفيدرالية هو كفالة القانون لها وضمانة الدستور دون ان تكون الفيدرالية، حاجة كمالية او رغبة عابرة، بل هناك دوافع تدعو اليها واسباب معتبرة تلجئ الشعب الى التفكير فيها من ثم التصويت عليها وتطبيقها ولاسيما في اقليم الوسط والجنوب اسوة باقليم الشمال في شمالنا الحبيب، وهذا لا يعني ان النظام الفيدرالي يحظى بقبول كل الاطياف السياسية العراقية بل ان مواقفها تتباين قوة وضعفاً وقبولاً ورفضاً، ويبقى الشعب هو من يقرر شؤونه بنفسه دون اكراه من احد او قسر، هذا ما يكفله القانون ويضمنه الدستور.

اما نحن فنقول: بما ان الفيدرالية وكما مر تعريفها هو اتحاد دول مقسمة وان العراق هو دولةواحدة موحدة فان افضل ما يحتاجه هو النظام اللامركزي اي الزيادة في الصلاحيات لحكومة الاقليم او الحكومة المحلية مع بقائها منضوية تحت حكومة المركز للمحافظة على هيبة النظام ومركزيته، وبعد ان تتهيأ الظروف المناسبة للفيدرالية بامكان الاقاليم ان تستقل ولكل حادث حديث.

عرض كتاب: الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور
المرجعية الفكرية للخطاب السياسي الاستراتيجي الامريكي مابعد الحادي عشر من ايلول / سبتمبر ٢٠٠١

الناشر: (دار النهضة العربية-بيروت-الطبعة الاولى-٢٠٠٦)

٢٠٨ صفحة

عرض: المدرس المساعد
زياد طارق (*)

لايمكن ان توصف عَمليات ضرب برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من ايلول ٢٠٠١ حيث مركز القوة الاقتصادية الرأسمالية الغربية ومبنى البنتاغون حيث مركز القوة العسكرية الامريكية وفشل الهجوم الثالث على البيت الابيض حيث مركز سلطة القرار السياسي الامريكي الا انها "زلزال" هز الولايات المتحدة الامريكية بكل مؤسساتها ومستوياتها. الى جانب ذلك شهد التاريخ البشري سلسلة من الحوادث الكبرى التي قلبت كل المفاهيم التي كانت سائدة رأساً على عقب الامر الذي، ليس فقط في اطار نظام القيم في المجتمع الامريكي، وانما على مستوى الفكر السياسي الغربي، والامريكي تحديداً. كل ذلك دفع الكاتب الى القول في مقدمة كتابه ان الخطاب السياسي الاستراتيجي الامريكي ما بعد احداث الحادي عشر من أيلول استند الى مرجعية فكرية تقوم على ثلاثة محاور:-

-الميراث اليهودي، المسيحي المشترك

-حتمية الصراع بين الحضارات، وخصوصاً ما بين الغرب والاسلام "بحدوده الدموية الواسعة" مقابل نظام دولي جديد يعاد تشكيله على وفق التطورات الاستراتيجية للقطب الدولي الواحد.

-اما الاسناد الثالث فيشير الى ان نهاية التاريخ فرضت نمطاً جديداً من القيم التي انتصرت على الشيوعية ولابد ان تواجه تحدياً من قيم أخرى، وكما يقول "برنارد لويس"

(*) كلية العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية

عندما حذر الغرب قائلاً "لقد دقت طبول الاسلام فعلى اوروبا ان تعد العدة" في الوقت الذي جاء مؤكداً بأن الاسلام قد هزم الديمقراطية الليبرالية في عدد كبير من دول العالم الاسلامي وشكل تهديداً على الممارسات الليبرالية، الامر الذي تطلب "خلق شفافة عالمية قائمة على المبادئ الاقتصادية الليبرالية "وان المسار الفعلي للتطور التاريخي في الديمقراطية الليبرالية، وحسب رأيه فأنه في نهاية التاريخ ليس هناك ايديولوجية تبقى منافسة للديمقراطية الليبرالية.

يرى الكاتب ومن اجل فك الاشكالية القائمة بين الصراع الذي شكل محور تصورات صدام الحضارات عند هنتغتون "وما سبقه من فلاسفة ومفكري القرن التاسع عشر الاوروبيين، واصبح سمة من سمات المركزية الاوروبية لا بل واصبح الرمح الذي تلاقفه ساسة النظام الدولي الجديد لبناء الهنتغتونية، مقابل الحوار او التعايش الذي له شروطه وعناصره الاساسية والذي تدعو اليه الحضارات الاخرى التي لا تفرض "الصراع مع الآخر وبالشكل الذي يتعارض مع قيم شفافتها، وعلى هذا رأى الكاتب ضرورة ضبط المسألة اولاً مصطلحاً واشكالية وهذا ما انطلقه منه الكاتب من خلال تحديده المفهوم المصطلحي لحضارة والصراع والحوار لاجل حل التناقض القائم ليس فقط من ناحية القطيعة المعرفية والحتمية الحضارية وانما من خلال الاهداف السياسية الكامنة في المضمون الذي يطرحه الفكر الغربي المعاصر وارساء شروط الحوار بدلاً من اقصاء الاخر عنوة من مسيرة التاريخ خصوصاً وان هناك من يعتقد في الفكر الامريكي المعاصر الذي طرح تصوراته في "الحرب العادلة" بأنه من المستحيل ان يحصل "حوار ما بين الحضارات" وهذا ما اكد في العديد من الدراسات والمقالات الامريكية والاوروبية.

الى ذلك يشير الكاتب انه ومن جهة اخرى هناك مفكرين اقروا بضرورة الحوار لا بل ذهبوا الى القول بأن العالم ثورة حضارية انسانية واحدة.

وفي تحليله لـ "فوكوياما" ونظريته في "نهاية التاريخ" يرى الكاتب ان فوكوياما رسم خط سيرة ليصل الى نهايته و"الانسان الاخير" بعد ان قدم صورة "الانسان الاول" ملخصاً نهاية التاريخ في فكر فوكوياما بالقول الى ما يمكن ان يسمى بقدر المقاومة ...التفسير المادي للتاريخ في صورته للرأسمالية" فيرى فوكوياما ان يمكن ان يجري تفسير التطور في التاريخ

جزئياً بناءاً على اساس اقتصادي أي ان العامل الاقتصادي هو احد المحركات الرئيسية في التطور جزئياً بناءاً على اساس اقتصادي أي ان العامل الاقتصادي هو احد المحركات الرئيسية في التطور التاريخي ولكن هذا التطور يؤدي الى الرأسمالية بدلاً من لاشتراكية كنتيجة نهايته، وبهذا يوجد للتاريخ نهاية ونهاية التاريخ هي الليبرالية الديمقراطية في السياسة الرأسمالية في الاقتصاد.

ينتقل الكاتب بعدها ليناقش فكرة "صدام الحضارات" عند هنتغتون...الذي اكد في بداية مقالته التي نشرت ١٩٩٣ "بأن سياسات العالم بدأت تدخل في مرحلة جديدة "منطلقاً في ذلك من فرضية تقول "ان المصدر الجوهري للصراعات في هذا العالم الجديد لن تكون بالدرجة الاولى ايديولوجياً اوَ اقتصادياً، فالانقسامات الكبيرة بين الجنس البشري والمصدر المهيمن للصراعات سيكون ثقافياً وستبقى الدول القومية صاحبة اقوى دور في الشؤون العالمية ولكن الصراعات الرئيسية للسياسات الكونية ستحدث بين الدول والمجموعات المنتجة لحضارات مختلفة وسيهيمن صدام الحضارات على السياسات الكونية وستكون خطوط الصراع بين الحضارات هي خطوط معارك المستقبل وسيكون النزاع بين الحضارات احدث مرحلة في تطور النزاعات في العالم الحديث... ويستعرض الكاتب آراء مجموعة من الكتاب والباحثين العرب والغربيين مشيراً الى افكارهم فيما يخص صراع الحضارات.

ويفرد الكاتب جزءاً خاصاً من كتابه لنقاش صراع الحضارات من وجهة نظر عربية اسلامية.

في الجزء الثاني من الكتاب يبحث في موضوعة صراع لحضارات بعد احداث الحادي عشر من أيلول ويؤكد ان احداث ايلول وما شهدته الولايات المتحدة اعادتها من جديد الى ساحة النقاش الفكري والسياسي والاستراتيجي لمقولات مطلع عقد التسعينات من القرن المنصرم ولاسيما مقولة "صدام الحضارات" وايضاً ما بين مؤيد لهذا التنظير السياسي "الحضاري التصارعي" الذي رأى ان احداث أيلول كانت نتيجة حتمية لهذا التصارع التاريخي الحضاري "بين الغرب والاسلام" وكان متوقعاً حصوله، ويذهب الكاتب للاشارة هنا الى منظري مقولتي... نهاية التاريخ" و"صدام الحضارات" انهما عادى ونشرى مقالات اخرى

صبت في مواجهة "الخطر الاخضر الجديد" من خلال بيان المثقفين الامريكيين الذي وقعه ستون مثقفاً امريكياً بينهم فوكوياما وهنتغتون وبرنار ولويس" والبيان المعارض لـ "الحرب العادلة" الذي دعا اليه اصحاب البيان الاول ووقعه اكثر من ستون مفكراً ومثقفاً امريكياً بينهم "نعوم تشوفسكي وادوارد سعيد"، عكست هذه البيانات الصادرة في الولايات المتحدة والتي كان آخرها بيان "ليس بأسمنا" اختلاف رؤية المثقف في الولايات المتحدة للآخر كياناً وحضارة وثقافة (نصوص هذه البيانات افرد لها الكاتب الجزء الاخير من الكتاب).

ويشير الكاتب ان هذه المقالات والبيانات شكلت من المراجع الفكرية والسياسية والاستراتيجية للعديد من مراكز القرار السياسي الغربي-الامريكي حيث انها لم تؤكد فقط على تنبؤات المقولات السابقة وانما رسمت الصورة المستقبلية للسياسة الدولية في اطار المتغيرات الحالية ليس فقط في مجال الامن والسياسة والاقتصاد وانما في الفكر السياسي المعاصر الذي غلبت ملامحه في العديد من التصورات الجديدة التي طرحت في المقالات والمقابلات الجديدة التي فعلت بها الدوريات الامريكية والاوروبية. لهذا استند الكاتب في تحليل افكاره على افكار اعمدة الفكر السياسي الامريكي المعاصر أزاء احداث أيلول وبيان الحرب العادلة وما أثارته هذه الرؤية والبيان من ردود افعال معارضة او متناظرة سواء كانت اطراف عربية او غير عربية والتي عبرت عن وجهة نظرها بشكل موضوعي من دون افكار مسبقة عما جرى في ايلول ٢٠٠١ محدداً الاسباب والدوافع واسس الحوار ومشروطة بدلاً من الصراع والنظرة الاسعلائية والداعية لقراءة موضوعية لاسباب وجذور الارهاب والتخلي عن سياسات القوة وحل المشاكل والازمات بالطرق السلمية، وعدم اختزانها في رؤية احادية، وناقش الكاتب ذلك من خلال كتابات هنتغتون عن الاسلام المتأمرك، وكان مدخل الكاتب لذلك عرضه لابرز الافكار والمحاور التي جاءت خلال مقابلة اجرتها احدى المجلات الفرنسية مع الفكر "هتنتغتون" عام ٢٠٠١ توصل الكاتب بعد عرضه للمقابلة الى ملاحظة عامة تقول "ان هناك تراجع في مقولات وافتراضات هنتغتون التي ضمنها مقالته او الكتاب الذي صدر فيم بعد ولاسيما فيما يخص حتمية الصراع بين الاسلام والغرب رغم انه اكد على عدم الانسجام ما بين الاسلام والديمقراطية، ونفى ان تكون للدول الاسلامية القدرة

على تبني "النموذج والديمقراطي الغربي" ما عدا تركيا المتحالفة عسكرياً وسياسياً مع الغرب".

وبهذا فأن الكاتب استنتج من حديث هنتغتون بأن أي دولة يمكن تتبنى الديمقراطية الغربية اذا تخلت عن ثقافتها وموراثيها الدينية، الامر الذي يدفعه الى التشكيك في ان يكون الاسلام الامريكي منجسماً قيم المجتمع الغربي، ويعتقد بأن هناك امكانية ان تنصر قيم الكاثوليك والبروتستانت وحتى اليهود في بوتقة واحدة الا الاسلام، ويشدد على ان ما يقلق الولايات المتحدة هي مسألة (الديمقراطية) التي يجب ان يتسع تطبيقها في الدول غير الديمقراطية الا انه وحسب رؤية طالما بقيت غائبة فأنها عامل لعدم الاستقرار، واذ كان هنتغتون يجيز "التدخل" لنشر الديمقراطية وخصوصاً في الصين فأنه يدعو الغرب الى تبني موقفاً "دفاعياً" ضد الحضارات الاخرى وامكانية استخدام القوة العسكرية لحماية "مصالحه الحيوية" التي ليس هناك من عدو يواجهها الا العدو "الاخضر" الذي لم يحدده هنتغتون في المقابلة والى جانب ذلك اشاد الكاتب الى المقالة التي نشرت في ٢٠٠٢ لـ "فوكاياما" عن نهاية النموذج الامريكي وتحديداً في الملف الخاص عن الارهاب تحت عنوان "هدمهم العالم المعاصر" الذي انطلق في أسطره الاولى الى القول "ان العدو الحقيقي اصبح المسلمون المتطرفون المتعصبون لكل خلاف وشقاق، هم فاشست يومنا الحالي، وهذا ما نقاتل ضده".

يرى الكاتب في هذه العبارة، ان فوكوياما على ان مجريات السياسة الدولية تغيرت اتجاهاتها بعد احداث أيلول الى ذلك يختم فوكوياما مقالته بالقول "ان الصراع الدائر بين الديمقراطية الليبرالية الغربية والاسلامية. الفاشية، ليس صراعاً متكافئاً بين نظامين حضاريين قابلين للتطور فكليهما يتمكنان من اخضاع العلم والثقافة لاغراضهما، ويحصلان على الثروة ويتعاملان مع الواقع المتباين للعالم المعاصر).

الى ذلك يؤكد الكاتب ان كتابات فوكوياما تذهب جميعها لتؤكد "ان الاسلام يمثل اكبر تحد ايديولوجي للديمقراطيات الغربية، واخطر من التحديات التي كانت تمثلها الشيوعية".

وفي تحليله لمقالة كتبها هنتغتون نشرت ٢٠٠٢ والتي جاءت تحت عنوان "حروب المسلمين بدلاً من الحرب الباردة" والتي انطلق فيها هنتغتون من ان العالم يمثل قتال واسعة

متسائلاً عن اسبابها وجذورها مشدداً على احتمالية نشوب صراع بين الحضارات هو قائم الآن.

ذلك لان السياسات العالمية المعاصرة هي عصر حروب المسلمين، فالمسلمون يقاتلون بعضهم البعض ويقاتلون غير المسلمين اكثر بكثير مما تفعله شعوب الحضارات الاخرى. وعلى هذا يرى الكاتب ان هنتغتون تجاهل تماماً حروب التدخل الامريكية التي اشعلتها في العالم منذ الحرب الكورية وفيتنام والتدخل في الدومنيكان وبنما وغرينادا وغيرها من الحروب ولم يبق امامه الا المسلمين الذين جعلوا من العالم ساحة قتالهم.

وعلى ما تقدم يرى الكاتب ان الخطاب السياسي الامريكي وجد من يقوم له بالتنظير في اصداء المفاهيم الخاصة بـ "حالة الاتحاد" الذي القاه بوش الابن مذكراً العالم بأن الولايات المتحدة الامريكية هي مصدر الخير كله وان العالم الاسلامي هو أصل الشر كله "ويرى الكاتب هن ان منظري السياسة الامريكية وخصوصاً اولئك الذين كرسوا مقالاتهم في مجلة نيوزويك ٢٠٠٢ تناولوا الجوانب التي سوف تعمل بها الادارة الامريكية الحالية والقادمة لوضع العالم الاسلامي في الحجم المكانة التي يرونها مناسبة له ومهمة الولايات المتحدة بعد تدمير ما هو قائم في افغانستان ان تتقدم نحو "تجفيف مستنقع التطرف الاسلامي" او اجبار الدول الاسلامية على تغير المقررات الدراسية لطلبة المدارس في المراحل كافة بما يتلائم والسياسة الامريكية "صورتها الحسنة" في المنطقة.

وفي ختام الكتاب اكد الكاتب ان تهافت المقولات التصارعية، ونهاية التاريخ وقيمتها الحضارية وما يروج له الآن من حروب الارهاب مفتوحة النهايات يكمن في هذه الاخطار نفسها، وذلك ان معظم الحروب والنزاعات التي اندلعت منذ اكثر من خمسة قرون وما زال يعرفها العالم اليوم تحت أي من المسميات التي اتخذتها هي حروب اندلعت وتطورت في حضن جماعات وحضارة واحدة تستند الى مرجعيات دينية وفكرية وسياسة واحدة، الامر الذي يقوض من الاساس بأن الاختلافات الثقافية مصدر النزاعات، ويؤكد الكاتب رأيه بالقول ان حروب نابليون والحرب العالمية الاولى والثانية لم تكن حرب حضارات او تمايزات ثقافية وان اطلاق الصراع الثقافي-الحضاري لم يكن الا مشروعاً اوسع للهيمنة الاستراتيجية

تفرضها هذه القوة او تلك من القوى الدولية وبحكم الرهان التاريخي والظرو الدولية وسياستها القائمة، فالدول وحسب رأي الكاتب هي التي تتحكم بالعلاقات والروابط الحضارية وليس العكس، فالصراع كان وسيبقى صراعاً حول قضايا سياسية واقتصادية ملموسة وليس على اساس حضاري واختلاف خطوط الصراع بينهما واذا كان المستقبل يرسم صورة حرب بين الحضارات كترويج لهذه الافكار السياسية التي طرحت بعد احداث الحادي عشر من أيلول فهو اذن مستقبل الحرب الدائمة التي لا نهاية لها.

ونتفق مع الكاتب في القول ان الخروج من هذه الحلقة المفرغة وكوابيس الارتياب من الآخر والتخلي عن "سمو الذات الغربي و"تدني" الآخر يكمن في حوار حضاري سياسي يجمع الثقافات ويؤطر الهويات رغم تعددها وتنوعها.

Ministry of Higher education
And Scientific Research

AL-Mustansiriyah University
College of political Sciences

The International and Political Journal

ISSN = 1991- 8984